

3 . ع ، 1966

الفهرس

قضيــة المراة فى تفسير المنــار (1)

بقلم : المنجي الشملي

كان القرآن دعامة العشرة التي جمعت بين الشيـخ محمد عبده والشيـخ محمـد رشيـد رضا طيلة سبع سنوات ، «من ديسمبر سنة 1897 إلى جويلية سنـة 1905» ، رغمـا عن اختلافهمـا مِزاجا وسلوكـا اجتماعِيًّا وَسِيرة

---

(1) هو « تفسير القرآن الحكيم » الشهير بتفسير المنار، ألقاه الشيخ محمد عبده دروسا في الازهر (من سنة 1899 الى سنة 1905) والشيخ رشيد رضا من بعده ، ونشر تباعا في مجلــة المنار التي اسسها رشيد رضــا بمصر سنة 1898 ، ثم جمع في 12 مجلـدا بالعنـوان المـذكور. (دار المنار ـ مصر) .
وهذا التفسير عمل مشترك بين الشيخين ، قرأ منه الاستاذ الامام الشيخ عبده سور الفاتحة والبقرة وآل عمران وبعض ســورة النساء حتى الآيــة الـ 125 ، واستغرق المجلدات الخـمسة الاولى حتى صفحة 441 (ج 7 . ط 2 ، 1367 هـ) ، وشــرع الشيخ رشيد رضا في قـراءة التفسير من الآية الــ 126 من سورة النساء فاتم تفسيرها ، ثم فسر سور المائدة ، والانعام ، والاعراف ، والانفال والتوبة ويونس ، وهــود ، ويوسف حتي الآيــة الـ 52 منها ،
وهكذا يكون نصيب الشيخ عبده من تفسير القرآن خمسة اجـزاء ونصفا ، ونصيب الشيخ رشيد رضا سبعة اجزاء ونصفا ، ويكون مجموع الاجزاء التي فسرها الشيخان من القرآن 13 جـزءا ،
ـ وعندما كان الشيخ عبده يفسر القرآن كان الشيخ رضا يجلس منه مجلس الطالب ، يكتب اثناء الدرس مذكرات يودعها اهم ما يقوله الاستاذ ، ثم يبيضها ويطلعــه عليها قبل نشرها في المنــار ، وكثيرا مــا كــان الطالب الشيخ يضيف تعليقات وشروحا مميزا كلامــه بذكــر « أقول » في البداية . « على ان هذا التمييز لم يكــن ملتزما في اول الأمر ، بــل يكثر فى الجــزء الاول مالا عزو فيه ...» (راجع ج 1 .ص 15 ، ط 4 ، 1373 هـ) .
ـ فان نحن اعتبرنا هذا الاشتراك المتواصل بين الشيخين في تفسير المنار ، فقد يكون مــن الصعب احيانا تبين موقف كل واحد منها على حدة ، لذلك فــان كثيرا ما نضطر الى ارجــاع الموقفين الى موقف واحد : هــو موقف تفسير المنــار

سياسيّة (2)؛ وأضحى «تفسير القرآن الحكيم» الشهير بتفسير المنار مقترنا باسميهما، وقد أخرجاه للنّاس حتى يفهم به «الكتاب من حيث هو دين يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم في حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة» (3).

والجدير بالملاحظة أنّ الشيخ عبده كَرِهَ أن يكتب تفسيرا للقرآن، يضاف إلى التفاسير العديدة، «فالكتب — حسب عبارته — لا تُفيد القلوب العمي» (4)، ولكنه رغب في تفسير «الكتاب» تفسيرا يلقيه مشافهة على المشتغلين عليه في الأزهر والمتردّدين إليه، اعتقادا منه «أنّ الكلام المسموع يؤثّر في النفس أكثر ممّا يؤثّر الكلام المقروء» (5)؛ وأقبل الأستاذ الإمام على قراءة التفسير تَحْدُوه الرغبة في إصلاح حال المسلمين وإجلاء تعاليم الإسلام — «المحجُوب بالمسلمين» — بفهم القرآن فهما صحيحا واتخاذه عبرة وهداية وذكرى.

(2) **محمد عبده** (1849 - 1905)، ضبطت ترجمته ضبطا كافياً في دراسات عديدة اهمها:
• تاريخ الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده، بقلم الشيخ رشيد رضا (صدر تباعا بين سنة 1905 وسنة 1931 بالقاهرة، في 3 اجزاء) راجعْ أيْضاً:
• مذكرات الامام محمد عبده: تقديم وتعليق طاهر الطناحي (دار الهلال) د.ت
— OSMAN AMÎN : Mohammad Abduh. *Essai sur ses idées philosophiques et religieuses.* Le Caire, 1944.
— HENRI LAOUST : *Le Réformisme musulman dans la littérature arabe moderne.* Orient, 3e année. 2e trimestre 1959, n° 10, (pp. 81-107)
— C.C. ADAMS : *Islam and modernism in Egypt.* Londres 1933
• جزء منه خاص بالشيخ عبده.
— J. JOMIER, *Le Commentaire Coranique du Manâr.* Paris 1954. (pp. 1-22).

- **محمد رشيد رضا** (1865 - 1935)، راجع في شانه:
• المنار والازهر، من تاليف المترجم له، (القاهرة، 1934)، حيث يضبط الشيخ رشيد رضا اهم حوادث حياته.
• السيد رشيد رضا، او اخاء اربعين سنة، بقلم الامير شكيب ارسلان (دمشق 1356/1937) وهو اهم وثيقة عن الشيخ رضا.
المرجع المذكور J. JOMIER (pp. 22-44)
المرجع المذكور: H. LAOUST

(3) تفسير: ج 1 (ط 4، 1373 هـ)، ص 17.

(4) تفسير، ج 1، ص 13

(5) نفس المصدر، نفس المكان.

من اليسير أن نفهم إذن أنّ تفسير الشيخ عبده للقرآن قد يخرج عن طريقة المفسرين القدامى الذين « اخترعوا الْوُجُوهَ من التأويل » وأكثروا من « الإغراب في الإبعاد عن مقاصد التنزيل » ؛ إنّما هو تفسير يندرج في التيار الإصلاحي الذي نشط له الأستاذ الإمام وقد « ارْتَفَعَ صوته بالدعوة إلى [...] تحرير الفكر من قيد التقليد وفهم الدّين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف ، والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعه الأولى ، » (6) لعلّ « شيئا ممّا فقد المسلمون من العزّ أن يعود إليهم ،ومن السيادة والكرامة » (7).

فليس غريبا ، وقد اتّضحت نزعة الشيخ عبده ، أن يعرض تفسير المنار إلى تحليل أوضاع المجتمع الإسلامي من خلال القضايا الجوهريّة التي يَكْمن فيها سرّ تدهوره ، والتي لا بدّ من طلب الحلّ الموافق لها إن رام القوم نهضة وتقدما .

فلئن لم يهمل تفسير المنار مسائل العبادات والمعاملات ، فقد زخر خاصّة ببحث المسائل الاقتصاديّة (8) والشؤون السياسية (9) والفلسفة الاخلاقية (10) والحياة الاجتماعية (11) .

وممّا يلفت نظر الدّارس لتفسير المنار اهتمام الشيخين بقضيّة المرأة اهتماما تبدو معَهَ شديدة الاتصال بجميع مظاهر المجتمع الإسلامي ؛ فَلَنا أن نتساءل عن عناصر هذه القضية كما يراها تفسير المنار حتى نتعرف موقفه من المرأة ونَزعته في ضبط منزلتها في المجتمع الإسلامي الحديث .

(6) مذكرات الامام ، ص 18

(7) تفسير ج 1 ، ص 31 ...

(8) تفسير ، ج 11 (ط 2 ـ 1953/1372) ص 27 ـ 31 : الاسلام : اصلاحه المالي وقواعده فيه..

(9) تفسير ، ج 6 (ط 3 ـ 1367) : ص 25 ، 29 ، 39 ، 160 ، 279 ، 280 ..

(10) تفسير ، ج 4 ، ص 169 ـ 170 ..

(11) تفسير ، ج 1 ، ص 369 ، 442 ، ...

إنّ الناظر في تفسير المنار لا يظفر بتبويب للقضايا المختلفة المتعدّدة ، لأنّ الشيخين ، رغما عن غايتهما الإصلاحيّة ، لم يسيرا في شرحهما حسب الأغراض ، ولكنهما سلكا المسلك التقليدي الذي يقوم على تفسير السور كما جاءت مرتبة في القرآن ؛ لذلك فانّ الموضوع الواحد موزّع هنا وهناك ، في كلّ جزء من أجزاء التفسير ، ممّا يجعل الباحث لموضوع مخصوص مضطرّا إلى النظر في كل الأجزاء حتى يجمع العناصر المتفرّقة والكامنة أحيانا في استطرادات قد لا يهتدي إليها إلاّ بعد تنقيب عسير .

ولقد تراءَتْ لنا قضيّة المرأة ، على أشتاتها المتفرقات في تفسير المنار ، واضحة الخطوط ، بعد أن ضبطنا أهمّ أسسها وهي مسألة المساواة بين الرجل والمرأة ، ومشكلة تعدد الزوجات ، وموقف الإسلام من الطلاق ، ومسألة تعليم المرأة ومشاركتها في الحياة العامة ، والحجاب في الشريعة والمجتمع .

***

لا مناص من الملاحظة أنّ تفسير المنار كثيرا ما يسهب في ذكر فضل الإسلام على المرأة ؛ ولئن قلّ أن نظفر فيه بفصل يستفرغ موضوعا من جميع جوانبه ، فانا نجد فصلا يجدل فيه رشيد رضا القول في قضيّة المرأة ، وهو الذى وسمه بـ « المقصد التاسع من فقه القرآن : إعطاء النساء جميع الحقوق الإنسانية والدينية والمدنيّة » (12) ؛

وفيه يقرّر الشيخ أنّ الإسلام كان مصدر سعادة المرأة باطلاق إذْ كانت « مظلومة مستعبدة... فأعطاها جميع الحقوق التي أعْطَى الرّجال إيّاها إلاّ ما يقتضيه اختلاف طبيعتها [...] وشرع الوصية والإرث لها كالرجال ، وزادها ما فرض لها على الرجل من مهر الزوجيّة والنفقة [...] وأعطاها حق

(12) تفسير ، ج 11 ، ص : 283 — 287

البيع والشراء والإجارَة والهبة [...] وخاطبها بالتكاليف الدينية (مثلما خاطب الرجل) ، [...] وساوى بينها وبين الرجل باقتسام الواجبات والحقوق بالمعروف... » .

فالإسلام هو مصدر نُصرة المرأة وهو مَصْدر كرامتها ، حسب السيد رشيد رضا ، وقد امتهنتها « جميع الأمم وجميع الشرائع والقوانين » .

ولئن كان هذا الفصل الذي أشرنا إليه من تحرير الشيخ رضا وحده ، فانّه يدلّ على اتجاه تفسير المنار في قضيّة المرأة... إذ نلاحظ فيه نزعة دفاعيّة مطلقة عن موقف الإسلام من المرأة ، وَأحكاما عامّة حظ التدقيق التاريخي فيها ضئيل ومسلك التبرير المطلق فيها مديد مع ما عَلَيْها من مسحة سلفيّة محافظة .

لكنّ هذا الاتجاه العام قد تتضح فيه الفوارق عند درْس مختلف أوجه القضيّة في كامل التفْسير ، فلنعرض في البداية إلى مسألة المساواة بين الرجل والمرأة .

يعتبر تفسير المنار أنّ الرجُلَ والمرأة متساويان ، يشتركان في « الإنسانية [التي هي] مناط الوحدة وداعية الألفة والتعاطف بين البشر » (13) معتمدا في ذلك الآية الأولى من سورة النساء « يا أيّها الناسُ اتّقُوا ربّكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجَها وبثّ منها رجالا كثيرا ونساءَ... » .

ويرى الشيخ محمد عبده أن هذه المساواة مثبتة بما شرعه القرآن للرّجل والمرأة من نفس الحقوق ونفس الواجبَات في الدين والدنيا ، « فهما مُتَمَاثلان في الحقوق والاعمال ، كما أنهما متمَاثِلان في الذات والإحساس والشعور والعقل ،أي إن كلاّ منهما بَشرٌ تَام له عقل يتفكّر في مصالحه وقلبٌ يحبّ

(13) تفسير ، ج 4 ، ص 327 وما بعدها

ما يلائمه ويُسَرّ به ، ويكرهُ ما لا يلائمه وينفُر منه ، فليس من العدل أن يتحكم أحد الصنفين بالآخر ويتخذه عبدا يستذله ويستخدمه في مصالحه ولا سيما بعد عقد الزوجية والدخول في الحياة المشتركة » (14) .

على أن هذه المساواة ليست مطلقة ؛ لأنّ الرئاسة فيها يجب أن تكون للرجل ، إذ « يُوجب الإسلام على المرأة شيئا وعلى الرجل أشياء » حسب قول الشيخ عبده ، تفسيرا لما جاء في الآية الـ 228 من سورة البقرة : « ... ولهنّ مثلُ الذي عليهنّ بالمعروف وللرجال عليهنّ درجة » ، وتوضيحا بالآية الرابعة والثلاثين من سورة النساء : « الرجال قوامون على النساء بما فضّلَ اللهُ بعضهم على بعضٍ وبما أنفقوا من أموالهم ».

وينْطلق الشيخ عبده في تحليل مفهوم هذه الرئاسة وتدعيمها بمنطق قد يَسْتَهْوِي لولا أنّه قائم على مقدّمات لا تخلو من أحكام اعتباطيّة ، فيقرر أن الحياة الزوجيّة صورة من الحياة الاجتماعيّة ، ولمّا كان « لا بد لكل اجتماع من رئيس [...] يُرجع إلى رأيه في الخلاف [...] ، ولمّا كان الرجل أعلم بالمصلحة وأقدر على التنفيذ بقوته وماله ، كان هو المطالب شرعا بحماية المرأة والنفقة عليها ، وكانت هي مطالبة بطاعته في المعروف » (15) .

ويستنتج الاستاذ الإمام — من تفسير بقية الآية « والله عزيز حكيم » أن للمرأة حقوقا على الرجل مثل ما له عليها من حقوق ، وأنّ الرجل — بحكم القرآن — هو الرئيس عليها ، ويختم قائلا : « فكأن من لم يرض بهذه الأحكام الحكيمة يكون منازعا لله تعالى في عزّة سلطانه » (16) .

---

(14) تفسير ، ج 2 (ط 3 ، 1367 هـ) ص : 375

(15) نفس المصدر ، ص 280

(16) نفس المصدر ، ص 381

ولئن نال الرجل الرئاسة على المرأة بما يمتازُ به من علم المصلحة وقدرة على التنفيذ فانّ له سببا آخر يدعّم به تلك الرئاسة ويثبت به تفوّقه ، وهو ضعف المرأة في « أصل الخلقة » ، ممـا يضطره إلى حمايتها ، حسبما يذهب إليه الأستاذ الإمام في تفسير الآية « الرجال قَوّامون على النساء بما فضّل الله بعضهم على بعض... » ؛ ويتعزز هذا « السبب الفطري » بسبَبٍ كَسْبِيّ ناشىء عمّا ينفقه الرجل على المرأة من مال المهر . (17) .

وهكذا يَرى تفسير المنار أن المساواة بين الرجل والمرأة مقيّدة برئاسة الذكر على الأنثى ، رئاسة ترجع إلى أسباب اجتماعيّة وفطريّة وماديّة ؛ ويرى التفسير أيضا أن التفوّق الذي فازَ به الرجل ليس استنقاصا للمرأة ولكنه واجبٌ فرِض على الرجل وفيه حكمة رعاية مصلحة الزوجين ، « كأنّ المرأة تنازلت باختيارها عن المساواة التامّة وسمحت بأن يكون للرجل عليها درجة واحدة هي درجة القيامة ورضيت بِعوض ماليّ عنها » (18) .

وإنّا نجد الشيخ عبده يلحّ في توضيح مفهوم هذه الرئاسة مؤكدا أنها ليست قهرا للمرؤوس ولكنها رعاية له وإرشاد ، « إذ المرأة من الرجل والرجل من المرأة بمنزلة الأعضاء من بدن الشخص الواحد — حسب تعبيره وتصويره — فالرجل بمنزلة الرأس والمرأة بمنزلة البدن » (19) .

ويعتبر تفسير المنار أنّ هذه المساواة التي فازت بها المرأة في الإسلام « درجة لم يرفعها إليها دين سابق ولا شريعة من الشرائع بل لم تصل إليها أمّة من الأمم قبل الإسلام ولا بعده ، [...] ويزعم الجاهلون بالإسلام أنّ ما نحن عليه هو أثر ديننا [...] فانظروا كيف صرنا حجة على ديننا ! » (20) .

(17) تفسير ، ج 5 (ط 2 ، 1367 هـ) ص 67 ، 69
(18) نفس المصدر ، نفس المكان
(19) نفس المصدر ، ص 68
(20) تفسير ، ج 2 ، ص 375 — 376

واضحٌ إذن أن تفسير المنار ، في قضية المساواة بين الرجل والمرأة ، يرى الصلاح في التشبث بما جاء في النص ، ويعمد إلى تفسيره تفسيرا يكون وسيلة لإصلاح منزلة المرأة باحياء عهد السلف والرجوع إلى الإسلام في صفائه الأول ، مدافعا عنه في حماسٍ ، داعيًا إلى الإصلاح في تحفظ .

***

ثم يتصدى الشيخان إلى مشكلة تعدّد الزوجات ؛ ومن العدل هنا ألاّ نخلط بين موقف الأستاذ الإمام والسيد رشيد رضًا ، لأنّهما في هذه القضيّة مختلفان أوْ هما على مثل الإختلاف .

فمنذ سنة 1881 كانت مشكلة تعدد الزوجات تشغل بال الشيخ عبده ، إذ نشر مقالة في « حكم الشريعة في تعدّد الزوجات » وشروطه ومضارّه ، صدرت في جريدة الوقائع الرسميّة في 9 ربيع الآخر سنة 1881/1298 (21) .

وأبدى الشيخ عبده رأيه في مسألة التعدد ، بعد ملاحظة مضارّه الفادحة في المجتمع المصري ، غير متهيب ولا مُداور ، مندّدا به لأنّه سبب هدم الأسرة وإفساد عقلية الأطفال ، وتفريق الأخ عن أخيه (22) .

وفي التفسير يصرّح الأستاذ الإمام أن تعدّد الزوجات الذي كانت له فوائده في صدر الإسلام ، ولم تكن نتائجه وخيمة كما هي الآن ، لأنّ الدّين كان متمكنا في نفوس الناس رجالا ونساء ، أصبح اليوم وبالا على الأسرة والمجتمع لضعف التربيّة الدينيّة الصحيحة ، « فلا سبيل إلى تربية الأمة مع فشو تعدد الزوجات فيها ، فيجب على العلماء النظر في هذه المسألة [...] فهم

(21) أدرجت هذه المقالة في تفسير المنار ، ج 4 – ص 364 – 370 ، ولخصها بالفرنسية الاب ج. جوميي J. Jomier في كتابه المذكور ، ص 179 – 180

(22) حكم الشريعة في تعدد الزوجات : بقلم الشيخ عبده : تفسير ، ج 4 ص 366

لا ينكرون أنّ الدّين أنزل لمصلحة الناس وخيرهم وأنّ من أصوله منع الضرر » (23) .

والتعدد ليس مطلقا في القرآن ، بل هُو « مقيّد بعدم الجور والظلم » حسب عبارة الأستاذ الإمام في تفسير الآية الثالثة من سورة النساء : « وإنْ خفتم ألا تُقسطوا في اليتامَى فانْكحُوا ما طَابَ لكمْ منَ النساء مَثنَى وثلاث ورُباعَ ، فان خفتم ألا تعدلُوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ، ذلك أدنى ألا تعولوا » : ويستنتج الشيخ عبده أنّ الشرط المبيح لتعدد الزوجات صعبُ التوفر ، « فكأن القرآن نهى عن كثرة الأزواج » (24) .

ولئن لم يصلْ الشيخ عبده إلى تفسير الآية الـ 129 من سورة النساء : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بينَ النساء ولو حرَصتم ، فلا تميلوا كلّ الميل فتذروها كالمعلقة ، وإن تصلحوا وتتقوا فانّ الله كان غَفُورا رحيما » ، فانه اعتمدَها حالما عرض لقضيّة تعدد الزوجات ، مؤكدا أنه إذا انعدم العدل وجب التحريم ، قال : « فمن تأمل الآيتين «3 و129 من سورة النساء» علم أن إباحة تعدد الزوجات في الإسلام أمرٌ مضيّق فيه أشد التضييق كأنّه ضرورة من الضرورات التي تباح لمحتاجها بشرط الثقة باقامة العدل [...] : وإذا تأمل المتأمّل ، مع هذا التضييق ، ما يترتب على التعدد في هذا الزمان من المفاسدَ جزم بأنّه لا يمكن لأحدٍ أن يربّي أمّة فشا فيها تعدد الزوجات » (25) .

وهكذا يتضح موقف الأستاذ الإمام معارضا لتعدّد الزوجات لما فيه من الخطر على الأسرة والمجتمع ، معتبرا في ذلك مقتضيات العصر والملابسَات الاجتماعيّة والاخلاقيّة الجديدة .

(23) تفسير ، ج 4 ص 349 – 350
(24) نفس المصدر ، ص 350
(25) نفس المصدر ، ص 348

إلاّ أن زميله الشيخ رشيد رضا ينحو منحى آخر ، قائما على نظـرة مغرقة في المحافظة ، متشبثة خاصة بالحجج التقليديّة في تبرير التعدد ، وإن كان لا يعارض في التقليل من انتشاره (26) ، ولقد ضمّن السيّد رشيد رضا آراءه حول تعدد الزوجات في فتوى وسمها بـ « حكمة تعدد الزوجات » أجاب بها عن سؤال طالب مسلم يدرس الطب بأميركا (27) .

ولا يخفـي السيد أن مسألة التعدد « مسألة اجتماعيّة كبرى » ؛ ويرى أنّ مبرّر تعدد الزوجات راجع بالاصالة إلى طبيعة الرجل ˚ فهو « أكثر طلبـا للأنثى منها له... » ؛ ثم يتحدّث عن طبيعة المرأة وعن قصر المدّة التـي تكون فيها مستعدّة للنسل ˚ « فاذا لم يُبح للرجل التزوّج بأكثر من امرأة واحـدة كان نصف عمر الرّجال الطبيعـي في الأمّة معطلا من النسل الذى هو مقصود الزواج... » ، وعلى هذا النسق يواصل صاحب الفتوى... ؛ على أنّه في النهاية يُذكر بأنّ التعدّد الذي يلجأ إليه الذوّاقونَ محرم في الإسلام .

فموقف تفسير المنار من قضيّة تعدد الزوجات ذو اتّجاهين واضحين : اتّجاهٌ مشتقّ من مشاهدة الواقع الإسلامـي الذي لا يزيده التعدد سوى الإغراق في التدهور الاخلاقـي والاجتماعـي ، متحرّر من الحجج التقليديّة التـي لـم تعد صالحة في عصرنا ، مفسّر للكتاب في هذا الموضوع تفسيرا قائما على التدبّر ، وهو اتّجاه الأستاذ الإمام ؛ واتّجاهٌ قائم على الدّفاع عن التعدد وعلى تبريره بحجج معروفة منذ الدهور قبل الدهور ، محافظ إلى حدّ التزمت ، معرض عن تحليل الواقع الذي هو واقع المسلمين اليوم : وهو اتّجاه السيّد رشيـد رضـا .

على أنّ الشيخين على اتّفاق أن التعدّد ليس مطلقا في الإسلام ولـكنه مضيّق فيه ، مقيّد بشروط .

---

(26) الاب ج. جوميي ، المرجع المذكـور ، ص 183

(27) ادرجت هذه الفتوى في التفسير ، ج 4 ص 251 – 358

وكأنّا على مثل اليقين أنّ الأستاذ الإمام وَدّ لو أعرب عن فتواهُ بتحريم التعدّد – في عصرنا – بالرجوع إلى واقع الأمّة الإسلاميّة أوّلا ، وإلى استحالة العدل بين الزوجات ثانيا ؛ ويتّضح ذلك من مناشدته العلماء إعادة النظر في المسألة لأنّه « إذا ترتب على شيءٍ مفسدة في زمنٍ لم تكن تلحقه فيما قبله فلا شك في وجوب تغيّر الحكم وتطبيقه على الحال الحاضرة ، يعني على قاعدة : « دَرءُ المفاسِد مقدمٌ على جلب المصالح ؛ وبهذا يعلم أنّ تعدّد الزوجات محرّم قطعا عند الخوف من العدل » (28) .

ويرى الشيخ عبده أنّ التعدّد كثيرا ما يؤدّي بأفراد الأسرة الوَاحدة إلى التنافر ومسْتهجنات السبّ ، ويعسر على الزوج « إطفاء الثورة بحسن القول » فيلجأ إلى الطلاق .

***

ولئن كان موضوع الطلاق موَزّع العناصر في التفسير ، فانّا نرى منطلقه في تعليقات الأستاذ الإمام على وخيم عواقب التعدّد ، طلبا للوئام بين أفراد العائلة الواحدة ، وبالتالي رغبة في توثيق التماسُكِ بين خلاَيَا المجتمع (29).

وفي مواطن عديدة ، يُشيد التفسير بصلة الزوجيّة والعناية بأمر النساء وحسن معاملتهن ، حَاثّا بذلك على « إصلاح حال البيوت » ، داعيّا إلى العشرة بالمعروف ، مبغضا للطلاق (30) .

وكثيرا ما نجد في التفسير دعوة ملحة إلى الابتعاد عن الطلاق ، لأنّه « أبغض الحلال إلى الله » ، وحثا على وجوب التبصّر بعواقبه ، وحَضّا على

(28) تفسير ، ج 4 ، ص 350

(29) نفس المصدر ، ج 4 ، ص : 369 – 370

(30) تفسير ، ج 2 ، ص : 88 ، 379 ، 384 ، 399 ، 403 – 407 ج 5 ص : 75 – 76

الألفة والمودّة اللتيْن يدعو إليهما الدّين لأنّ الطّلاق خلاف الألفة والمودّة ، وحرصا على التوفيق بين الزوجين (31) .

ثم يُفصّلُ التفسير القول في الطلاق تفصيلا ليس فيه ما يستوقفنا عندما يطنب في وجوب تمتيع المرأة الطالق — إن كان التسريح رغبة من الرجل — (32) ، وذلك محافظة على كرامتها وشهادة بنزاهتها (33) ، وفي وجوب تسليم المرأة الرجل كل ما أخذته منه باسم الزوجية ، إن كان الطلاق رغبة منها (34) .

ولعلّ أهمّ ما عُنِي بِه الشيخ عبده في موضوع الطلاق : مسألة « الطلاق البائن » ؛ فهو يثبت أن الطلاق البائن لا يكون بلفظ الثلاث « لأنّ إنشاء الطلاق ثلاثا بالقول ليس في قدرة الرجل إيقاعه مرة واحدة ، ذلك أن الأمور العملية لا تتكرّر بتكَرّرِ القول المعبّر عنها [...] ، فمن فسخ العقد مرّة وعبّر عنها بقوله (ثلاثة) فهو كاذب ، ولو صحّ ذلك لصحّ أن يقال : الواحد ثلاثة والثالثة واحدٌ » (35) ؛ ويؤكّد الأستاذ الإمام أنّ حكم الطلاق البائن بلفْظ الثلاث أو بتكرار اللّفظ لا يؤخذ من الآية : « الطلاق مرّتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان... » (229 — سورة البقرة) ولا من آية أخرى من القرآن ؛ ولذلك وقع فيه الخلاف من الصدر الأول إلى الآن... » (36) .

ومسألة أخرى يجتهد الشيخ عبده في توضيحها ، وهي مسألة « التحليل» عندما يعرض لتفسير الآية : « فان طلقها فلا تحل له من بَعدُ حتى تُنْكِحَ

(31) تفسير ، ج 5 ، ص : 77 — 79 (شرح الاية 34 من سورة النساء)

(32) تفسير ، ج 2 ص 387 (شرح الآية 229 من سورة البقرة)

(33) تفسير ، ج 2 ص 430 (شرح الآية 236 من سورة البقرة)

(34) نفس المصدر ، ص : 380 (شرح الآية 229 من سورة البقرة)

(35) نفس المصدر ، ص : 382 (يؤكد الشيخ عبده ما ذهب اليه برواية عن ابن عباس ، وحديث رواه النسائي مسند الى محمود بن لبيد قال : أخبر رسول الله (ص) عن رجل طلق امراته ثلاث تطليقات جميعا فقام غضبان ثم قال : « أيلعب بكتاب الله وأنا بين اظهركم ؟ »

(36) نفس المصدر ، ص 383

زوجا غيرهُ... » (230 — سورة البقرة) ؛ ويقرّر أنه « رذيلة فشت في الأشرار الذين جعلوا رخصة الطلاق عادَة ومثابة ، ولا سيما مع الفتوى بأنّ الطلاق مرّة واحدة بلفظ الثلاث يقع ثلاثا [حتى] اتخذ غوغاء المسلمين دينهم هزؤا ولعبا ، فصار الإسلام نفسه يعابُ بهم وما عيبُه سواهم » (37) ؛ فالمطلّقة ثلاثا لا تحل لزوجها الأول إلا بعد أن تتزوج من آخر زوجا صحيحا عن رغْبة واختيار ، أما الزواج « الصوري » الذي يقصد به فتح الباب للزوج الأول فهو لاغٍ شرعا ، ورجوع المرأة إليه من « كبائر المعاصي » .

فلئن بَدت لنا آراء صاحبي التفسير غير جديدة في قضيّة الطلاق ، فلا بدّ من تسجيل اهتمام الشيخين بتصْفيتها من الشوائب التي علقت بها في عصرنا الحديث وتخليصها من عادات اجتماعيّة أصبحت لها ، عند بعضهم ، حصانة الشريعة ؛ وإنّما فعلا ذلك ذودا عن كرامة المرأة ، ورغبة في إصلاح المجتمع إصلاحا يرجع به إلى أسس الدين قبل أن تغطيها الشروح ، وشروح الشروح ، والتذييلات والتّذْهيبَات... ، فالمرأة إنسانٌ ، لها كل حقوق الإنسان وجميع واجباته ، لها أن تطلّق نفسها على أن تخضع في ذلك إلى قوانين الشريعة ، وللرّجل كذلك أن يطلّقها على أن يمتّعها ، وما كان لأحَدٍ منهما أن يظلم الآخر ، وعليهما معا أن يحافظا على رابطة الزوجيّة « لأنّها ، — حسب عبارة التفسير — أمتَنُ الروابط وأحْكَمُها فَتْلاً في الفِطرة ، فاذا فسدتْ الفطرة فسادا انتَكثَ به هذا الفتل ، وانْقَطَع هذا الحبل ، فأي رجاءٍ في الأمّة من بعده ؟ » (38) ، ولا يفوتُ الشيخ عبده ، بعد الإسهاب في تحليل الأحكام الدّينيّة والأدلّة القرآنيّة في مسألة الطلاق أن يلاحظ

(37) نفس المصدر ، ص 394 — 345 ويؤيد الشيخ رشيد رضا ما ذهب اليه الاستاذ الامام بشواهد عديدة ، أهمها حديث أخرجه أحمد والنسائي وغيرهما بسند صحيح عن ابن مسعود أن رسول الله (ص) قال : « ألا أخبركم بالتيس المستعار ؟ قالوا بلى ... قال : هو المحلل ، لعن الله المحلل والمحلل له »

(38) نفس المصدر ، ص : 390

– حسب عادته – واقع المجتمع الإسلامي ، فيأسف لأسراف الرجال في الطلاق وإمعان النسَاء في النشوز واقتدائهنّ من الرجال بالخُلع ، ويرُدّ ذلك إلى فساد الفطرة في الزوجين واعتداء حدود الله من الجانبين ، مذكّرا بذمّ الطلاق في الشّرع وبطلب المرأة له ، مؤكدا أن « طلب الطلاق والخلع مَحْظُورٌ في غير حال الضرورة... » (39) .

وفي سياق الدعوة إلى إصلاح منزلة المرأة حتى يصلح المجتمع ، يدرس التفسير قضيّة تعليم المرأة ومشاركتها في الحياة العامة والاجتماع ، لأنّ الإسلام يدعو إلى التفكير في أمور الدّنيا والآخرة معا ، حتى يكونَ المسلمون أمّة وسطا حقّا ، « لا كالذين حسبوا أنّ الآخرة لا تنال إلاّ بترك الدنيا وإهمال مصالحها [...] ولا كالذين انصرفوا إلى اللّذات الجسديّة كالبهائم... » (40).

***

ومن أهمّ الوسائل التي تمكّن الإنسان من الإضطلاع بمصالح الدنْيا : الفكر الذي يُشحَذ بالتعلّم . ولمّا قرّر التفسير أن المرأة مساويّة للرجل – إلاّ ما تميّزَ به من الرئاسة – فقد قرّر كذلك مبدأ وجوب تعليمها ، وجعله واجبا يطالب به الرجال « بمقتضى كفالة الرئاسة . »

ويرى التفسير صلة وثيقة بين تعلّم المرأة وصيانة كرامتها ، « لأنّ الإنسان يحترم بحكم الطبع من يراهُ مؤدّبا ، عالما بما يجب عليه ، عاملا به ، ولا يسهل عليه أن يمتهنه أو يهينه » (41) .

(39) نفس المصدر ، ص : 391
(40) نفس المصدر ، ص : 339
(41) نفس المصدر ، ص : 376 – 377

ثم إنّ النساء ، وقد خاطبهنّ القرآن « بالإيمان والمعرفة والأعمال الصالحة في العبادات والمعاملات » وأُمِرْنَ بتعلّم الكتاب والحكمة ، مدعوات إلى التعلّم حتى يؤدّين واجباتهنّ وحقوقهنّ .

على أنّ التفسير يضبط نوع التعليم الذي يَرْجُوه للمرأة ؛ فهو يدعوها إلى « العلم بما عليها من الواجبات والحقوق لربّها ولِبَعْلها ، ولأولادها ولِذي القربى ، وللأمّة والملّة » (42) .

ونجد في التفسير شيئا من توضيح هذه الدعوة الغامضة ؛ فَيُلِحّ الشيخ رشيد رضا في وجوب تمكين التربيّة الدينيّة في نفس المرأة قبل تمكينها من علوم أخرى ، مبيّنا أن الدّاعين إلى تعليمها صِنْفَان : منهم من يطالب به « اتّباعا لهدى الإسلام وما جاء به من الإصلاح » ، ومنهم من يطالبُ به « تقليدا لِمدنية أوروبّا » ؛ ويقضي السيد رشيد رضا بعقم الدعوتين ، لأنّ « الأولى استحسنت بالقول دون العمل ، وأجيبتْ الدعوة الأخرى « بالعمل على ذمّ الأكثرين لها بالقول ؛ فأنشأ المسلمون يعلمون بناتهم القراءة والكتابة وبعض اللّغات الأوروبيّة والعزف بآلات اللّهو وبعض أعمال الخياطة والتطريز ، ولكنّ هذا التعليم لا يصحبه شيء من التربيّة الدينية ولا من إصلاح الأخلاق والعادات ، بل هو من عوامل الانقلاب الاجتماعي الذي تجهل عاقبته ! » (43) .

فمن اليسير أن نلاحظ شدّة حذر مؤسس المنار في فتح باب التلعيم للمرأة ورهبته من « عواقب » التعليم العصري إن لم تصحبه رقابة التربيّة الدينيّة .

على أنّ الأستاذ الإمام ينظر إلى مسألة تعليم المرأة نظرة أوسع ، وكأنّه لا يودّ ضبط محْتوى التعليم الذي تتلقاهُ المرأة بعد أن تحسن عقائد الدّين

---

(42) نفس المصدر ، ص : 377

(43) تفسير ، ج 3 ، (ط 3 – 1367) ص : 324

وآدابه وعباداته ، لأنّ أحوال النّاس متجددة والملابسات الاجتماعيّة متطوّرة ، وكذلك العلم متجدّد ومحتواه متطوّر ؛ ويعربُ عن رأيه فيقول :

« إنّ ما يجب أن تعلمه المرأة من عقائد دينها وآدابه وعباداته محدودٌ ، ولكنّ ما يطلب منها لنظام بيتها وتربيّة أولادها ونحو ذلك من أمور الدنيا كأحكام المعاملات — إن كانت في بيت غنى ونعمة — يختلف باختلاف الزمان والمكان والأحوال كما يختلف بحسب ذلك على الرّجال ، [...] ألاّ ترى أنّ فروض الكفاية قد اتسعت دائرتها ؟ فبعد أن كان اتخاذ السيوف والرّماح والقسي كافيا في الدّفاع عن الحوزة صار هذا الدّفاع متوقّفا على المدافع والبنادق [...] وعلى علوم كثيرة صارت واجبة اليوم ولم تكن واجبة ولا موجودة بالأمس ؛ ألم تَر أنّ تمريض المرضى ومداواة الجرحَى كان يسيرا على النساء في عصر النبيء (ص) وعصر الخلفاء ، وقد صار الآن متوقّفا على فنون متعدّدة وتربيّة خاصة . [...] وهل يتيسّر للمرأة أن تمرّض [...] إذا كانت جاهلة بقانون الصحّة وبأسماء الأدوية ؟ نعم ! قد تيسّر لكثير من الجاهلات قتل مرضاهنّ بزيادة مقادير الأدويّة السامّة أو بجعل دواءٍ مكان آخر » (44) .

---

(44) تفسير ، ج 2 ، ص 377 – 378

إنّ موقف الشيخ عبده أوضَحُ من موقف السيد رشيد رضا ، فيه اجتهاد وإنْ إلى حدّ ، وقيمته — في رأينا — تكمن في الاعتراف بتطوّر العلم الذي يجبُ أنْ يكون من نصيب المرأة ، وإن لم يفصحْ الأستاذ عن رأيه إفصاحا شافيا ، عادة منه أو تحفظا ؛

ولئن كان صاحبَا التفسير على وِفَاقٍ في « قبول مبدإ التعليم للمرأة وإفساح المجال لَهَا فيه ما قام على اعتبار طبيعتها في تدبير شؤون البيت » (45) وعلى أسس دينيّة وأخلاقيّة في البداية — فانّ رأيَ السيّد رشيد رضا أبعد محافظة من رأي الأستاذ الإمام وأقربُ أفقا (46) .

وللمرأة أن تشارك في الاجتماع والحياة العامّة ، حسب تفسير المنار ؛ وهذه المشاركة ناتجة عن مساواتها للرّجل مساواة اتّضحَتْ في شرح آيات قرآنيّة عديدة ؛ ولكن المنار يزيد في إثبات هذا الحق للمرأة عندما يضبط أسباب نزول آية المباهلة : « فمن حَاجّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالَوْا ندعُ أبناءَنَا وأبنَاءَكمْ ونسَاءَنا ونساءَكُمْ وأنفسَنَا وأنفسَكُمْ ثمّ نبتهِلْ فنجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ على الكَاذِبِينَ »(الآية 61 ، س : آل

(45) الاستاذ لاووست (LAOUST) ، الفصل المذكور (Le Réformisme Musulman) ص 96

(46) من قواعد البرنامج الاصلاحى الذى كان ينادي به الشيخ عبده : توسيع نطاق التعليم وتعصيره بمقدار، عن روية وتبصر، لا عن تقليد مطلق لما هو عليه في اوروبا. راجع فصولا ثلاثة نشرها بمجلة الوقائع سنة 1881 في هذا الموضوع . وأثبتها السيد رشيد رضا في تاريخ الاستاذ الامام ، ج 2 (ط ـ 2 ـ القاهرة 1344 هـ) ص : 119 ـ 132 ـ . وقد اهتم عثمان أمين بتحليل هذه الفصول في كتابه المذكور (باللغة الفرنسية) وضبط لها تلخيصا واضحا : ص 75 ـ . وقد أبرز الاستاذ لاووست LAOUST (الفصل المذكور) خاصيات نظرية الاستاذ الامام في التعليم مبينا انه كان ينادي بتعليم اللغات الاجنبية ، وادخال العلوم والفنون فى برامج التدريس ، على أن يكون الاخذ من المناهج الاروبية والغربية بمقدار وتحفظ . (ص 97 ـ 98) ـ . وفي مسألة التعليم الديني ، يفصح الشيخ عبده عن آرائه في تفسير المنار ، ومختلف فصوله في الوقائع ، وفى « رسالة التوحيد » (ط . 15 . دار المنار 1372 هـ مصر) ص : 20 ، 158 ـ 160 ـ . راجع في هذا الموضوع أيضا الكتاب المذكور للاب جومبي JOMIER ، ص 98 ـ 108

عمران » (47) ؛ فهذه الآية القرآنيّة تفتح المجال في وجه النساء للمناقشة في قضيّة هامّة ، وهي الإقناع بأنّ عيسى بشرٌ من خلق الله وليس إلاها ؛ ويستنتج التفسير — على لسان الشيخ رشيد رضا — أنّ في هذه الآية « حكم بمشاركة النساء للرّجال في الاجتماع للمباراة القوميّة والمناضلة الدّينيّة ، وهو مبنيّ على اعتبار المرأة كالرّجل حتى في الأمور العامة... » (48) .

ويقفُ التفسير عند أمثلة تقليديّة لمشاركة المرأة في الاجتماع تعليقا على آية المباهلة والآيةِ الـ 71 من سورة التوبة : « والمؤمنونَ والمؤمناتُ بعضِهم أولياء بعضٍ : يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصّلواة ويوتون الزكَواة ويطيعونَ اللهَ ورسوله ، أولئك سيرحمهم الله إنّ الله عزيزٌ حكيم » ؛ فيذهب إلى أنّ نصرة المسلمات للمسلمين تكون في أعمال كثيرة ، مالية وبدنيّة وأدبيّة ، وتكون فيما دون القتال بالفعل ، كمداواة الجرحى وتجهيز الطعام «49» .

فليس على النساء — حسب ما يقرّره التفسير — أن يضطلعن بأعمال لم تُهَيِّئْهُنَّ لها طبيعتهنّ ، ولهنّ فيما حدّده السلف لهنّ ما يكفي لاضطلاعهن بولاية المؤمنين...

على أنّ الشيخ رشيد رضا ينظر إلى واقع النساء المسلمات في عصره فيلاحظ تدهورا اجتماعيّا يصفه مرتاعا ملتاعا ، وصغرَ نفس المرأة وانهيار المثل الاخلاقية عندها ، وحقارة التربيّة الدينيّة ؛ ويضعُ وزر ذلك على الرّجال الذين اعتدوا حدود الله في النساء وكانُوا سبب انحطاط منزلتهنّ انحطاطا

(47) يتوسع تفسير المنار في اسباب نزول هذه الآية (تفسير ، ج 3 ، ص : 319 — 323) توسعا نلخصه في قولنا : ان نصارى نجران زعموا ان كلمة الله تجسدت في عيسى وان الله حل فيه ... فامر الله النبى العربى برد هذا الزعم واظهار الحق ، وقدم عليه ثمانية من نصارى نجران ودعا الرسول للمباهلة (المناقشة والملاعنة) عليا وفاطمة وولديهما ...

(48) تفسير ، ج 3 ، ص 323.

(49) نفس المصدر ، نفس المكان . — تفسير ، ج 10 (ط 3 — 1369/1950) ص 267 .

أفسد مجتمع المسلمين ؛ يقول السيد بعد أن بيّن مساواة المرأة للرّجل في تعليقه على تفسير الأستاذ الإمام لآية المباهلة :

«... فأين هذا من حال نسائنا اليوم ، ومن اعتقاد جمهورنا فيما ينبغي أن يكنّ عليه ؟ لا علم لهنّ بحقائق الدّين ولا بما بيننا وبين غيرنا من الخلاف والوفاق ، ولا مشاركة للرجال في عمل من الأعمال الدينيّة ولا الاجتماعيّة ؛ فهل فرضَ الإسلام على نساء الأغنياء لا سيما في المدن أن لا يعرفن غير التطرّس (التأنق في الطعام والشراب) والتطرّز (توخي الفاخر النفيس من الثياب) والتورّن (المبالغة في التطيّب والتنعم) ، وعلى نساء الفقراء لا سيما في القرى والبوادي أن يكن كالإتن الحاملة والبقر العاملة ؟ وهل حرّم على هؤلاء وأولئك علم الدنيا والدين والاشتراك في شيء من شؤون العالمين ؟ كلا ! بل فسق الرجال عن أمر ربهم، فوضعوا النساء في هذا الموضع بحكم قوتهم ، فصغرت نُفُوسُهنَّ ، وهزلتْ آدابهن وضعفت ديانتهنّ ، ونحفت إنسانيتُهُنّ وصرن كالدواجن في البيوت أو السوائم في الصحراء أو السواني على السواقي والآبار [...] ؛ فساءت تربيّة البنين والبنات وسرى الفساد الاجتماعي من الأفراد إلى الجماعات ، فعمّ الأسر والعشائر والشعوب والقبائل..»(50)

(50) نفس المصدر ، ص 323 – 324

وإنك تقرأ هذا النداء ، فتجد فيه حرارة الدعوة إلى النهوض بالمرأة المسلمة في العصر الحديث ، وانتباها إلى واقع مؤسف ، ولكنك لا تخرج ببرنامج له مضمونٌ واضح ، حتى كأنك على مثل اليقين أن الشيخ رشيد رضا يخشى أن يجرّه التدقيق في قضيّة المرأة إلى ما لا يحب من الاعتراف بأنّ مقتضيات الحضارة الجديدة تفرضُ نظرَة أوسع إلى واقع المرأة .

وإنّ لنا في ما كتبه السيد — في غير تفسير المنار — ما يدعّم رأينا في شأن تحفظه البعيد ، واعتباره أن أقصى ما يمكن أن تصل إليه المرأة من تقدّم هو أن « ترجع » إلى منزلة المسلمة في صدر الإسلام (51) .

***

ونطلب نظريّة الشيخين في الحجاب من خلال التفسير ، فيرهقنا الطلب ونكاد لا نظفر إلا بأشتات قليلات الدقة ، ضئيلات الوضوح .

وقد نستنتج أن التفسير لا يعارض ضمنيّا في سفور المرأة وإن إلى حدّ ، وهو الذي يدعو إلى المساواة وإلى التعليم وإلى المشاركة في الاجتماع والحياة العامّة . ولكنّا لا نجد إلاّ إشارة عابرة على لسان الشيخ عبده يطالب فيها بتمكين النساء من الإضطلاع « بالتكاليف الواجبة عليهن في حكم الشرع

---

(51) راجع : رشيد رضا : (نداء الى الجنس اللطيف) — (القاهرة 1929) : يبين فيه المؤلف ان التشريعه الاسلامية قد اعطت المراة حقوقها كاملة ، ويعلل فيه مزايا تعدد الزوجات ويدافع فيه عن فوائد الحجاب
وتجد نفس النظرة الى قضية المراة في كتابه : « الخلافة او الامامة العظمى » (القاهرة 1923)
راجع ايضا ردوده على محاضرة الدكتور محمد عزمي « هل يجب مساواة المراة بالرجل في والواجبات » ؟ نشرت هذه الردود في « كوكب الشرق بتواريخ : 10 يناير و 13 يناير 22 يناير 1930 ،وفي هذه الرودود يرفض السيد رشيد رضا ان يكون « وجود نساء نابغات دليلا على مساواتهن للنابغين من الرجال [..] وانه من الباطل ، ان يستنتج من (حق المراة في الوجود واستنشاق الهواء) وجوب تمزيق الحجاب [..] واختلاط النساء بالرجال الذي ذقنا مرارتهوتجرعنا غصصه [..] ، اما الطلاق ، فلو جعل حقا مطلقا للنساء كالرجال لفسدت البيوت وانقطع سلك العائلات بالافراط فيه .. »

والعرف » (52) ، ويصرحُ بأنّ إمساك النساء في البيوت ومنعهنّ الخروج ، عند الحاجة إليه ، من الأمور التي ورد في القرآن « دليل تحريمها » (53) .

أما الشيخ رشيد رضًا فيشتد في معارضة السفور ، وربّما اشتبه عليه بالانحلال الأخلاقي ظنا منه أن الحجاب حارسٌ أمين ؛ فيقضي بأن السفور وما يتبعه من اختلاط إنما هو تجديد تقليدا للمجتمع الأوروبي ، ولا يفهمه إلاّ على أنّه « استباحة التهتك والفجور » (54) .

إلاّ أنّ السيّد يعلل موقفه هذا بانتشار الفساد الاخلاقي « حتى هبطت البلاد [...] إلى الدركات السفلى من الإباحة [...] فطفق دعاة الإلحاد والزندقة وإباحة الشهوات يهدمون التربية الدينية وأخلاق العفة باسم التجديد المدني والتقليد الأوروبي (55) .

تلك أهمّ مظاهر قضية المرأة كما تتراءى للناظر في تفسير المنار ، علَى أنّه قد يَظفر ، هنا وهناك ، في مختلف أجزاء التفسير ، بجزئيات تضاف إلى القضيّة ، وذلك خاصة عند ما تُدرس مسائل الانحراف الجنسي عند الرجال والنساء ، وانتشار اللّهو والمجون ، وإقبال النّاس على « المواخير السريّة والجهريّة » طلبا للذّة الرخيصة ، وشغف الشباب — فتيانا وفتيات — بالرقص المؤدّي إلى العشرة السيّئة ، وحَمأة الشهوات السافلة الناشئة عن إختلاط الجنسين (56) .

***

وقد يحق للدارس أن يتساءَل عن نزعة صاحبي التفسير في قضيّة المرأة ، هذه القضيّة الكبرى في المجتمع الإسلامي المعاصر ! فيقرّر انها نزعة إصلاحيّة محتشمة محافظة حينا ، قديمة جامدة أحيانا ، لأنها منبثقة عن نظرة سلفيّة ، أساسها الرجوع إلى ما كانت عليه المرأة في عهود الإسلام الأولى .

(52) تفسير ج 2 ، ص 380 (في سياق شرح الاية الـ 228 من سورة البقرة)
(53) تفسير ، ج 4 ، ص 430 (في سياق شرح الاية الـ 15 من سورة النساء)
(54) تفسير ، ج 9 (ط 13672) ص 548 (في سياق شرح الاية الـ 201 من سورة الاعراف)
(56) نفس المصدر ، ص : 540 — 549

وقد يقضي بتفاهة ما يدعو إليه تفسير المنار ، وقد نالت المرأة المسلمة من الحقوق — في كثير من البلدان الإسلامية (57) — أكثر مما كان يطالب به الأستاذ الإمام وزميله السيد رشيد رضا .

على أنه من العدل أن نزيد هذا الحكم تدقيقا حتى نضبط مدى أهمية ما أتى به الشيخان في قضية المرأة .

فقد نشط الأستاذ الإمام وزميله لتفسير القرآن حتى يكون « **هداية للناس** » ؛ ونحن نرى أن عملهما يجب أن يفهم بالرجوع إلى هذه القاعدة المنهجية الأساسية ؛ فهما لم يرغبا في تفسير القرآن تفسيرا يكون معلمة لغوية أو موسوعة علمية ، ولكنهما لاحظا تدهور المسلمين وتأخرهم ، وعللا ذلك بابتعادهم عن تعاليم الدين الخالص وهداية القرآن ، ولاحظا أن « أكثر ما كتب في تفسير القرآن يشغل قارئه عن المقاصد العالية والهداية السامية [...] بمباحث الإعراب ، وقواعد النحو ، ونكت المعاني ، ومصطلحات البيان [...] وجدل المتكلمين ، وتخريجات الأصوليين ، واستنباطات الفقهاء المقلدين وتأويلات المتصوفين... » «58» فأقبلا على تفسير يفتح العيون على عيوب الأمة ويهز القلوب إلى تعاليم الإسلام كما طبقها السلف قبل ظهور الخلاف .

لهذه الأسباب كانت نظرة الشيخين سلفية — إجمالا — في وجوب تغيير منزلة المرأة ؛ ولهذه الأسباب أهابا بالمسلمين أن يرجعوا إلى فهم قوانين الشريعة كما جاء بها القرآن ، لا كما تصوروا انعكاساتها وظلالها من خلال عصور الانحطاط حتى اختلط الدين الخالص بالعادات الاجتماعية

(57) في الجمهورية التونسية ، مثلا ، اصبح تعدد الزوجات ممنوعا ، بمقتضى الفصل الـ 18 من « مجلة الاحوال الشخصية »(قانون 4 جويلية 1958) ، واصبح الطلاق لا يقع الا لدى المحكمة بتراضي الزوجين ، بمقتضى الفصلين الـ 30 والـ 31 من مجلة الاحوال الشخصية

(58) تفسير ، ج 1 ، ص 7

السيئة ، والخرافات والترهات والسخافات . ولهذه الأسباب لم يرَ الشيخان بُدّا من الرجوع إلى البداية ، لأنّ حسن البدايَة ضامن لصحّة النهاية .

وتوضيح هداية القرآن فرض على الشيخين المنَاداة **بفلسفة أخلاقية** في تفسيرهما . هي قاعده أخرى أساسية لا بدّ من تذكّرها لمن رام فهم عملهما.

ثم إنّ الباحث قد يقتنع الآن بأنّ نظرة الشيخين إلى قضيّة المرأة المسلمة — على ما فيها من محافظة ودعوة إصلاحيّة محتشمة ، وتمدح بسيرة السلف — نظرة جريئة ، وإن إلى حدّ ، إن نحن وضعناها في ظرفها التاريخي المضبوط ، وإن ذكَرنا أنّ صاحبَيْها قد اكتملت شخصيتهما وثقَافتهما وتجربتهما الإنسانية في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر .

فنزْعتهما في ضبط منزلة جديدة للمرأة المسلمة نابعة من عملية عسيرة ، هي تَصْفية شؤون المسلمين الروحيّة والاجتماعيّة ، في عهد نحفت فيه روح المسلُم وعمت فيه الفوضى مجتمع المُسلمين .

ولئن كان موقف الأستاذ الإمام أكثر جرأة وأوسع أفقا وأعمق فكرا من موقف السيد رشيد رضا — خاصة في مسألة تعدّد الزوجات — فذلك راجع إلى اختلاف تكوّنهما الثقافي واختلاف نظرتهما إلى الحياة باطلاق .

ونحن نعتبر — على كل حال — أن موقف التفسير من قضية المرأة المسلمة كان جوابا على تساؤلات غامضة كامنة في ضمير جيل عاش في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر والثلث الأول من القرن العشرين في البلاد التي يدين أهلها بالإسلام ؛ وكان بالتالي توضيحا لمشكل خطير ستخرّج له الأجيال التالية حلولاً توفيقية آخذة بحظ من روح الشريعة وبحظّ من مقتضيات الحضارة الجديدة ، مع تفاوت في هذا الحظ أو ذاك راجع إلى اختلاف مباشرة المسلمين — هنا أو هناك — لهذه القضيّة الخطيرة خاصّة وَلبعث الضمير الإسلامي الجديد عامة .

المكتبـة الافـريقية

سلسلـــة :

من نصوص ودراسات في تـاريخ افـريقية والمغـرب

تحقيق : **فـرحات الدشراوي**

III

سياسة الصبيان وتدبيرهم

سيـاسـة الصبيـان وتـدبيـرهـم

للطبيب التونسي المشهور
ابـو جعفر احمد بن ابراهيم بن ابي
خـالد المعـروف بابن الجـزار المتوفى
سنة 369 هـ بالقيروان

ننشر مقتطفا من هذا المخطوط الثمين الذي سمح لنا شيخنا حسن حسني عبد الوهاب بالإطـلاع عليه فنشـكره أحرّ الشـكر على فضله وحسن عنايته . واننا ننوي إن شاء الله ننشر الـكتاب بأكمله ليتمكن القارىء من المقارنة بينه وبين نصوص أخرى لابن سحنون والقابسي مثلا .

***

فإن قال لنا قائل : قد نجد من الصبيان من يقبل الأدب قبولا سهلا ونجد منهم من لا يقبل ذلك ؛ وكذلك قد نجد من الصبيان من لا يستحيي ونجد منهم من هو كثير الحياء ؛ ونجد منهم من يعنى بما يعمله يتعلّمه بحرص واجتهاد ونجد من هو يملّ التعليم ويبغضه ؛ وقد نجد أيضا في ذوي العناية منهم وذوي العلم ممن إذا مدح بعلم ، علما كثيرا . ومنهم من يتعلّم إذا عاينته أو عاتبه المعلّم ووبّخه ، ومنهم من لا يتعلّم إلاّ للفرق ومن الضرب . وكذلك

رب تمم بخير

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد

قال ابو جعفر احمد بن ابراهيم بن ابي خالد ان معرفة سياسة الصبيان

وتدبيرهم باب عظيم الخطر جليل القدر ولم ار لاحد من الاوايل المتقدمين

المرضيين في ذلك كتابا كاملا شافيا بل رايت ما يحتاج من علمه ومعرفته

من ذلك متفرقا في كتب شتى واماكن مختلفة مما لعل بعض الناس قد عرف

بعضه وجهل بعضه ولعل بعضهم قد عرف ذلك كله ولم يعرفه من اسهل

طرقه واقصد سبله واقرب ماخذه فلما كان الامر في ذلك على ما وصفنا

رايت ان اجمع المتفرق من ذلك في الكتب الكثيرة والف بعضه الى بعض

في هذا الكتاب كالذي تولف من الجوهر اكليلا بهيا وينظم منه عقدا حسنا

واضمنه جميع ما علمت ان جالينوس قاله في ذلك واضيف اليه ما اجمع من

الكتب مبوبا وجملة ابوابه اثنان وعشرون بابا وانما جعلته كذلك ليسهل

درسه على قاريه ويعرف حفظه على راويه واكتفت فيه انه حدود جنا عن

الطب الذي هو حفظ الصحة على الابدان الصحيحة ودفع المرض عن الابدان

السقيمة وذلك انا ذكرنا ما تحفظ به الصبيان على صحتهم الطبيعة وحسن العناية

بهم وجودة التدبير لجسم المرضعة ليصلح اللبن وتجود هضمه في ابدانهم ثم

عقبت ذلك بذكر الاعراض التي تعرض للصبيان من وقت ولادهم الى ان

يحتلموا وطريق المداواة لهم على سبيل الجملة المبرد والله نسأله التوفيق والتسديد

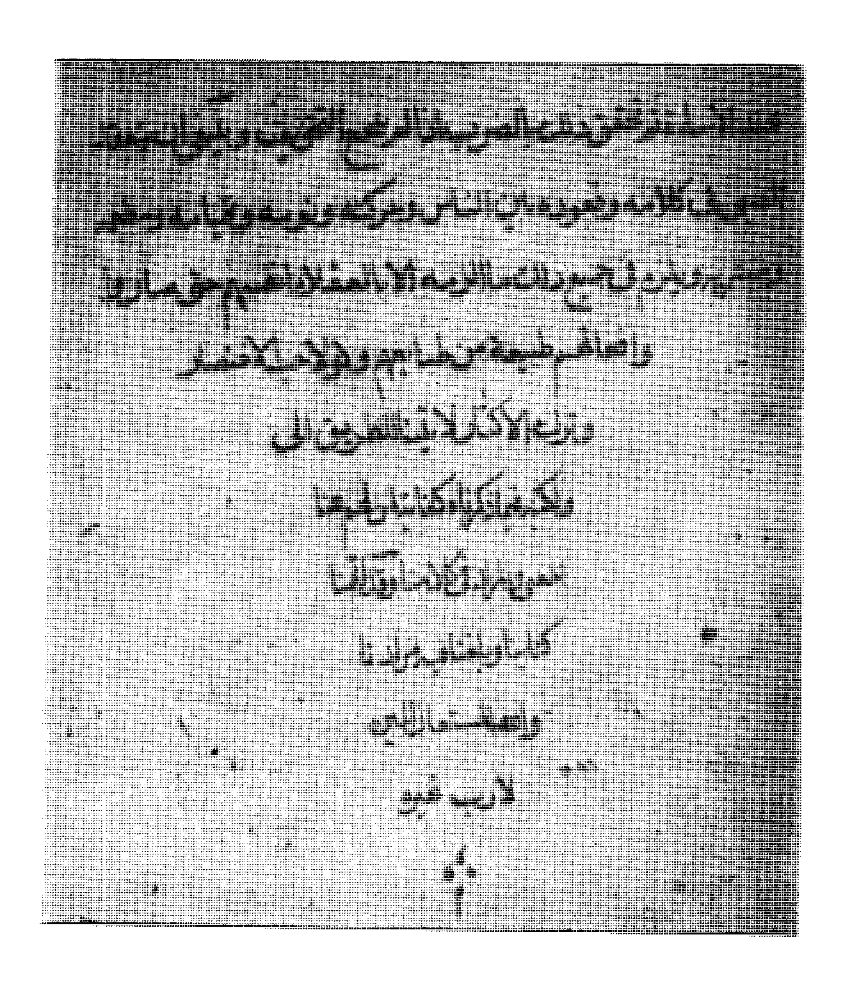
نجد اختلافا كثيرا ومطردة في الذين يملون التعلم ويبغضونه . وقد يرى من الصبيان محبّا للكذب ، ويرى منهم محبّا للصّدق ، ويرى فيهم اختلاف في الأخلاق ومضادة كثيرة بالطبع ، فما معنى قولك : ونحبّك في أن يأخذ الأطفال بالأدب منذ الصغر ، وأنت ترى منهم مثل هذا بالطبع من غير تعليم ولا تأديب ؟ أفترى الأدب ينقل الطبع المحمود ؟

فنقول لقائل هذه المقالة : أما ما ذكرت من طبايع الصبيان واختلافهم ، وقولك : « أفترى الأدب ينقل الطبع المذموم إلى الطبع المحمود ؟ » فلعمري إنه لكذلك ؛ وإنما أوتي صاحب الطبع المذموم من قبل الإهمال في الصبيان وتركه ما يعتاد ممّا تميل إليه طبيعته ، فما هي مذمومة ، أو يعتاد أشياء مذمومة أيضا لعلّها ليست في غريزته . فإن أخذ في الأدب بعد غلبة تلك الأشياء عسر انتقاله ولم يستطع مفارقة ما اعتاده في الصبا .

وقد قال ابوواس الفيلسوف : « إن أكثر الناس إنّما أُوتُوا في سوء مذاهبهم من عادات الصبا إذا لم يتقدمهم تأديب وإصلاح لاخلاقهم وحسن سياستهم » . فلذلك أمرنا نحن أن يؤدب الصبيان وهم صغار لأنهم ليس لهم عزيمة تصرفهم عما يؤمرون به من المذاهب الجميلة ، والأفعال الحميدة ، والطرائق المثل ، إذا لم تغلب عليهم بعد عادة رديئة تمنعهم من اتباع ما يراد بهم من ذلك . فمن عوّد ابنه الأدب والأفعال الحميدة والمذاهب الجميلة في الصغر حاز بذلك الفضيلة ونال المحبة والكرامة وبلغ غاية السعادة . ومن ترك فعل ذلك ، وتخلّى عن العناية به أدّاه ذلك إلى عظيم النقص والخساسة .

ولعلّه يعرف فضيلة ذلك في وقت لا يمكنه تلافيه واستدراك ما فاته منه ، فتحصل له الندامة التي هي ثمرة الخطأ . وذلك أنّا قد نرى من الناس من يعلم أن مذاهبه رديئة ، ولا يخفى عليه الطريق المحمود ، ويعسر عليه النزوع اليه ، لتقدّم العادة المعتادة فيهم ، وإن علموا أنفسهم على

بعض تلك الحالات ، تصنّعا وحبّا من الناس في الظاهر ، ولم يعدموا إذا خلوا أن يرجعوا إلى المذاهب المتمكـنة في غرائزهم . وإنما أصل العادة لأن الإنسان إلى العادة أميل ، وعليها أحرص ، وبها أشد تمسّـكا ؛ فليس إذا من الأسباب



الذميمة شـيء أقوى سببا ، إذا كان في طبيعته من مثل ذلك الشـيء الذي تعوّده ؛ فإن لم يعن من ذلك الطبـع ، فإن العادة وحدها تبلغ في ذلك إذا استحكمت وتمكّـنت مبلغا قويا .

وكذلك فعل العادة في الأشياء المحسوسة الفاضلة . فإن رأيت صبيا فيه طبيعة جيّدة وعادة صالحة فإنه لا تفارقه الخصال المحمودة الشريفة ، فإنه طبع عليها من جهتين قويتين ؛ كما أن ذلك لا تفارقه الخصال المذمومة الدنيئة ، لأنه طبع عليها من هاتين الجهتين ، اعني العادة والطبيعة ، مع أن بعض الحكماء قال : « العادة طبيعة ثانية » . فلموقع العادة هذا الموقع وجب أن يؤدب الأطفال ، ويعوّدوا بالأشياء الجميلة ، وتربيتهم تربية فاضلة ، ليكونوا إن قبلت طبائعهم منفعة التأديب والتعاهد صاروا أحبارا فضلاء . فإن أمكن أن يكون من الصبيان من لا يقبل ذلك ، لم يلزمنا نحن التواني وإغفال ما يجب في تأديبهم ، فنرجع على أنفسنا باللّوم فنقول : إنّا قد أخطأنا إذ لم نعنى بهم في حين يمكن فيه تأديبهم وقبولهم ؛ وقد علمنا أن صغير الخطأ في أوائل الأشياء وأصولها ليس يصير الضرر في العاقبة . وكذلك العاقبة في الصواب ، كأن الأشياء لتنبىء على الأصول .

فقد بيّنّا بيانا شافيا ، وأوضحنا إيضاحا كافيا ، وتبيّن لمن لم يفهم عنّا قولنا إن الصواب أن يؤدب الصبي . فإن كانت طبيعته طبيعة من ليس بأديب ولا لبيب فهذا بين للمعترض طريق الصواب . فأما إن كان الصبي طبيعته جيدة ، أعني أن يكون مطبوعا على الحياء ، وحبّ الكرامة والألفة ، محبّا للصدق ، فإن تأديبه يكون سهلا ، وذلك أن المدح والذمّ يبلغان منه عند الإحسان والإساءة ما لا تبلغه العقوبة من غيره...

الجملــة فى نظــر النحــاة العــرب

بقلم : عبد القادر المهيري

من المبادىء الملتزمة في علم اللغة الحديث أن تتخذ الجملة أساس كـل دراسة نحوية وان تـكون بداية كل وصف لغوي ونهايته (1) ، وان يحلـل الـكلام لا على أساس الألفاظ التـي يتألف منها وإنما باعتبار ما بين هذه الألفاظ من علاقة وما تـكونه بفضل تلك العلاقة من وحدات قائمة الذات لا تحتاج إلى ما يتممها بل ان مفهوم الـكلمة التقليدي من حيث هـي مجموعة أصوات مستقلة ومن حيث محافظتها على كيانها داخل الجملة هو نفسه موضوع نقاش إن لم نقل ان اللغويين المعاصرين يرفضونه ويحاولون تحديدا جديدا للعنـاصر المؤلفة للجملة يراعى فيه كثافة تلك العناصر ومدى ارتباط بعضها ببعض ونوع العلاقة التـي بينها (2) وقد شرع بعد في نشر كتب تدرس نحو بعض اللغـات الحية على أساس الجملة تنطلق منها وترجع إليها كل شـيء في كل حين وآونة(3)

---

(1) انظر في هذا الصدد كتاب : Eléments de Syntaxe Structurale : Lucien Tesnière باريس 1959 وهذا الكتاب هو محاولة لوضع نحو يعتمد ما وصلت اليه البحوث اللغوية في العصر الحديث من نتـائج.

(2) انظر فصلا لاندري مارتناي (André Martinet) في مجلة ديوجان (Diogène) بعددها الصادر سنة 1965 من ص 39 الى ص 53.

(3) نذكر منها على سبيل المثال :

Eléments de linguistique descriptive : Maurice Dessainte (Bruxelles 1960).
L'analyse grammaticale : Maurice Dessainte (La Procure 1962).
Structure immanente de la langue française : Knud Togby (Paris 1965).

ولا شك في أن دراسة النحو على هذه الطريقة تغيّر ملامحه وتجعله أكثر نجاعة لتفهم اللغة واستكناه أسرارها وتقدير امكانياتها حق قدرها ، إلا أنه عندما نتحدث عن العربية فانه لا يمكننا أن نغض النظر عن التراث النحوي الذي تراكم أثناء عصور طويلة ، واشتمل على مصنفات ما زالت لها قيمة لا تنكر تضمنت في طياتها آراء تدل على تفكير عميق وملاحظات لم تفقد بعدما اتسمت به من سداد ، ولو رمنا أن نغض عنها النظر لما تسنى لنا ذلك لشدّة تأثيرها فينا وتلوينها لتكويننا ، ولذا قد يحسن أن تراعيَ كلُّ محاولة لاحياء نحو العربية وتغذيته بالنظريات اللغوية الحديثة ما جاءت به امهات الكتب النحوية القديمة وأن يمحّص ذلك ويُنتقى منه ما يعتبر مفيدا . وهذا ما جعلنا نهتم بدراسة النحاة العرب للجملة ونحاول ان نضبط النواحي الأساسية التي استرعت انتباههم ونتفهم الطريقة التي توخوها في ذلك .



وأول ما يسترعي انتباه الناظر في أشهر مصنفات النحو ككتاب سيبويه وشرح المفصل لابن يعيش اننا لا نجد فيها أبوابا أو فصولا خاصّة بدراسة الجملة من حيث أنواعها وأنواع عناصرها ومختلف وظائفها ولا يعني هذا انها خالية من كل إشارة إلى الجملة وإنما معناه أن دراسة الجملة كانت رهينة دراسة المفردات لا يُكْترث لها إلا إذا أمكن لها أن تعوض المفرد ، ولذا تجد حديثا عنها في بعض الأبواب مثل التي تخصص لدراسة الحال (4) والنعت (5) والخبر (6) والشرط وجوابه (7) والمضاف (8).....

(4) انظر مثلا شرح المفصل لابن يعيش ج 2 ابتداء من صفحة 65 (ادارة الطباعة المنيرية بمصر)

(5) نفس المصدر ج 3 ابتداء من ص 52

(6) نفس المصدر ج 1 ابتداء من ص 88 الى آخر الجزء ، ج 2 ابتداء من ص 2.

(7) نفس المصدر ج 8.

(8) نفس المصدر ج 3 ابتداء من ص 15.

ولئن وجدنا في هذه الدراسة المشتتة ملاحظات كثيرة لا تخلو من فائدة أحيانا فاننا لا نجدها تنم عن نظرة شاملة تلم بعناصر الجملة على أساس الوحدة التي بينها ، ولا نشعر بأن الجملة تدرس لذاتها بل نفهم انها لم تدرس إلا عرضا ولم يُعْتَنَ بها إلا لإتمام الأبواب المخصصة للمفردات ، وقد ظلت العناية بالجملة محدودة طيلة قرون ، ويمكن أن نعتبر أن ابن هشام (9) هو أول من أدرك فائدة تخصيص باب للنظر في الجملة باعتبارها قاعدة الكلام ووحدته الأساسية ، وقد أفرد لها بابا في كل من كتابيه مغني اللبيب (10) وشرح مقدمة الإعراب (11)، ومن طريف ما يلاحظ عنده أنه استهل كتابه الثاني بدراسة الجملة ولعل في ذلك ما يدل على شعوره باهميتها وادراكه ان الدراسة النحوية ينبغي أن تنطلق منها إذا أريد من تلك الدراسة احترام الواقع والإحتفاظ بطابعه ؛ إلا أن ابن هشام لم يتجاوز في حديثه عن الجملة جمع ما كان متفرقا في امهات الكتب النحوية ؛ ولئن كان ذلك لا يخلو من فائدة فانه لا يضيف شيئا إلى ما حصل بعد ولا يعتبر تلافيا لما اهملته الدراسات القديمة من جوانب جديرة بالعناية لا يمكن التخلي عنها في دراسة شاملة للجملة .

فما هي الجوانب التي حظيت بعناية النحاة العرب وما هي المظاهر التي اهملت أو كادت تهمل ؟

أول ناحية كفيلة بالاهتمام هي المصطلحات التي يطلقها النحاة على ما نسميه الجملة ، فلا يظهر انهم كانوا في البداية يستعملون مصطلحا تبلور فيه ما تتميّز به الجملة من تركيب خاص ، وهذا ما يلاحظ عند سيبويه عندما يتحدث عن الجملة مطلقا عليها عبارة « المسند والمسند اليه » (12) مشيرا بذلك إلى

---

(9) جمال الدين ابو محمد عبد الله بن يوسف بن احمد بن عبد الله بن هشام الانصاري المقري من نحاة القرن الثامن 708 ـ 761 ـ 1309 ـ 1360.

(10) انظر ج 2 من ص 41 الى ص 71 (ط. مطبعة التقدم العلمية بمصر).

(11) انظر ج 1 من ص 45 الى ص 126.

(12) ج 1 ص 7 (ط القاهرة) يقول سيبويه : « هذا باب المسند والمسند اليه وهو ما لا يستغنى واحد منهما عن الآخر ولا يجد المتكلم بدا فمن ذلك الاسم المبتدأ والمبني عليه.... ».

الإلتحام الذي يحصل بين هذين العنصرين . وتجد كذلك في امهات الكتب ترددا بين مصطلحين لا يميّز بينهما النحاة وهما الكلام والجملة ، فنرى الزمخشري وابن يعيش يقتفيان اثر ابن جنّي (13) فيقول الأول : « والكلام هو المركب من كلمتين اسندت أحداهما إلى الأخرى... ويسمى الجملة » (14) ويضيف الأول قائلا : « الكلام عبارة عن الجمل المفيدة وهو جنس لها فكل واحدة من الجمل الفعلية والاسمية نوع له يصدق اطلاقه كما ان الكلمة جنس للمفردات » (15) .

على اننا نلاحظ في كلام ابن يعيش محاولة للتمييز بين المصطلحين تقوم على اعتبار « الكلام » اعم من الجملة . ولعل هذا الفرق هو أساس التمييز الذي يشير إليه ابن هشام ، فهو يفصل بين الكلام الذي احتوى معنى مستقلا لا يحتاج إلى تراكيب أو كلمات تتمم معناه وبين الجملة التي تم تركيبها بفضل تضمنها للمسند والمسند اليه ولكنها لا تكون معنى مستقلا ، فلا بد ان ترد في تركيب ترتبط به ارتباطا جوهرا وهذا ما يفهم من قوله : « الكلام هو القول المفيد بالقصد والمراد بالمفيد ما دل على معنى يحسن السكوت عليه والجملة عبارة عن الفعل وفاعله والمبتدإ وخبره وبهذا يظهر لك انهما ليسا بمترادفين كما يتوهمه كثير من الناس ، والصواب انها أعم منه اذ شرطه الإفادة بخلافها ، ولهذا تسمعهم يقولون جملة الشرط ، جملة الجواب ، جملة الصلة ، وكل ذلك ليس مفيدا فليس كلاما... » (16) ولئن لم يقع العمل بهذا التمييز ولم يستغل في التحليل النحوي لازالة الإلتباس من الحديث الخاص بالجملة فانه يدل على ان بعض النحاة العرب قد شعروا بضرورة الفصل بين صنفين من التراكيب لا يمكن الخلط بينهما .

* * *

(13) الخصائص ج 1 ص 32 ــ ط دار الكتب.
(14) شرح المفصل ج 1 ص 20.
(15) المصدر السابق ج 1 ص 21.
(16) مغنى اللبيب ج 11 ص 42 ــ هذا التمييز يذكرنا بما نجده في الفرنسية من تمييز بين phrase و proposition

ثم انهم ، بالإضافة إلى اهتدائهم إلى هذه الناحية الهامّة ، قد عرّفوا الجملة تعريفا روعيت فيه جوانب أساسية فقد راعوا في تحديدها مفهوم الإسناد ومفهوم الإفادة . فالجملة في نظرهم هو ما تركب من مسند ومسند اليه ، ومعنى ذلك انها لا بد ان تتركب من عنصرين أساسيين احدهما يمثل محور الحديث أو الموضوع الذي احتاج المتكلم ان يتكلم في شانه ، ويمثل الآخر ما يقوله المتكلم في شأن هذا المحور ويتحدث به عنه . وجدير بالملاحظة ان مفهوم الإسناد يرجع إلى أقدم عصور النحو العربي إذ أنك تجده عند سيبويه (17) وقد حاولوا تحديد هذا المفهوم تحديدا يزيل عنه كل لبس ، فابن يعيش يقارنه بتركيب الافراد ويستنتج من ذلك انه عن التركيب الإسنادي ينشأ في الجملة التحام يجعل منها لا مجموعة معان يضاف بعضها إلى بعض ، بل معنى جديدا كليّا موحدا (18) ، وهم يميزون ، زيادة على ذلك ، بين العناصر الأصلية التي تتكون من المسند والمسند اليه والتي لا يتم تركيب الجملة بدونها وبين بقية العناصر التي ليست ضرورية لاكتمال التركيب ولهذا يسمونها فضلة (19) .

أما مفهوم الإفادة فهو كذلك جانب قار من جوانب تعريفهم الجملة ، فهي كل « لفظ مستقل بنفسه مفيد بمعناه » (20) أو هي « اللفظ المفيد » (21) « والمراد بالمفيد ما دلّ على معنى يحسن السكوت عليه » (22) ، فالافادة مقترنة اذن باستقلال الجملة وعدم احتياجها إلى ما يتمم معناها ؛ ومن هنا يتراءى مظهر آخر للجملة وهو انها وحدة الكلام أو هي كما يقول ابن جني « قاعدة الحديث » (23) . فلا مناص من ضبط حدودها ليتسنى للنحوي ان يقوم بعمله

(17) انظر المذكرة عدد 12.
(18) شرح المفصل ج I ص 20.
(19) انظر مثلا شرح المفصل ج II ص 55.
(20) المصدر السابق ج I ص 18.
(21) شرح مقدمة الاعراب ج I ص 16.
(22) مغنى اللبيب ج II ص 42.
(23) الخصائص ج I ص 29.

إذ انها أساس كل تحليل وهذا هو بدون شك السبب الذي دفع النحاة إلى تعريفها في مقدمة مؤلفاتهم قبل أن يشرعوا في دراسة مختلف عناصرها دراسة مفصّلة .

***

واثناء دراسة هذه العناصر لاحظ النحاة العرب ان الالفاظ التي يمكن أن تكون مسندا ليست دائما من جنس واحد ، وهذا ما دعا إلى تقسيم الجمل العربية إلى فعلية واسمية ، ومبدأ التقسيم هذا هام جدا يدل على حرص النحاة على تصوير الواقع اللغوي بما فيه من مختلف الإمكانيات ، إلا ان هؤلاء لم يراعوا في تقسيمهم الا مرتبة المسند اليه ، فقد أهملوا نوع المسند واعتبروا ان الجملة الإسمية هي التي بدئت باسم وان تضمنت فعلا ، والفعلية هي التي بدئت بفعل (24) . وتعريف نوعي الجملة هذا لا يعبر عن العلاقة التي يمكن ان توجد بين المسند والمسند اليه بل انه لا يعتبرها مقياسا للتمييز بين النوعين وهذا يتضح خاصّة في عدم الإكتراث للوظيفة التي يقوم بها المبتدإ المشفوع بفعل في أداء المعنى ، ومعلوم أن له دائما قيمة الفاعل أو قيمة المفعول مما يؤهل الجملة التي تبدأ باسم متبوع بفعل لان تعتبر فعلية (25) ، ولا يخفى ان اعتبارها اسمية يضطر النحوي إلى تكلّف في التأويل ، والتجاء إلى التقدير ، وافتراض استتار عناصر لو ابرزها إلى الوجود لاصبح للجملة بنية غريبة لا يمكن ان توجد في الواقع بحال من الأحوال .

على أن التمييز بين نوعي الجملة على أساس ما تستهل به ، وان اعتبره عامّة الناس بديهيا ، لا يظهر انه لاقى من الإجماع ما تلاقيه البديهيات عادة ، فلقد اختلف النحاة في شأنه ، ورأى الكوفيون انه يمكن اعتبار الجملة التي تقدم

(24) مغنى اللبيب ج II ص 45.

(25) الفرق الوحيد الذي يمكن مراعاته بين هذه الجملة والجملة المبدوءة بفعل فرق بلاغي.

فيها المسند اليه على الفعل فعلية قدم فيها الفاعل (26) ولم يمانع المبرد وابن مالك (27) في فعليتها ، إلا أنهما اعتبرا أنه ينبغي إذ ذاك تقدير فعل قبل الإسم المبدوء به ، ويرجح ابن هشام نفسه ان « الجملة المعطوفة من نوع قعد عمرو وزيد قام » فعلية « للتناسب وذلك لازم عند من يوجب توافق الجملتين المتعاطفتين » (28) .

هذا الإختلاف يدل دلالة واضحة على تردد القدماء في نوع الجملة التي استهلت باسم متبوع بفعل ، إلا ان هذا التردد لم يمنع جل النحاة من اعتبارها اسمية فحللوها على هذا الأساس ، واستنتجوا من ذلك كل ما اقتضاه منطقهم من نتائج .

*
* *

ومن نتائج هذه الطريقة في تصنيف الجمل التضييق في امكانيات ترتيب عناصر الجملة وخاصة الفعلية ، ذلك انه لا يمكن للفاعل في نظرهم ان يتقدم على الفعل لان ذلك يغير نوع الجملة ويفقدها صبغتها الفعلية ، فلا يبقى للتمكلم إلا ان يتصرّف في ترتيب بعض العناصر المتممة ، فاذا ما اعتبرنا ان تقديم عنصر من عناصر الجملة أو تأخيره عن مرتبته الطبيعية كثيرا ما يكون لغاية بلاغية وجب ان نستخلص ان الجملة الفعلية كما يعرفها جل النحاة موسومة بضرب من القصور من حيث طاقتها التعبيرية إذ لا يمكن في نطاقها ابراز الفاعل بتقديمه ، ولم يخف ذلك عن علماء البلاغة فهم — وان لم يرفضوا ما ذهب اليه النحاة من اعتبارات — أشاروا إلى قيمة تقديم المسند إليه في الجملة المتضمنة لفعل

(26) مغنى اللبيب ج II ص 44 على ان ابن الانباري لم يشر الى ذلك في كتابه الانصاف في مسائل الخلاف .

(27) المبرد : 210 — 285/898 — 826
ابن مالك : جمال الدين بن عبد الله بن مالك ولد بالاندلس سنة 600/1204 — 1203 وتوفي بدمشق سنة 672/1274.

(28) مغنى اللبيب ج II ص 44.

معتبرين ان علاقة هذين العنصرين لا تختلف في مستوى المعاني عن علاقة الفاعل بالفعل (29) ؛ ولئن أمكن اعتبار تعليقات علماء البلاغة تلافيا لما في نظرية النحاة من تكلف فانه لا يمكن الا نلاحظ انه لا انسجام هنا بين النحو والبلاغة ، وان معطيات النحو في هذا المجال لا يمكن ان يستغلها من يدرس الأسلوب إلا بتأويلها والتفطن إلى صبغتها الشكلية (30) .

ومن المسائل التي لا يمكن بدونها أن تدرس الجملة دراسة مرضية مسألة الربط بين عناصرها من ناحية وبين الجمل من ناحية أخرى ، وقد أولى النحاة العرب هذه المسألة عناية كبيرة فضبطوا مظاهرها ، ووضحوا شروطها ، واستقصوا ذلك استقصاء أدى بهم احيانا إلى التوغّل في مجالات الإفتراض والتقدير ، فقد شغل موضوع الربط بالهم في الجملة الاسمية خاصّة إلى درجة انهم ، كلما كان الرابط معنويا لا يبرز في صورة لفظ ، افترضوا تضمّن الخبر لضمير عائد على المبتدإ ، وقد حصر بعضهم ذلك في الخبر المشتق وعممه الآخرون واعتبروه متضمّنا حتى في الإسم الجامد (31) .

ولم ينظروا إلى موضوع مختلف الروابط كموضوع في حد ذاته ، ولم يُدرس في جميع الحالات بالرجوع إلى الجملة من حيث هي وحدة الكلام وقاعدته ومن حيث ان هذه الروابط لا تتجلى قيمتها إلا داخل الجملة ، فبعضها درس في نطاق دراسة عدد من الجمل كالضمائر والفاء التي تعرف بالرابطة للجواب ، والبعض درس في نطاق الأدوات كحروف الجر وحروف العطف ، والبعض الآخر درس باعتباره عوامل لها تأثير في حركات الكلمات الموالية لها كأدوات النصب ، ويجدر هنا ان نلاحظ ان الواو هي الأداة التي حظيت بعناية أكثر

(29) انظر مثلا حديث عبد القاهر الجرجاني عن التقديم والتاخير في كتاب دلائل الاعجاز من ص 72 الى ص 93 (ط القاهرة 1961).

(30) كل هذا بالاضافة الى ان حصر الجملة الفعلية في التي تبدأ بفعل قد ادى الى تأويلات في شأن الفاعل واسناد صبغة الضمير الى اصوات هي الى علامات المطابقة اقرب.

(31) شرح المفصل ج 1 ص 87/88.

من أية أداة أخرى ، درست في نطاق النحو، وحاول علماء البلاغة أن يضبطوا شروط استعمالها بالرجوع إلى مقتضيات المعنى (32) .

ولئن كان هذا التشتت في دراسة طرق الربط يمكن تبريره بالغاية التعليمية التي ترمي إليها كل المؤلفات النحوية القديمة ، وان طالت واتسع نطاقها ، فليس من شأنه أن يعين على الإلمام بهذا المظهر من مظاهر التراكيب العربية ؛ ومعلوم أن طرق الربط داخل الجملة الواحدة وبين الجمل تكون بالإضافة إلى ترتيب عناصر الجملة اخص ما تمتاز به اللغات إذا هي أساس بنية الكلام والصورة التي تنتظم حسبها الألفاظ ويتصل بعضها ببعض فكل وصف للغة ما لا يولي هذه الناحية حقها من العناية ، ولا يعتبرها أساسية ، لا يمكن أن يكون مصوّرا لتلك تصويرا يبرز روحها ، ويضبط مقوماتها الجوهرية ، ويوضح طرفتها .

***

ولعلّ الناحية الوحيدة التي فكر بعض النحاة في افراد باب خاص بها ضمن أبواب مؤلفاتهم هي ما يمكن أن نسميه وظيفة الجملة ، وقد كانت دراسة هذا الموضوع في بداية الأمر موزعة على أبواب مختلفة (33) وأول من جمعها في باب واحد حسب المصادر التي لدنيا ابن هشام في كتابيه مغني اللبيب (34) وشرح مقدمة الإعراب (35) .

وقد التزم النحاة العرب في استعراضهم لوظائف الجملة الطريفة المتوخاة في المفردات ، لهذا نظروا إلى الجملة من حيث امكانية قيامها بالوظيفة التي يقوم بها المفرد فالأصل في نظرهم ان الجملة لا تحل محلّ المفرد (36) ولكنها قد

(32) دلائل الاعجاز لعبد القاهر الجرجاني ص

(33) انظر المذكرات عدد 4 و 5 و 6 و 7 و 8.

(34) ج II ابتداء من ص 41.

(35) ج I من ص 45 الى ص 126.

تنوب عنه ، وعلى هذا الأساس يوجد صنفان من الجمل وهما الجمل التي لا محل لها من الإعراب والجمل التي لها محل (37) ، فهذه يقدر لها حكم من احكام المفرد أي الرفع والنصب والجر والجزم وتلك لا يمكن ان تجرى عليها هذه الأحكام . ومما لا شك فيه أن بعض المصطلحات التي تطلق على الجمل بصنفيها تتضمن إشارة إلى ما تؤديه الجملة المعنية بالامر من معنى أو بعبارة أخرى إلى مساهمتها في تكوين المعنى أو اتمامه ، ذلك هو شأن المصطلحات التي من نوع ابتدائية وجواب للقسم وتفسيرية وخبرية .

إلا أن تصنيف النحاة للجمل يعوزه الإستقصاء فقد اهملوا جانبا من الجمل رغم أن لها في أداء المعنى وظيفة لا يمكن أن تنكر وانها وظائف يمكن أن يقوم بها المفرد . ذلك هو شأن الجملة الواقعة فاعلا والجملة الواقعة مبتدأ والجملة الواقعة مستثنى (38) والجملة الواقعة مفعولا مطلقا ومفعولا لاجله وبصفة أعم كل الجمل المسبوقة بحرف جر ولا يخفى ان هذا النوع كفيل بأن يؤدّي من المعاني ما لا يمكن احصاؤه إلا باستقراء امهات الكتب الأدبية (39) .

ثم ان قياسهم الجملة على المفرد يجعلهم يستعملون مصطلحات لا تفي في كثير من الأحيان بالمعاني التي تؤديها الجملة ، فاذا دلّ الحال مثلا ، عندما يأتي مفردا ، على الحالة الحقيقية ، فان الجملة التي تسمى حالية تعبّر عن معان كثيرة

---

(36) مغني اللبيب ج II ص 46.

(37) الجمل التي لا محل لها من الاعراب هي : الابتدائية ـ الاعتراضية ـ التفسيرية ـ الواقعة جوابا للقسم ـ الواقعة جواب شرط غير جازم او جواب شرط جازم غير مقترن بالفاء ـ الواقعة صلة للموصل ـ المعطوفة على جملة لا محل لها، اما الجمل التي لها محل فهي : الواقعة خبرا ـ الواقعة نعتا ـ الواقعة مفعولا به ـ الواقعة مضافا اليها ـ الواقعة بعد فاء او جوابا لشرط جازم ـ المعطوفة على جملة لها محل.

(38) على ان ابن هشام يشير الى ان الجملة يمكن ان تكون مسندا اليها نحو « سواء عليهم آ انذرتهم ام لم تنذرهم ‥ » و « تسمع بالمعيدي خير من ان تراه » الا انه يرى انك اذا قدرت في هذه « ان تسمع » لا يمكن ان تعتبر مسندا اليها وهذا لا يخلو من غرابة. كما انه يشير الى امكانية وقوع الجملة موقع المستثنى نحو « لست عليهم بمسيطر الا من تولى وكفر فيعذبه الله » انظر مغنى اللبيب ج II ص 71.

(39) من الملاحظ ان المفردات المسبوقة بحرف جر كثيرا ما اقتصر في اعرابها على الشكل واهملت الوظيفة المعنوية التي تؤديها.

متنوعة منها الحالة (40) والسبب أو الغاية (41) وتحديد الزمن (42) والمقابلة (43) وقد أدت بهم طريقتهم تلك إلى اعتماد جانب الشكل في تبويب الجمل واهمال المعنى ، ومن ذلك تمييزهم بين الجملة النعتية والجملة الحالية على أساس تنكير الإسم الذي تعود عليه الأولى وتعريف الإسم الذي تعود عليه الثانية بينما كثيرا ما نلاحظ انه لا فرق بين ما تؤديه كلتاهما من معان (44) .

واقتصار عنايتهم على شكل الجملة واسلوب ارتباطها ببقية الكلام جعلهم في أحيان عديدة يستعملون مصطلحات تنبه إلى ذلك الجانب فقط ، ولا تمكن من ضبط مساهمة الجملة في المعنى العام ، ومثال ذلك الجملة الإعتراضية ، ومعلوم ان لفظة « اعتراضية » لا تفيد سوى ان هذا النوع من الجمل يقحم بين عناصر الجملة الأصلية ، فتتحول بعض هذه العناصر عن مرتبتها الطبيعية ، ولا شك في أن الجمل الإعتراضية تضيف إلى الكلام معنى جديدا لا يمكن أن يغفله الإنسان في تحليله الكلام إلى جمل مختلفة (45) .

من كل هذا يتجلى لنا أن النحاة العرب ، بالتزامهم الإعراب المحلي وبمقارنتهم الجملة بالمفرد ، لم يلموا بمختلف المعاني التي يمكن ان تعبر عنها الجملة ولا يمكن أن يكون اعراب الجمل كبير الفائدة إذا لم يمكن الإنسان من تحديد وظيفة كل جملة من الجمل التي يتركب منها الكلام وضبط المعنى الجديد الذي تضيفه إلى مجموعة المعاني ، ومن تفهم التكامل الحاصل بفضل ذلك ، وليس معنى هذا انه يجب اهمال شكل الجملة وبنيتها ، فهذه الناحية لا يمكن

---

(40) كانك في جفن الردى وهو نائم (المتنبي).

(41) اقول' وقد ناحت بقربي حمامة (ابو نواس) - خرجت الى حمص التمس الكسب (الاغاني)

(42) وقد اغتَدي والطير في وكناتها (امرؤ القيس) .

(43) كيف اتكلم والفؤاد سيفهم (التوحيدي).

(44) هكذا نلاحظ مثلا ان الجملة التي يسمونها نعتية قد تفيد الغرض كما تفيده الجملة الحالية نحو فامر له بمال ينفقه وبظهر يحمله ويحمل ثقله (الاغاني)

(45) على سبيل المثال قد تكون الجملة الاعتراضية جملة الشرط نحو :
واني وان كنت الاخير زمانه * لآت بما لم تستطعه الاوائل (المعري)

اغفالها في تحليل الكلام إلا أنه لايمكن الإكتفاء بها إذا كان التحليل يراد منه تفهم المعنى والالمام بدقائقه .

وخلاصة القول ان النحاة القدامى قد درسوا الجملة دراسة ظهرت فيها آثار طريقتهم ، فقد اهتدوا إلى نواحٍ هامّة في الجملة وسجلوا ملاحظات وتعليقات ما زالت محتفظة بقيمتها ، فهم بذلك يقدمون إلى الدارس مادّة لا يمكن اغفالها . إلا ان دراستهم هذه يعوزها ما نريده من تأليف وتنظيم كما أنها متأثرة ببعض المبادىء التي لا نجد لها تبريرا في واقع اللغة ، ملتزمة اتجاها ضيّق نطاقها، خاضعة لقياس الجملة على المفردات مما يحول دون الألمام بما يمكن أن يكون للجملة من ثراء معنوي ومن خصائص لايشاركها المفرد فيها .

كتـــــاب

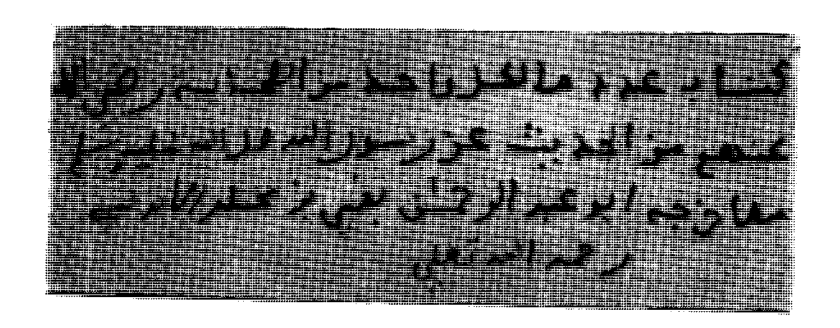
عدد ما لكلّ واحد من الصحابة — رضي الله عنهم ! من الحديث عن رسول الله — صلّى الله عليه وسلم ! ممّا خرّجه ابو عبد الرحمان بقي بن مخلد الأندلسي — رحمه الله تعالى —

بقلم : عبد المجيد التـركي

ليس هدفُنا من تحرير هذه الصفحات تقديمَ معلومات جديدة عن بقيّ ابن مخلد القرطبي (201/816 — 276/889) ؛ فما اكتشفنا مصادر جديدة تفيد أخبارا طريفة ؛ وفي ظننا أن ما خُصِص له في هذه العقود الأخيرة من دراسات مُفردة أو مُدرجة داخل جهاز التفكير الأندلسي (1) قد استوفي

(1) انظر بروكلمان في : .G.A.L الاصل : الجزء الاول ص 172 — والملحق : الجزء الاول ص 271 ومن المعروف أن هذا المرجع يفيد للاحالات على المصادر المختلفة اكثر مما يفيد كدراسة لبقي وانظر ايضا تعريب النجار لهذا الكتاب : الجزء الثالث ص 201 و 202 (القاهرة 1962) .
ثم **تاريخ الفكر الاندلسي** لبالنثيا تعريب حسين مؤنس (الطبعة الاولى القاهرة 1955) ص 407 و 408 و 409 ، والكتاب صدر في طبعته الأولى بالاسبانية في 1928 .
A. González Palencia : *Historia de la Literatura Arábigo-Española*
ثم ليفي بروفنسال في **تاريخ اسبانيا المسلمة** الجزء الاول ص 288 و 289
E. Lévi Provençal : *Histoire de l'Espagne Musulmane* (Paris 1950).
ثم مقال بلاّ Ch. Pellat : *E.I.2 art* Baqi Ibn Mahlad. p. 896
ثم مقال **حسين مؤنس** H. Monès : *Le Rôle des Hommes de Religion dans l'Histoire de l'Espagne Musulmane jusquà la fin du Califat.* in Studia Islamica. T. XX. (Paris Maisonneuve Larose 1964) pp. 47-88.
انظر من مقال ح. مؤنس خاصة من ص 67 الى ص 70

قليل الروايات المبثوثة أو المُجمّعة داخل كتب المراجع والمصادر من أمثال « **قضاة قرطبة وعلماء إفريقية** » للخشني القيرواني الأندلسي المتوفّى في 971/361 (2) ، و « **تاريخ العلماء والرّواة للعلم بالأندلس** » لابن الفرضي المتوفّى في 1012/403 (3) ، و « **جذوة المقتبس** » للحميدي المتوفّى في 488/1095 (4) ، و « **الصلة** » لابن بشكوال المتوفّى في 1182/578 (5) ؛ وقد أخذ


كتاب عدد ما لكل واحد من الصحابة رضي الله
عنهم من الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم
مما خرجه أبو عبد الرحمن بقي بن مخلد رحمه
الله تعالى

عن هؤلاء ، وخاصّة ابن الفرضي وابن بشكوال ، كثيرٌ كابن عذاري في « **البيان** » والنباهي في « **المرقبة** » والمقري في « **النفح** » وغيرهم من المغاربة ، كما أخذ عنهم من المشارقة ابن عساكر في « **تاريخ مدشق** » وياقوت في « **إرشاد الأريب** » والذهبي في « **تذكرة الحفاظ** » وغيرهم ؛ ولا نريد أن نبيّن الإحالات على ما كتبوه لأنهم لم يأتوا بأشياء أساسية جديدة ولأن بروكلمان وبلاّ (Pellat) قد قاما بهذا العمل في كتابتين ذكرناهما .

---

(2) ط القاهرة نشر عزت العطار في جزء واحد سنة 1372 هـ ، ولم يخصص له ترجمة مفردة وانما أتى بمعلومات تفيد طريقته في الفتيا ونوع اتصاله بالأمراء تجدها مبثوثة هنا وهناك ، ويحيل عليها الفهرس بآخر الكتاب ص 325 .

(3) ط القاهرة 1954/1373 في جزءين . انظر الجزء الأول من ص 107 الى ص 109 رقم 283

(4) ط القاهرة 1952/1372 تحقيق ابن تاويت ، جزء واحد انظر ص 167 و 168 رقم 331

(5) ط القاهرة في 1955/1374 نشر عزت العطار في جزءين انظر الجزء الأول من ص 118 الى ص 120 رقم 280 .

ويتلخص ما نعرفه عن بقـي بن مخلد في أنّه عاش في القرن الثالث للهجرة بقرطبة أي في وسط تمكـّن فيه المذهب المالـكـي تمكـنا شديدا وقويت فيـه نزعته إلى فقه الفروع والمسائل ؛ فبَقـيّ معاصر لعبد الملك بن حبيب المتوفّى في 852/238 صاحب « **الواضحة** » ، وللعتبـي المتوفّى في 869/255 صاحب « **العتبية** » (6) وغيرهما الممثلين لهذه النزعة لتوحيد التشريـع وصبّه في قوالب واضحـة دقيقـة ؛

إلاّ أن بقـي — حسب سنة أندلسية بل مغربية مألوفة — أخذ طريق المشرق وذلك في سن مبـكرة نسبيّا أي حوالي 844/230 ؛ فسنراه بافريقية يأخذ عن سحنون بن سعيد المتوفّى في 854/240 وفي المشرق يسمع من أبـي بـكر بن أبـي شيبة المتوفّى في 849/235 ومن أحمد بن حنبل المتوفّى في 855/241 (7) ومن أصحاب الشافعي المتوفّى في 819/204 كابـراهيم بن محمد الشافعي ، وأبـي ثور صاحب الشافعي ؛ والظاهر من أخباره ، وخاصة مع أمراء الأندلس ، أنـه كان صاحب شخصية قويّة ؛ فلا نستغرب إذا رأيناه ، بعد رجوعه من إقامته الطويلة بالمشرق ، وأخذه عن مائتين وأربعة وثمانين عالما — حسب ما يذكـره هو — ميالا إلى الرأي نزّاعا إلى الحديث كارها للتقليد ولأدب المسائل والفروع ؛ ولم يـكتف بهذا ، بل انفـرد — حسب عبارة ابـن الفـرضـي — بـادخـال « **مصنّف** » ابن أبـي شيبة إلى الأندلس وكتاب « **الفقه** » للشافعي وغيرهما ؛ ولعلّه أدخل إلى الأندلس — حسب ما يراه بـلاّ في مقاله المذكور — المذهب الظاهري ؛ ولا يستبعد هذا الرأي إذا اعتبرنا ما يـكنّه ابن حزم الظاهري المتوفّى في 1063/456 من تقدير لهذا العالم المجتهد ؛

---

(6) لقد حاولنا وصف هذا النوع الخاص من أدب المسائل في ازدهاره بالأندلس لاستجابته لحاجات مجتمع خاص مادية وروحية في مقال لنا نشرناه بالفرنسية

A. Turki : *La Culture arabo-musulmane et la Péninsule Ibérique*. in la Revue Tunisienne de Sciences Sociales N° 4. Décembre 1965 (Tunis) pp. 67 à 88.

(7) **طبقات الحنابلة** لابن ابي يعلي (ط القاهرة في جزءين بتصحيح محمد حامد الفقي 1952/1371) الجـزء الاول رقم 141 ص 120 : « كان ذا خاصـة من امامنا احمـد . »

وندرك كيف أن بيئة أندلسية حريصة على تقاليدها التشريعيّة ثارت على بقي وكيف أن أصحابه الأندلسيين – وفيهم أصبغ بن خليل المتوفّى في 886/273 والمشهور بكرهه الشديد للحديث – (8) ينكرون عليه ما أدخله من كتب وآراء ويحاولون أن يغروا به الأمير محمد الأول (852/238 – 886/273)؛ ويذكر ابن الفرضي : « أن الله بمنّه وفضله أظهره عليهم وعصمه منهم فنشر حديثه وقرأ للنّاس روايته ، فمن يومئذ انتشر الحديث بالأندلس » (8 م) .

ولكن يبدو أن هذا الانتشار كان محدودا إلى أن حلّ القرن الخامس للهجرة وتمكّن على يدي ابن عبد البر المتوفّى في 1070/463 وابن حزم تلميذه وغيرهما .

وألّف بقي تفسيرا للقرآن لم يصل إلينا ؛ إلاّ أن ابن حزم يؤكّد بل يقطع قطعا لا استثناء فيه – حسب عبارته – « أنه لم يؤلّف في الإسلام مثله ولا تفسير محمد بن جرير الطبري [المتوفّى في 922/310] ولا غيره » (9) ؛ وألّف أيضا في الحديث مصنفا « رتّبه على أسماء الصحابة ، فروى فيه على ألف وثلاثمائة صاحب ، ثم رتّب حديث كل صاحب على أسماء الفقه وأبواب الأحكام ، فهو مصنّف ومسند » (10) ويضيف ابن حزم مبديا رأيه فيه « وما أعلم هذه الرتبة لأحد قبله مع ثقته وضبطه وإتقانه واحتفاله فيه في الحديث وجودة شيوخه ، فانه روى عن مائتي رجل وأربع مائة رجل ليس فيهم عشرة ضعفاء وسائرهم أعلام مشاهير » (10) ؛ كما ألّف بقي مصنّفا في

---

(8) عن أصبغ بن خليل انظر **شجرة النور الزكية** لمخلوف (ط القاهرة 1350) ص 75 رقم 113 ، ويُنسب لأصبغ هذا قول هذه الجملة التي تمثل عداوة البيئة الاندلسية لبقى : « لان يكون في تابوتي رأس خنزير أحب الي من أن يكون فيه مسند ابن أبي شيبة (انظر ليفي بروفنسال : **المصدر المذكور** . الجزء الثالث ص 447 و 478 وقولدزيهر في تقديمه لكتاب ابن تومرت I. Goldziher : *Ibn Toumert*... Introduction p. 20. (Alger 1903)

(8 م) ينسب لبقي هذا القول : « لقد غرست للمسلمين غرسا بالاندلس لا يقلع الا بخروج الدجال » (انظر الذهبي في **تذكرة الحفاظ** الجزء الاول ص 630 (ط 3 بحيدر اباد في جزأين 1375/1955 و 1376/1956

(9) ابن بشكوال : **الصلة** ص 118 و 119.

(10) ابن بشكوال **الصلة** ص 119 .

فتاوي الصحابة والتابعين ومَن دونهم ؛ ولم يصل إلينا ، إلاّ أن ابن حزم يؤكد « أنّه أربأ فيه على مصنّف أبي بكر بن أبي شيبة ومصنف عبد الرزّاق ابن همّام ومصنف سعيد بن منصور وغيرهما » (10).

ويبدو أن المصنف المسند في الحديث هو الذي أثار أكثر اهتماما (11) ؛ وإن كان من المؤكّد أنه من الكتب المفقودة لدينا — كما يلاحظ ذلك بروكلمان وبلاّ وحسين مؤنس في ما كتبوه عن بقي وأشرنا إليه — فان المخطوط الذي نقدّم للقراء نسخة من نسخه العديدة يعتبر في نظرنا ممثلا لأشياء مهمّة من كتاب بقي : ففيه عدد الصحابة الذين ذكر أحاديثهم وهو — كما ذكر بروكلمان : 1300 ونيّف — أي حسب نسختنا : 1377 ؛ وفيه أيضا ما لكل واحد من الصحابة من عدد الأحاديث التي رووها ؛ ويُعتقد أن هذين العنصرين وصلا إلينا كما أرادهما صاحبهما ؛ ولكن التغيّر الطارىء عليهما يتمثل في ما يُحتمل أن قام به من عمل ابن حزم (12) ثم تلميذه

(11) انظر قولد ريهز في حديثه عن تأثير هذا المصنف في المشرق خاصة ، فيعتمد على **تذكرة الحفاظ** للذهبي لذكر ملخص له وضعه ابن اخي رافع المتوفي في 930/318 ويرى تاثيرا آخر لبقي في المسانيد المصنفة التي الفها ابو العباس النيسابوري المتوفى في 925/313 وابو اسحاق الاصفهاني المتوفي في 964/353 والعسال المتوفى في 960/349

I. Goldziher in *Etudes sur la Tradition Islamique extraites du T. II.* des *Muhammedanische Studien.* (Trad. L. Bercher. Paris 1952) pp. 325-26.

(12) لقد ابرز احسان عباس وناصر الدين الاسد عمل ابن حزم هذا الى حد انهما نشرا هذه الرسالة في تحقيقهما لها بمراجعة احمد محمد شاكر في « **جوامع السيرة وخمس رسائل اخرى لابن حزم** » (ط دار المعارف بمصر — بدون تاريخ — جزء واحد) والرسالة تقع من ص 275 الى ص 315 ، ولا شيء في هذا النص أو تحقيقه يدل على أنه لبقي ، اللهم الا هذه العبارة في النهاية التي وردت على لسان ابن حزم (ص 315) : « فهذا آخر من روى عنه — عليه السلام — حديثا فيما ضبطناه وضبطه من قبلنا الامام الحافظ بقي بن مخلد الأندلسي وغيره من قبله » وهي — كما ترى — من الغموض وخاصة عبارة : « وغيره من قبله » بحيث لا تثبت نسبة صحيحة الا أن المحققين يذكران في تقديم النص (ص 22 و 23 و 24) نسخة كتب في آخرها : « انتهى ما خرجه الامام الحافظ أبو عبد الرحمان بقي بن مخلد — رحمه الله — في مسنده (....) » استخرجاها من كتاب « **البارع الفصيح في شرح الجامع الصحيح** » لابي البقاء محمد بن علي ابن خلف الأحمدي [من القرن التاسع الهجري] واعتبراها اختا للنسخة الأصل التي اعتمداها . (ص 22) وينقل المحققان نصا لابن حجر (ص 23) : « ثم وجدت في بعض النسخ من جزء الصحابة الذين أخرج لهم بقي بن مخلد ترتيب ابن حزم » بل تجد لهما هذه الجملة (ص 23) « وفي مسند بقي أسماء كثيرة مفردة » .

الحميدي ؛ فالظاهر أن ابن حزم اكتفى بتجريد المسند المصنف من الأحاديث التـي يحويها وبوَضع مكانَها لأرقام تدل على عددها ؛ وهذا واضح من عبارة وردت في النص أثناء سياق الأسماء في مخطوطنا (ورقة 159 ظهرا) ومطبوع احسان عبّاس وناصر الدين الأسد (ص 298) والعبارة هـي : « قال أبو محمد [ابن حزم] : ذكره في الواحد وله عندي حديثان » ؛ وهذا العمل يستغرب من ابن حزم ، فهو لا يدلّ على كبير عمق ونظر بعيد وشخصية فكرية قويّة عرف بها ؛ ولعلّ ما دفعه إلى ذلك — إن كان فعل — هو إعجابه الشديد بهذا المصنّف الذي بلغ لديه الغاية فاكتفى بتجريده بدلا من التأليف المبتكر ؛

ولولا هذه العبارة التـي تذكر لأبـي محمد — لنسبنا عملية التجريد وما تبعها للحميدي إعتمادا على جملة وردت في إسناد مخطوطنا كخاتمة له وهـي : قال أبو عبد الله [الحميدي] : « ثم رتبناه نحن » بعد أن تعرّض لابن حزم كحلقة في سلسلة الإسناد فقط ؛ قال : « أخبرنا الشيـخ أبو محمد علي بن أحمد الفقيه بالأندلس ، قال : « تسمية ما ذكره أبو عبد الرحمان بقـي بن مخلد — رحمه الله تعالى — [في] مسنده عن أصحاب رسول الله — صلى الله عليـه وسلّم — قال : أخبرنـي بذلك محمد بن سعيد بن نبات قال : حدثنا عبد الله ابن نصر الزاهد قال : حدّثنا عبد الله بن يونس المرادي » . فالواضح من عبارة الحميدي في هذا الإسناد الذي وصل الينا عن طريق ابن نبهان الغنوي الرقـي ثم محمد بن يوسف الغزنوي (13) — أنّ ابن حزم أخبر تلميذه لا بالمسند المصنف ولا بتجريد قام به هو ولكن بتسمية الصحابة أي أسماءهم كما استخرجها من الأصل مجرّدة تلميذُ بقـي الأول وهو عبد الله المرادي ؛ وإلى هذا ذهب بروكلمان عندما قال : « جمع تلميذه أبو محمد عبد الله بن يونس ابن محمد المرادي القبري المتوفّى في 941/330 أسماء الصحابة الذين روى لهم

(13) انظر تحقيقنا لاسماء هؤلاء الرواة ورأينا في صحة سلسلة هذا الاستاذ في الصفحات التالية :

في مسنده وذلك في كتاب : **الأعداد**، الموجود في آيا صوفيا رقم 454 » (14) إلاّ أنّه يضيف بعد ذلك متحدثا عن كتاب يوجد ببرلين برقم 9915 وهو : « **ذكر ما للصحابة من الحديث من العدد** » مقدما أنه « مجموعة من أحاديث الرواة الذين رووا الف حديث فأقلّ إلى ثمانية أحاديث » (14) . وإن كنا لم نستطع الإطلاع على المخطوط ، فالمرجح عندنا أنه شبيه بمخطوطنا ، إن لم يكن هو نفسه ؛ فلو كان حقّا مجموعة من الأحاديث لكان صورة من المسند المصنف ولما فهمنا كيف يؤكّد بروكلمان ، قبل ذلك ، أن هذا المسند من الكتب المفقودة (14) .

والذي نرجّحه بعد كلّ هذا ، أن الحميدي تلقى ثبتا في أسماء الصحابة مع ذكر عدد أحاديثهم التي رووها ، مرتّبا حسب ما أراده له صاحبه من الترتيب ؛ ولعلّه الأبجدي ؛ والترتيب الجديد التنازلي — من أصحاب الألوف إلى أصحاب الحديث الواحد — والذي بين أيدينا ، هو من وضع الحميدي ؛ ويبقى صاحب التجريد ؛ فالعبارة التي ذكرناها : قال أبو محمد : ذكره في الواحد..، لا يمكن — في نظرنا — أن تقوم دليلا على أنّ ابن حزم هو صاحب التجريد ؛ فلعلها ملاحظة وضعها على هامش تجريد القبري ؛ والقبري ، وهو من أشد الملازمين لبقي ، حريّ ، لاعجابه المفرط بأستاذه ، أن يقبل على هذا العمل ؛ وبقيت عبارة ابن حجر المذكورة عن ترتيب ابن حزم لأسماء الصحابة في مسند بقي ، فلا يمكن — في نظرنا — أن تناهض عبارة الحميدي ، وهذا أقرب إلى بقي وإلى ابن حزم من الآخر المشرقي المتأخّر (15) .

(14) تعريب النّجـار .

(15) ابن حجر العسقلاني (773/1371 - 852/1448) **معجم المؤلفين** لكحالة الجزء الثاني ص 20 و 21 دمشق 1376/1957

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد

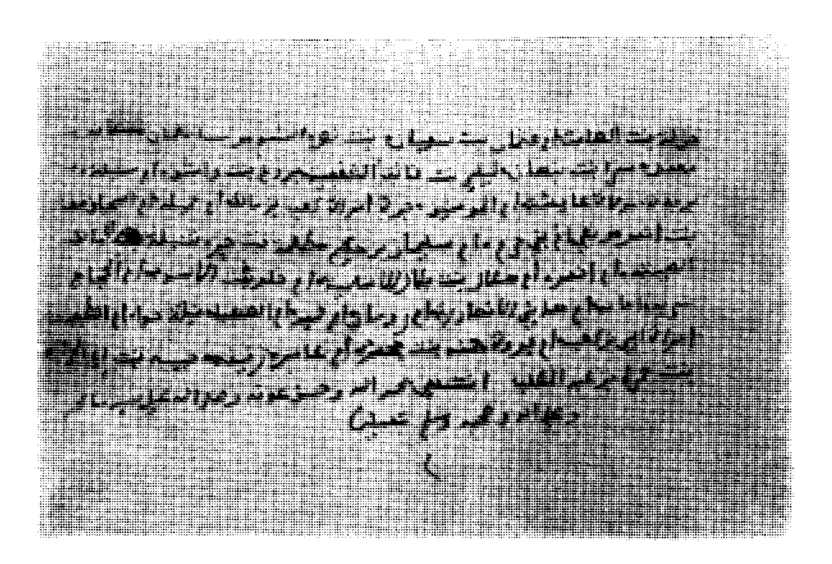
أخبرنا الشيخ الإمام العالم الزاهد أبو الفضل محمد بن [illegible] ابن عمر الغزنوي بالكرخ بقراءتي عليه في جمادى الآخرة سنة اثنين وسبعين وخمسمائة قال أخبرنا الشيخ الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن [illegible] ابن نبهان الغنوي الرقي قراءة عليه وأنا أسمع بالكرخ [illegible] في جمادى الأولى من سنة اثنين وأربعين وخمسمائة قال أخبرنا الشيخ الشيخ أبو عبد الله محمد بن أبي نصر بن عبد الله الحميدي قال أنا الشيخ أبو محمد علي بن أحمد الفقيه بالأندلس قال [illegible] أبو عبد الرحمن بن بقي بن مخلد رحمه الله [illegible] أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أخبرني بذلك أبو سعيد بن نباتة قال أنا عبد الله بن نصر الزاهد قال أنا [illegible] أبو نصر [illegible] قال أنا بقي بن مخلد قال أبو محمد [illegible]

الصحابة الألوف

مسند أبو هريرة خمسة آلاف حديث وثلاثمائة حديث وأربعة وسبعون حديثا عبد الله بن عمر بن الخطاب ألفا حديث وستمائة حديث وثلاثون حديثا أنس بن مالك ألفا حديث ومائتا حديث وستة وثمانون حديثا عائشة أم المؤمنين ألفا حديث ومائتا حديث وعشرة أحاديث

أصحاب الألف

وبعد هذه المقدمة يجد القاري جداول فيها مقابلة نصّ مخطوطنا بالنصّ الذي حققه احسان عباس وناصر الدين الأسد (16) ؛ ولم نر من فائدة في اخراج النص وطبعه من جديد ؛ فنصّ المحققين صالح لهذه المقابلة ، واعتقادنا



أن القارىء ، باعتماده على النص المطبوع وعلى ما قمنا به من مقابلات ، يخرج بنص أكمل ؛ وهذا لا يعني أن نصّنا جيّد ، فبه أخطاء عديدة وخطه رديء وقد اضطررنا في كل خطوة إلى الرجوع إلى ابن عبد البر الأندلسي صاحب **الإستيعاب** ، والقريب العهد من بقي ؛ فهو من القرن الخامس ولا بد أن يكون قد اطلع على مسنده ؛ كما رجعنا إلى **الإصابة** لابن حجر الذي اعتمد

(16) يذكر المحققان في المقدمة (ص 22 و 23 و 24) انهما اعتمدا على نسخة اصل « شديدة الاضطراب بينة النقص » ونسخة وجداها بدار الكتب المصرية (رقم 254) « ناقصة ورقة أو اثنتين خطها رديء والاعلام فيها غير مضبوطة » ، كما اعتمدا على نسخة مستخرجة من كتاب « **البارع الفصيح في شرح الجامع الصحيح** » لابي البقاء محمد بن علي بن خلف الاحمدي وجداها بدار الكتب المصرية (مجاميع 521) ، وبعد مقابلة الاصل بالنسختين المذكورتين عرض الشكل النهائي على « **تلقيح فهوم اهل الأثر** » لابن الجوزي وعلى **الاصابة** لابن حجر .
ومن المهم أن نسجل هذه العبارة للمحققين ففيها تواضع العلماء وحيرة المحققين : « وهذا يزيدنا يقينا بشدة الاضطراب والتفاوت بين النسخ ، ويؤكد لنا ان عملنا في رجال الحديث — على شدة المشقة فيه — لن يكون نهائيا قاطعا بحال » (ص 23)

ـــ فيما اعتمد ـــ الإستيعاب ، وأضاف إليها أشياء كثيرة ؛ و**الإصابة** هو ما رجع إليه المحققان دون **الإستيعاب** وإن كان احتمال اطلاع ابن حجر على مسند بقي صعبا ؛ فيظهر أنه لم يطلع إلاّ على القطعة التي بأيدينا .

واعتمادا على هذين المصدرين لابن عبد البر وابن حجر ، حاولنا ترجيح ما بدا صالحا من الإختلافات ؛ ولم نقصد مطلقا ، في هذا العمل ، إلى النظر في الأسماء المتفقة في نسختنا والمطبوع ؛ فلم نسمح لأنفسنا بنقد عمل جليل لمحققين كبيرين وخاصة منهما صديقنا احسان عبّاس ، فالظاهر أن الدار تفكر في تجديد الطبع ـــ وقد نفدت نسخ الكتاب كلّها ـــ ومن الطبيعي أن يستفيد الطبع الجديدة من تحقيقات أخرى أغفلت في الطبعة الأولى .

أما نسختنا ، فقد عثرنا عليها في مجموع من المكتبة العبدلّية الصادقية بالجامعة التونسية ؛ ورقم المجموع : 973 وحجمه : 21 × 16 ، وعدد السطور بصفحاته : 25 ؛ والنسخة هي عدد 9 منه وتقع من ورقة 155 وجها إلى ورقة 161 ظهرا ؛ والمجموع بأكمله يقع في 164 ورقة وهو في حالة جيّدة إلاّ أنّ خطّه يقرأ بصعوبة ـــ أحيانا ـــ وهو بعيد عن الجودة ؛ ويظهر أن تاريخ النسخ هو القرن الثاني عشر كما تحمل على ذلك مقارنة خط نسختنا ـــ ولم يُذكر تاريخ نسخها ولا مكانه ـــ بنسخة القطعة الثانية من المجموع ؛ فخط هذه مماثل تماما لخط نسختنا وهو بقلم أبي الضياء علي بن إبراهيم بن أحمد ابن ابراهيم البوتيجي الشافعي الأثري الشاذلي ، خَطّه في 1121 هـ ؛ وعلى كل فالخط تونسي ؛ ويجد القارىء نماذج منه مدرجة في هذا المقال .

مطبوع إحسان عبّاس وناصر الدّين الأسد	مخطوط العبدلية
ص 273 : [أسماء الصحابة الرواة وما لكلّ واحد من العدد](1)	و 155 و : كتاب عدد ما لكل! واحد من الصحابة — رضي الله عنهم! — من الحديث عن رسول الله — — صلى الله عليه وسلّم! — ممّا خرّجه أبو عبد الرّحمان بقي بن مخلد الأندلسي — رحمه الله تعالى !
ص 275 : قال أبو محمد (2) رحمه الله تعالى :	و 155 ظ : بسم الله الرحمان الرحيم صلى الله على سيدنا محمد !
هذا بابٌ من ذِكرِ مَنْ روى عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم من الصحابة ، رضوان الله عليهم ، حديثا فما فوقه ، ممَّن نُقِل الحديث عنهم ، على مراتبهم في ذلك : أصحاب الألوف وما زاد منهم ، ثم أصحاب الألفين وما زاد ، ثم أصحاب الألف وما زاد ، ثم أصحاب المئين وشيء، ثم أصحاب المئتين وشيء ، ثم أصحاب المائة وشيء ثم أصحاب العشرات وشيء ، ثم أصحاب العشرين ، ثم أصحاب التسعةَ عشرَ ، ثمّ أصحاب الثمانية عشرَ ، ثمّ أصحاب السبعة عشرَ ، ثمّ كذلك نقص واحدٍ واحدٍ ، إلى أصحاب الأفراد .	أخبرنا الشيخ الإمام الزاهد أبو الفضل محمد بن يوسف بن علي الغزنوى (3) — قراءة عليه — في جمادى الآخرة (4) سنة اثنتين (5) وسبعين وخمسمائة قال : أخبرنا الشيخ الإمام أبو اسحاق ابراهيم بن محمد بن نبهان الغنوى الرقّي (6) — في قراءة عليه ، وأنا أسمع فأقرّ به — وذلك في جمادى الآخرة (4) سنة اثنتين (5) وأربعين وخمسمائة ؛ قال : أخبرنا الشيخ أبو عبد الله محمد بن أبي نصر بن عبد الله الحميدى (7) ، قال : أخبرنا الشيخ أبو محمد علي بن أحمد الفقيه بالأندلس (8) ؛ قال : تسمية ما ذكره أبو عبد الرحمان بقي (9) بن مخلد — رحمه الله تعالى ! — [في] مسنده عن أصحاب رسول الله — صلّى الله عليه وسلّم ! — قال : أخبرني بذلك

ملاحظة : انظر التعاليق في الجزء الاخير من الفصل

	محمد بن سعيد بن نبات (10) قال : حدّثنا عبد الله بن نصر الزاهد (11) قال : حدثنا عبد الله بن يونس المرادي (12) . قال : حدّثنا بقي بن مخلد . قال أبو عبد الله [الحميدي] : ثم رتبناه نحن .
ص 276 : أبو سعيد الخدري : ألف حديث ومائة حديث وسبعون حديثا .	156 و : أبو سعيد الخدري : ألف حديث وسبعون حديثا .
— عمر بن الخطاب : خمسمائة حديث وسبعة وثلاثون حديثا .	— عمر بن الخطاب : خمسمائة حديث وسبعة وثمانون حديثا .
— علي بن أبي طالب : خمسمائة حديث وستة وثلاثون حديثا .	— علي بن أبي طالب : خمسمائة حديث وستة وثمانون حديثا .
— أبو موسى الأشعري واسمه عبد الله بن قيس .	— أبو موسى الأشعري عبد الله ابن قيس (13) .
ص 277 : أبو أمامة الباهلي : مائتا حديث وسبعون حديثا .	— أبو أمامة الباهلي : مائتا حديث وخمسون حديثا .
— جابر بن سمرة الأنصاري .	— جابر بن سمرة (14) .
ص 278 :	— ذكر قبل النعمان بن بشير ، سمرة بن جندب الفزاري على أنّه صاحب مائة حديث وثلاثة وعشرين حديثا (15).

— لاذكر لزيد ابن ثابت .	156 ظ : ذُكر قبل زيد بن خالد ، زيدُ بن ثابت على أنّه صاحب اثنين وسبعين (16)
ص 279 : لاذكر لعمرو بن عوف .	— ذُكر قبل سلمان الفارسي، عمرو بن عوف وله اثنان وستون حديثا (17) .
— شدّاد بن أوس .	— شدّاد بن أوس بن ثابت الأنصاري (18) .
ص 280 : المقدام بن معد يكرب .	— المقدام بن معد يكرب أبو كريمة (19) .
ص 281 :	— ذُكر بعد معقل ، مغفّل صاحب أربعة وثلاثين حديثا (20) .
— صهيب : ثلاثون حديثا .	— صهيب : واحد وثلاثون حديثا .
ص 283 :	157 و : بعد عمرو بن أميّة الضّمرى ذُكر : « عمرو بن أميّة آخر » (21) .
— سراقة بن مالك .	— سراقة بن مالك بن جعشم (22) .
ص 285 : نعيم بن همّار .	157 ظ : نعيم بن همّام (23) .
ص 286 : بشير الخصاصيّة .	— بشير بن الخصاصيّة (24) .
— عبد المطلب بن ربيعة .	— المطلب بن ربيعة (25) .
ص 287 : حبيب بن سلمة .	— حبيب بن مسلمة (26) .
— الحارث بن يزيد البكري.	158 و : الحارث بن يزيد (27) .

— المسيّب وأراه : أبا سعيد .	— المسيّب والد سعيد (28) .
— أم خالد أراها : نبت خالد	— أم خالد هي بنت خالد(29)
ص 289 : يزيد بن أبي الاسود .	— يزيد بن الأسود (30) .
— سالم بن عبيد الله .	— سالم بن عبيد (31) .
— خوَيلد بن ثعلبة بن مالك .	— خويلة بن ثعلبة بن مالك(32)
ص 290 : ركانة بن عبد يزيد بن الحارث .	158 ظ : ركانة بن عبد يزيد (33) .
— الحجاج بن عمرو الزبيدى	— الحجّاج بن عمرو (34) .
ص 291 . أمّ ضبّة — بنت ليلي .	— ضبية أم ليلى (35) .
— م حبيبة بنت سهل .	— رويبة أم حبيبة — بنت سهل (36) .
ص 292 :	— ذُكر عبيد بن خالد قبلَ عابس التميمي (37) .
— أبو حبّة : عامر بن ثابت . بدريّ .	— أبو حيّة بن عمرو بن ثابت (38) .
— ابن مقرّن .	— سويد بن مقرّن (39) .
— أبو بُحَينة الباهلي .	— أبو مجيبة الباهلي (40) .
ص 293 : كعب بن عاصم الأشقري	— كعب بن عاصم الأشعري (41) .
— خالد بن علي .	— خالد بن خليّ [لعلّها عدي] (42) .
— أبو هاشم بن عتبة بن أبي ربيعة .	159 و : أبو هاشم بن عتبة بن ربيعة (43) .

— الصمّاء بنت بشر .	— الصمّاء بنت بسر (44) .
ص 294 : سليم بن جابر الجُهَني .	— سليم بن حابر الحُهَيمي (45) .
ص 295 : الخشخاش .	— الحسحاس (46) .
— أبو مجزأة وهو زاهر .	— أبو مجزأة بن زاهر (47).
ص 296 : عبد الله القرشي الفارسي.	— عبد الله القرشي — الفارسيّ (48) .
— عمرو بن تغلب .	— عمرو بن يعلى (49) .
ص 297 : مالك بن عبد الله الأزدي .	— مالك بن عبد الله الأودي [لعلها الأوسي] (50) .
ص 297 : خوله بنت إلياس .	159 ظ : خولة بنت الثامر (51) .
ص 298 : أم بشير بنت البراء بن معرور .	— أم بشر بن البراء بن معرور (52) .
— أم ورقة .	— أم ورقة هي بنت عبد الله ابن الحارث (53) .
— [أبو] سَلاَمَة .	— سَلاَمة (54) .
— سعد بن العلاء .	— أبو سعيد بن المعلّى (55) .
ص 299 : بصرة .	— نضرة (56) .
— سليمان .	— سلمان (57) .
— خَرَشة بن الحرّ .	— خَرَشة بن الحارث (58) .
سعد عمر الخثعمي .	— سعد [ابن] عمر الخثعمي (59) .
ص 300 : عبد الله بن سعد .	— عبد الله بن سعيد (60) .

ص 301 : أبو سهلة — السائب الأنصاري .	— أبو سهلة السائب بن خلاّد (61)
	[خلاّد] بن السائب (62) .
ص 302 : بشير أبو جميلة .	160 و : بشير أبو نحيلة (63) .
— عبد الله بن معقل بن مقرّن	— عبد الله بن معقل — [أ] بن مغفّل (64) .
ص 303 :	ذكر بين نضلة وبين عمرو بن عامر [بن الطفيل] هذه الأسماء :
	أبو عامر الأشعري (65) .
	سفيان بن وهب الخولاني(66)
	عبد الله بن عمّار (67) .
— يزيد بن ثعلبة .	— يزيد بن نعامة (68) .
ص 304 : عبد الله بن معبد .	— عبد الله بن قيس (69) .
ص 307 : عمرو بن أبي عمرة .	160 ظ : عمرو بن أبي عمرو (70).
— بُسر بن محجن .	— بشر بن محجن (71) .
— حبّه وسواء ابنا خالد لهما حديث واحد .	— حبّة وسوار ابنا خالد لهما حديث واحد (72) .
— أبو زهير ، وقيس وعبيد [ومالك] بنو الخشخاش لهم حديث .	— أبو زهير — مالك وقيس وعبيد بنو الخشخاش لهم حديث واحد (73) .
ص 308 : حِبّان بن بُحّ .	— حيّان بن بُحّ (74) .
— عبد الرحمان بن عقيل .	— عبد الرحمان بن أبي عقيل (75) .

— أبو يزيد بن أبي مريم .	— أبو بُرَيد بن أبي مريم(76)
ص 309 : عمرو بن أبي عمرة .	— عمرو بن مرّة (77) .
— آبي اللحم السعدي .	161 و : آبي اللاحم (78) .
ص 310 : هرم بن خنبش .	— حبيش ويقال وهب بن حبيش (79) .
— حصين .	— الحصين (80) .
ص 311 : مسعدة صاحب الجيوش .	— مسعود صاحب الجيوش(81)
— زيد بن سعنة .	— زيد بن سعبة [ولعلّها سعية] (82) .
ص 313 : عبد الرحمان بن معاذ — ابن مربع الأنصاري .	— عبد الرحمان بن معاذ بن مربد الأنصاري (83) .
ص 314 : أم سعد خالدة بنت أنس .	161 ظ : خالدة بنت أنس وهي أم بني حرم [لعلّها بني حزم] (84) .
ص 315 : فهذا آخر من روى عنه عليه السلام حديثا فيما ضبطناه وضبطه من قبلنا الإمام الحافظ بقي بن مخلد الأندلسي وغيره من قبله وبالله التوفيق	— انتهى بحمد الله وحسن عونه وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليما !

فصل : يتتبع العلماء والحفّاظ ما ضبطناه ، فمن وجد زيادة فليضعها حيث تليق وبالله تعالى التوفيق .

التعاليق

(1) يشير احسان عباس الى ان العنوان ساقط من الأصل وقد أثبته كما جاء في (ج) : وهو مخطوط دار الكتب المصرية رقم 254

(2) هو ــ طبعا ــ ابن حزم المشهور .

(3) في الأصل : محمد برايوسف بن علي الغنوي الرقي ، أضاف الناسخ : الرقي وكتب اولا : الغنوي ثم أصلح الكلمة الثانية وشطب الأولى ، ويظهر أن تعلق ذهنه بتسجيل اسم الراوي الموالي الشبيه في بعض أجزائه بالأول ، هو الذي أوقعه في هذا السهو .
وأبو الفضل هذا هو حسب الذهبي « حنفي المذهب ، أقام ببغداد مدة وسمع أبا بكر الأنصاري وأبا سعيد البغدادي الاصبهاني والأرموي وجماعة » . وطبعا سمع ابن بنهان الغنوي الرقي المذكور في سلسلة الرواة في مخطوطنا هذا لابن بقي وأخذ عنه ، وذلك قبل وفاة الرقي في 1147/543 ، ويضيف الذهبي أنه « صار الى مصر وحدث بها بالكثير وتوفى في ربيع الاول سنة 1202/599 »
(انظر هذه الترجمة في « **مختصر تاريخ الدبيثي** » للذهبي ، الجزء الثاني من مخطوط الأحمدية بتونس ورقة 63 وجها ورقم المخطوط 5038 ، ومن المعلوم ان الدبيثي وضع تكميلا لتاريخ بغداد للخطيب البغدادي اختصره الذهبي المذكور ،

(4) في الأصل : الاخر .

(5) في الأصل : اثنين .

(6) هو ابراهيم بن محمد بن بنهان أبو اسحاق الغنوي الرقي الصوفي ، ولد في 1066/459 وتوفي في 1148/543 ، حسب ما جاء في **طبقات الشافعية** للسبكي ص 200 من الجزء الرابع (الطبعة الأولى في ستة أجزاء في القاهرة وبدون تاريخ) ، ويضيف السبكي أنه سمع رزق الله التميمي وغيره ولا يذكر أنه سمع من الحميدي كما يدل عليه اسناد نصنا هذا ، ويشير الى أنه تفقه على الغزالي وفخر الاسلام الشاشي وكتب الكثير من تصانيف الغزالي وروى عنه ابن السمعاني وأبو اليمن زيد بن الحسن الكندي وعمر بن طبرزد وآخرون .

(7) انظر ترجمته في **الصلة** لابن بشكوال الجزء الثاني ص 530 . 531 رقم 1230 واسمه الكامل هو أبو عبد الله محمد بن ابي نصر فتوح بن عبد الله الأزدي الحميدي ، وهو من أهل ميورقة وأصله من قرطبة (من ربض الرصافة) روى عن ابن حزم ــ كما يؤكده اسناد هذا المخطوط ــ واختص به ، وشهر بصحبته ، وعن أبي عمر بن عبد البر وغيرهما ، والمفيد انه رحل الى المشرق في 1056/448 ، وبعد أن حل بمكة ، حاجا ومقيما ، وسمع بافريقية ومصر كثيرا ، وبالشام والعراق ، استوطن بغداد الى ان توفي بها في 1056/488 ، ولا تذكر المصادر التي رجعنا اليها أن ابن نبهان لا زمه أو تتلمذ عليه ، ولكن من المحتمل جدا أن يكون قد اجتمع به قبل 488 وأخذ عنه كما يدل عليه اسنادنا في هذا النص .

(8) هو ابن حزم الفقيه الظاهري المشهور (994/384 ــ 1063/456)، والذي يهمنا من ترجمته هو ما يتعلق بذكره في هذا الاسناد ، ورأينا أن الحميدي قد اخذ عنه ، ونعلم أيضا أن ابن حزم اخذ عن ابن نبات ــ كما يؤكده اسناد مخطوطنا ، كما نعلم أن الحميدي أخذ عن ابن نبات هذا عن طريق ابن حزم كما يدل عليه هذا الاسناد أيضا، انظر الحميدي في « **جذوة المقتبس** » ص 56 رقم 66 في ترجمة محمد بن سعيد بن نبات ، وعبارة الحميدي هي « روى لنا عنه [ابن نبات] أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الفقيه الحافظ ، وكان يقول في بعض أحاديثه عنه : أخبرنا النباتي »
ويهمنا أيضا من حياة ابن حزم وتفكيره رأيه في بقي بن مخلد وفي ما كتبه وخاصة هذا المسند المصنف الذي نحن بصدد الحديث عن هيكله ، فلا نعجب لورود اسم ابن حزم في اسناد هذا المخطوط اذا علمنا ما قاله عن المسند المصنف لبقي وقد أورد هذا الرأي صاحب **الصلة** في ترجمة بقي (ص 118) ، ونقلناه نحن في صفحة سابقة

(9) في الأصل : عبد الرحمان بن بقي ابن مخلد .

(10) انظر عنه الحميدي وقد سبقت الاشارة الى مكان الترجمة ، وابن بشكوال « **الصلة** » الجزء الثاني ص 492 . 493 رقم 1136) وورد اسمه في اسناد مخطوطنا يؤكده ما ذكره الحميدي من ان وفاته بعد الاربع مائة وان ابن حزم روى عنه وان ابن نبات اخذ عن عبد الله بن نصر الزاهد وما يذكره ابن بشكوال عن حفظه للحديث مع الفهم يبين قرابة منهجة من منهج بقي، واسمه الكامل كما ورد في « **الصلة** » هو محمد بن سعيد بن محمد بن عمر بن سعيد بن نبات الأموي ابو عبد الله ، وهو من أهل قرطبة ، ويذكر ابن بشكوال أنه توفي عن 93 سنة

(11) أنظر عنه الحميدي (ص 247 رقم 566) وابن الفرضي (الجزء الأول ص 276 رقم 725) : واسمه الكامل كما أثبته صاحب كتاب « **تاريخ العلماء والرواة للعلم بالاندلس** » هو عبد الله بن محمد بن نصر الزاهد أبو محمد ، ويؤكد ورود اسم صاحبنا في اسناد مخطوطنا ما ذكره ابن الفرضي من انه من أهل قرطبة وأنه توفي سنة 371/981 . وأنه « مائل الى الحديث والآثار مشارك في علم الرأي (...) يروي كثيرا » كما يؤكده ما رواه الحميدي من أنه روى عن عبد الله بن يونس المرادي صاحب أبي عبد الرحمان بقي بن مخلد (انظر اسمه في سلسلة الاسناد) وأنه ـ كما مر بنا ذلك ـ حدث محمد بن سعيد بن نبات .

(12) اسمه الكامل كما ورد في ابن الفرضي هو : عبد الله بن يونس بن محمد بن عبيد الله بن عباد بن زياد بن يزيد بن ابي يحيى المرادي يعرف بالقبري : (الجزء الاول ص 265 رقم 680) ويذكر ابن الفرضي أن أصله من قبره (ذكره القيري خطأ ، ناشر كتاب **تذكرة الحفاظ** للذهبي بحيد آباد الجزء الثاني رقم 656 ص 630) وأنه سكن قرطبة وأنه توفي سنة 330/941 عن 77 سنة وأنه سمع من بقي بن مخلد كثيرا وصحبه وأنه كان هو والحسن بن سعد آخر من حدث عنه ، ويؤكد الحميدي في ترجمته له (ص 248 رقم 572) انه يروي عن بقي بن مخلد وأنه كان من المكثرين عنه ، ويذكر ـ كما مر بنا ـ أن عبد الله بن نصر روي عنه ، وكل هذا مفيد اذ يدعم وجود اسم صاحبنا في سلسلة الاسناد للمخطوط .

(13) في **الاستيعاب** لابن عبد البر (ط القاهرة في أربعة اجزاء بدون تاريخ تحقيق البجاوي) الجزء الرابع ص 1762 و 1763 و 1764 رقم 3193 : أبو موسى الأشعري عبد الله بن قيس .

(14) في **الاستيعاب** بالجزء الاول ص 224 رقم 299 وفي **الاصابة** لابن حجر (ط . مصر في 4 أجزاء 1358/1939) بالجزء الأول ص 213 رقم 1018 أنه من بني سواءة بن عامر بن صعصعة حليف بني زهرة وأن امه ابنة لأبي وقاص وأخت لسعد ، ولا شيء في ابن حزم أيضا صاحب « **جمهرة أنساب العرب** » (تحقيق عبد السلام هارون القاهرة 1382/1962 ص 273) يدل على أن جابر بن سمرة أنصاري وفي **نهاية الارب في معرفة انساب العرب** للقلقشندي (تحقيق ابراهيم الابياري ط . القاهرة . 1959 . ص 298) : بنوسواءة : بطن بن عامر بن صعصعة من من هوازن من العدنانية)

(15) سمرة بن جندب بن هلال الفزاري ذكر في الصحابة في **الاستيعاب** بالجزء الثاني ص 653 و 654 و 655 رقم 1063 وكذلك في **الاصابة** بالجزء الثاني ص 77 و 78 رقم 3475 وقد سقط هذا الاسم من النسخ التي اعتمدها احسان عباس

(16) زيد بن ثابت بن الضحاك معدود في الصحابة ، انظر **الاستيعاب** بالجزء الثاني من ص 537 الى ص 540 رقم 840 **والاصابة** بالجزء الاول ص 543 و 544 ر 2880

(17) عمرو بن عوف المزني ، انظر عنه **الاستيعاب** بالجزء الثالث ص 1196 رقم 1943 وكذلك **الاصابة** بالجزء الثالث ص 172 رقم 6832 .

(18) كذا ورد **بالاستيعاب** في الجزء الثاني ص 694 و 695 رقم 1158 **وبالاصابة** في الجزء الثاني ص 138 رقم 3847 .

(19) كذا في **الاستيعاب** بالجزء الرابع ص 1482 و 1483 رقم 2562 (وقيل أبو صالح وقيل أبو يحي) **والاصابة** بالجزء الثالث ص 434 رقم 8186 (وقيل أبو يحي)

(20) ذكر مغفّل بن عبد غنم في الصحابة (**الاستيعاب** الجزء الرابع ص 1479 رقم 2560) وعنه ايضا وعن **الاصابة** بالجزء الثالث ص 430 رقم 8169 : ابن عبدنهم

(21) لعله عمرو بن أمية بن أسد بن عبد العزّى بن قصي القرشي الأسدي ، ذكره صاحب **الاستيعاب** فقط انظر الجزء الثالث ص 1162 رقم 1891)

(22) كذا ورد في **الاستيعاب** بالجزء الثالث ص 581 رقم 916 وكذلك في **الاصابة** بالجزء الثاني ص 18 رقم 3115 .

(23) في **الاستيعاب** (الجزء الرابع ص 1509 رقم 2632) نعيم بن همار او ابن حمار او ابن هبار او ابن هدار او بن خمار او ابن همام ، ولا ذكر في **الاصابة** لابن همام والاصح عنده ابن همار (الجزء الثالث ص 539 رقم 8786) .

(24) هكذا ورد في **الاستيعاب** بالجزء الأول ص 173 رقم 196 وفي **الاصابة** بالجزء الاول ص 162 رقم 691 ، ولاذكر فيهما لبشير الخصاصية .

(25) في **الاستيعاب** (الجزء الثالث ص 1006 و 1007 رقم 1704) عبد المطلب بن ربيعة روى عن النبي احاديث ، وفي **نفس المصدر** (الجزء الثالث ص 1042 رقم 2413) المطلب بن ربيعة كان غلاما على عهد النبي وروى عنه عبد الله بن الحارث

(26) هكذا ورد في **الاصابة** (الجزء الاول ص 308 رقم 1600) وكذلك في **الاستيعاب** (الجزء الاول ص 320 رقم 470)

(27) لا ذكر للبكري الا في **الاصابة** (الجزء الاول ص 276 رقم 1395 وص 295 رقم 1511) ، اما **الاستيعاب** (الجزء الاول ص 305 رقم 440) ففيه الحارث بن يزيد القرشي العامري من بني عامر بن لؤي

(28) هكذا ورد في **الاستيعاب** (الجزء الرابع ص 1400 رقم 2407) وفي **الاصابة** (الجزء الثالث ص 400 ر 7998)

(29) هكذا في **الاستيعاب** (الجزء الرابع ص 1790 ر 3239) وفي **الاصابة** (الجزء الرابع ص 232 و 233 رقم 82)

(03) في **الاستيعاب** يزيد بن الأسود فقط (الجزء الرابع ص 1571 رقم 2755) اما في **الاصابة** (الجزء الاول ص 549 رقم 2905) ، فلا وجود لا ليزيد ولا لزياد ولا لزيد اللهم الا لزيد بن سهل بن الاسود بن حرام بن عمر .

(1) في **الاستيعاب** (الجزء الثاني ص 566 رقم 879) وفي **الاصابة** (الجزء الثاني ص 5 رقم 3045) سالم بن عبيد الأشجعي .

(32) في**الاصابة** (الجزء الرابع ص 282 رقم 360 خولة بنت ثعلبة بن مالك ، ولا ذكر فيه لا لخالد او خويلد بن ثعلبة ، وكذلك في **الاستيعاب** : لا ذكر الا لخولة او خويلة بنت ثعلبة (الجزء الرابع ص 1830 و 1831 رقم 3320)

(33) لا ذكر للحارث في **الاستيعاب** (الجزء الثاني ص 507 و 508 رقم 801) ولا في **الاصابة** (الجزء الثاني ص 464 و 465 رقم 708) .

(34) لا ذكر للزبيدي لا في **الاستيعاب** (الجزء الاول ص 326 و 327 رقم 483) ولا في **الاصابة** (الجزء الأول ص 312 رقم 1623)

(35) في **الاصابة** (الجزء الرابع ص 448 رقم 1354) لا ذكر الا لأم صبية الجهنية ، ولا ذكر في **الاستيعاب** (الجزء الرابع ص 1956 رقم 4205) الا لام ليلى الانصارية والدة عبد الرحمان ابن ابي ليلى .

(36) لا ذكر لاي في **الاستيعاب** ، اما في **الاصابة** (الجزء الاول ص 522 رقم 2772) فلا ذكر الا لروبية وهو صحابي والد عمارة .

(37) ما ذكر عبيد الا في الاستيعاب (الجزء الثالث ص 1016 رقم 1728)

(38) هكذا في رواية **للاستيعاب** (الجزء الرابع ص 1628 و 1629 رقم 2907) وفي رواية اخرى له ابوحبة عامر الانصاري البدري ، ولا ذكر له في **الاصابة** .

(39) هكـذا في **الاستيعـاب** (الجـزء الثـاني ص 680 رقم 1123) وفي **الاصـابـة** (الجـزء الثـاني ص 99 رقـم 3610)

(40) هكذا في **الاستيعاب** (الجزء الرابع ص 1754 رقم 3163) وفي **الاصابـة** (الجزء الرابع ص 173 رقم 1016) وفي **الاصابـة** ابو بحينة ايضا (الجزء الرابع ص 18 رقم 112)

(41) هكذا في **الاستيعاب** (الجزء الثالث ص 1321 رقم 2196) **والاصابـة** (الجـزء الثـالث ص 303 رقـم 7523) .

(42) في **الاستيعاب** (الجزء الثاني ص 436 رقم 622 : خـالد بن عدي الجهني ، امـا **الاصابـة** فـلا يذكر الا هذا (الجزء الاول ص 409 رقـم 2181) .

(43) هكـذا في **الاستيعـاب** (الجـزء الـرابع ص 1767 رقم 3205) **والاصـابـة** (الجـزء الـرابـع ص 199 رقـم 1180)

(44) هكذا في **الاستيعاب** (الجزء الرابع ص 1874 رقم 4014) امـا **الاصابـة** (الجزء الرابع ص 341 رقم 666) فالصماء بنت بشر المـازنية .

(45) في **الاستيعاب** (الجزء الثاني ص 646 رقم 1044) سليم بن جابر ابو جري الهجيمي ، واما في **الاصابة** (الجزء الثاني ص 72 رقم 3436) فسالم بن جابر فقط .

(46) في **الاستيعاب** (الجزء الاول ص 414 رقم 589) : الحساس رجـل من اصحاب النبي ، وكذلـك الخشخاش العنبـري (الجـزء الثـاني ص 457 رقم 687) وفي **الاصابـة** (الجـزء الاول ص 327 رقـم 1713) نفس الشيء

(47) هكـذا في **الاستيعاب** (الجزء الثـاني ص 509 رقم 805) وكذلك زاهر الاسلمي وهو زاهر بن الاسود بن حجاج بن عبد دعبل ، وفي **الاصابة** (الجزء الرابع ص 173 رقم 1015) : ابو مجرأة الاسلمي وهو ازهر والد مجرأة

(48) لا ذكر في **الاستيعاب** ولا في **الاصابة** لعبد الله القرشي الفارسي ، وفي الاول ذكر فقط عبد الله ابن السعدي القريشي العامري (الجزء الثالث ص 920 رقم 1555) والفراسي ـ ويقـال فراس من بني فراس بن مـالك بن كنانـة ـ وهو من اصحـاب الحديثين (الجزء الثـالث ص 1269 رقم 2092) وفي **الاصابة** لا ذكر الا لفراس والفراسي وابن الفراس وابن الفراسي (الجزء الثالث ص 197 ـ رقـم 6972)

(49) كلا الاسمين مذكور في **الاستيعاب** الاول في الجزء الثالث ص 1166 و 1167 رقم 1898 والثاني في نفس الجزء ص 1206 رقم 1963 ، وفي **الاصابة** لا ذكر لاي منهما

(50) في **الاستيعاب** لا ذكر الا لمالك بن عبد الله الاوسي (الجزء الثـالث ص 1353 رقم 2273) امـا في **الاصابـة** ، فذكر الاثنـان : الاوسي (الجـزء الثالث ص 327 رقم 7646) والازدي (الجـزء الثالث ص 327 رقم 7651)

(51) في **الاصابـة** لا ذكر الا لخولـة بنت ثامر الانصاريـة (الجزء الرابع ص 1830 رقم 3319) وفي **الاصابـة** خولة بنت ثامر (الجـزء الرابع ص 282 رقم 359) وخولة بنت ايـاس (الجزء الرابع ص 281 رقـم 357) .

(52) في **الاستيعاب** ، لا ذكر لام بشير ، وانمـا لام بشر ابنة البراء بن معرور الانصاريـة ويقال لها : ام مبشر ايضا (الجزء الرابع ص 1926 رقم 4127 و 4128) وفي **الاصابة** ذكر لام بشر وأم بشير وهي واحدة (الجزء الرابع ص 418 رقم 1158) .

(53) في **الاستيعاب** لا ذكر الا لام ورقة بنت عبد الله بن الحارث بن عويم الانصاري (الجزء الرابع ص 1965 رقم 4224 ، وفي **الاصابـة** ذكر لام ورقة بنت عبد الله بن الحارث بن عويمر (الجزء الرابـع ص 481 رقـم 1542) ولام ورقـة بنت حمـزة بـن عبـد المطلـب (الجـزء الرابـع ص 481 رقـم 1541)

(54) يوجد الاثنان في **الاستيعاب** الجزء الرابع ص 1860 و 1861 ارقام من 3378 الى 3380) **والاصابة** (الجزء الرابـع ص 323 من رقـم 552 الى 557 وص 93 رقـم 554) ولعل الحديث هنا يتعلق بسلامة لان السياق يقتضي ذكر النساء من الصحابيات

(55) لا ذكر في **الاستيعاب** الا لابي سعيد بن المعلى (الجزء الرابع ص 1669 رقم 2995) **وكذلك في الاصابة** (الجزء الرابع ص 88 رقم 530)

(56) **في الاستيعاب** : بصرة بن ابي بصرة الغفاري (الجزء الاول ص 184 رقم 217 **ونضرة بن** اكثم الخزاعي (الجزء الرابع ص 1524 رقم 2657) **وفي الاصابة ذكر لنضرة بن اكثم بن** ابي الجون الخزاعي (الجزء الرابع ص 525 و 526 رقم 8715) **ولنضرة من خديج الجشمي** (نفس الجزء . ص 526 رقم 8716)

(57) كلاهما مذكور في **الاستيعاب** (الجزء الثاني من ص 649 الى 651 من رقم 1055 الى 1058) ومن ص 632 الى 638 ومن رقم 1011 الى 1014 **وفي الاصابة** (الجزء الثاني ص 59 و 60 من رقم 3352 الى رقم 3357 و ص 74 و 75 من رقم 3455 الى 3461) .

(58) ذكر كلاهما في **الاستيعاب** (الجزء الثاني ص 445 رقم 640 و 641) **وفي الاصابة (الجزء** الاول ص 422 رقم 2240 ورقم 2241)

(59) لا وجود لعمر الخثعمي في **الاستيعاب** ، وانما المذكور هما **سعد بن عمر الانصاري وسعد ابن** عمر بن ثقف (الجزء الثاني ص 601 رقم 949 و 950) **وفي الاصابة سعد بن عمارة الانصاري** وسعد بن عمرو بن ثقيف (الجزء الثاني ص 29 رقم 3182 و 3183)

(60) **في الاستيعاب** (الجزء الثاني) ، عبد الله بن سعد (من ص 917 الى 920 ومن رقم 1550 الى 1553) ، وعبد الله بن سعيد (ص 920 رقم 1556) ، **وفي الاصابة** ذكر الاول **(الجزء الثاني** من ص 308 الى ص 310 ومن رقم 4706 الى 4717) والثاني بنفس الجزء ص 311 رقم 4719

(61) **في الاستيعاب** (الجزء الثاني ص 571 رقم 890) ، السائب بن **خلاد بن سويد الانصاري** ابو سهلة **وفي الاصابة** (الجزء الثاني ص 10 رقم 3063) السائب بن **خلاد الجهني ابو خلاد**

(62) **في الاستيعاب** (الجزء الاول ص 542 رقم 677) ، خلاد بن السائب **بن خلاد بن سويد** الانصاري **وفي الاصابة** نفس الاسم بنفس الصيغة (الجزء الاول . ص 449 . رقم 2277)

(63) **في الاستيعاب** (الجزء الرابع ص 1765 و 1766 رقم 3200) ، ابو **نخيلة او نحيلة وكذلك** ابو جميلة سنين (الجزء الرابع ص 1621 رقم 2897) **وفي الاصابة** ابو **جميلة سنين (الجزء** الرابع ص 33 رقم 200) وكذلك الاسمان الآخران (الجزء الرابع ص 196 رقم 1156 و 1155)

(64) **في الاستيعاب** (الجزء الثالث) ، عبد الله بن ابي معقل الانصاري (ص 995 رقم 1664 وعبد الله بن مغفل (ص 996 و 997 رقم 1667) **وفي الاصابة** عبد الله **بن مغفل بن مقرن** المزني (الثالث . ص 142 رقم 6645)

(65) ابو عامر الاشعري : اخو ابي موسى (**الاستيعاب** الجزء الرابع ص 1705 رقم 3063) : والآخر **لا علاقة له به ، وهو والد عامر بن ابي عامر الاشعري ، له صحبة ورواية (نفس المصدر** رقم 3064) وفي **الاصابة** ، لا ذكر الا للاول (الجزء الرابع ص 146 رقم 863) .

(66) له صحبة **(الاستيعاب** الجزء الثاني ص 631 رقم 1008) ، **وفي الاصابة (الجزء الثاني** ص 56 رقم 3332) .

(67) روى عن النبي (**الاستيعاب** الجزء الثالث ص 950 رقم 1611) **ولا ذكر له في الاصابة**

(68) الاثنان مذكوران **في الاستيعاب** (الجزء الرابع ص 1572 و 1573 رقم 2762 — ص 1580 رقم 2797) وللثاني احاديث ولكن لا ذكر **في الاصابة** لاي منهما

(69) لا ذكر لعبد الله بن معبد ، لا **في الاستيعاب** ، ولا **في الاصابة** ، **اما عبد الله بن قيس ، فقد** ذكر مرة واحدة **في الاصابة** (الجزء الثالث ص 139 رقم 6631) ، **وذكر لستة صحابة في الاستيعاب** (الجزء الثالث من ص 978 الى ص 981 ومن رقم 1636 الى رقم 1641)

(70) **في الاستيعاب** (الجزء الثالث ص 1195 رقم 1939) **لا ذكر الا لعمرو بن ابي عمرو بن شداد** الفهري ، **وفي الاصابة** ، ذكر الاثنان (الجزء الثالث ص 8 رقم 5920 ورقم 5919)

(71) لا ذكر في **الاصابة** لكلا الاثنين ، اما **الاستيعاب** ، فيذكر بسر (وهو **قول مالك) وبشر (وهو** الثوري ، والاكثر قول مالك) الجزء الثالث ، ص 1363 رقم 3209)

(72) ذكر بالصيغتين سواء وسوار في **الاستيعاب** (الجزء الثاني ص 689 رقم 1148) **وفي الاصابة** (الجزء الثاني ص 132 رقم 3812) .

(73) ذكر في **الاستيعاب** للخشخاش ابناء ثلاثة حسب هذا الترتيب : مالك وقيس وعبيد : ولكل صحبة ولهم حديث واحد (الجزء الثالث ص 457 رقم 687) **وبنفس المصدر** ، عدد من يحمل كنة ابي زهير اربعة من رقم 2969 الى رقم 2973 **بالجزء** الرابع ص 1662 و 1663 ، ولا علاقة لاحد منهم بالخشخاش وفي **الاصابة** عدد من يحمل كنية ابي زهير خمسة (الجزء الرابع ص 77 و 78 من رقم 452 الى 456) وفي **نفس المصدر** بالجزء الثالث ذكر لابناء الخشخاش الثلاثة فقط ، مالك ص 322 رقم 7615 وعبيدة ص 158 رقم 6731 وقيس ص 234 رقم 7160

(74) لا ذكر في **الاستيعاب** الا لحيان بن بح وقد روى حديثا عن النبي ، الا انه ينقل عن الدار قطني صيغة حبان بن بح (الجزء الاول ص 317 و 318 رقم 465) وفي **الاصابة** ترجمة لحيان بن بح (الجزء الاول ص 364 رقم 1884) مع ذكر انه تقدم في حبان

(75) في **الاستيعاب** ذكر لعبد الرحمان بن ابي عقيل فقط ، مع بيان صحبته وروايته (الجزء الثاني ص 841 رقم 1440) ، اما في **الاصابة** ، فالاثنان مذكوران (الجزء الثاني ص 404 رقم 5169 و 5170) .

(76) الصيغتان موجودتان في **الاستيعاب** (الجزء الرابع ص 1775 رقم 3219) وكذلك في **الاصابة** (الجزء الرابع ص 218 رقم 1267)

(77) عمرو بن ابي عمره : غير موجود ، لا في **الاستيعاب** ولا في **الاصابة** ، فلا ذكر فيهما الا لعمرو ابن مرة ، صاحب حديث واحد ، حسب ابن عبد البر (الجزء الثالث ص 1200 رقم 1953) ، وذكره ابن حجر في الجزء الثالث ص 16 رقم 5963)

(78) في **الاستيعاب** (الجزء الرابع ص 1591 رقم 2829) وفي **الاصابة** (الجزء الاول ص 23 رقم 1) آبى اللحم الغفاري فقط

(79) حبيش بن خالد لا يعرف له الا حديث حسب **الاستيعاب** (الجزء الاول ص 406 و 407 رقم 571) اما وهب بن خنبش فهو غيره (**الاستيعاب** الجزء الرابع ص 1560 رقم 2727)

(80) في **الاستيعاب** : الحصين اسم لصحابيين (رقم 512 و 513 الجزء الاول ص 352 و 353) وحصين اسم لجماعة من رقم 514 الى 521 (الجزء الاول من ص 353 الى ص 355)وفي **الاصابة** ، لا ذكر الا لحصين .

(81) لا ذكر في **الاستيعاب** الا لجماعة من الصحابة يحملون اسم مسعود (الجزء الثالث من ص 1390 الى 1395 ومن رقم 2372 الى رقم 2391) وفي **الاصابة** ، ما ذكر الا مسعود وذلك مرات عديدة في الجزء الثالث من ص 389 الى ص 394 ومن رقم 7938 الى رقم 7964) .

(82) في **الاستيعاب** ورد الاسم بالصيغتين مع بيان ان النون اكثر من الياء (الجزء الثاني ص 553 رقم 849) . وكذلك في **الاصابة** معتمدا على ابن عبد البر (الجزء الاول . ص 548 . رقم 2904)

(83) في **الاستيعاب** ، ذكر عبد الرحمان بن مربع الانصاري (الجزء الثاني ص 852 . رقم 1456) وعبد الرحمان بن معاذ بن جبل الانصاري (الجزء الثاني . ص 852 رقم 1458) ، ولا ذكر في **الاصابة** لأي منهما .

(84) في **الاستيعاب** (الجزء الرابع ص 1816 رقم 3309) : خالدة بنت انس الساعدية ام بني حزم حديثها عن النبيء في الرقية ، وفي **الاصابة** (الجزء الرابع ص 272 رقم 327) خالدة بنت أنس الأنصارية الساعدية أم بني حزم

مصادر عن رحلتى الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده الى تــونس

(6 ديسمبر 1884 ـ 4 جانفي 1885 و 9 ـ 24 سبتمبر 1903)

بقلم : المنصف الشنوفي

لقد قام الشيخ محمد عبده ، بصفته زعيم الإصلاح الدّيني والاجتماعي في البلاد الإسلامية برحلات قصيرة المدى عبر جملة من البلدان الإسلامية فزار تونس سنة 1884 بعيد توقف مجلة العروة الوثقى عن الصدور بباريس وزار تركيا سنة 1901 وزار تونس ثانية بعد أن عرّج على الجزائر في صيف 1903 وزار أخيرا السودان قبيل وفاته بشهور سنة 1905 (1) . هذا علاوة على أسفاره إلى أوربا حيث توقف لاستخلاص العبرة من تفوق الغرب وعن إقامته ببيروت مدة نفيه إليها (1882 — 1889) .

ولقد كان قوام دعوته ، في الظعن والإقامة ، هذا المنهج الإصلاحي وهو ان إصلاح الأمّة الإسلاميّة وتجديدها لا يكونان إلاّ من طريق التعليم والتربية أوّلاً ، ومن طريق السياسة آخرا ، مما كان أصل التباعد والاختلاف بينه وبين

(1) راجع تفاصيل هذه الرحلات في تاريخ الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده لرشيد رضا ، ج 1 ص 846 ـ 879.
سنرمز الى هذا الكتاب بالاشارات التالية : تاريخ 1 : طبعة 1350 ـ 1931 . تاريخ 2 : 1344 ـ 1926 . تاريخ 3 : 1324 ـ 1907.

السيد جمال الدّين الأفغاني فلئن كان تجديد الأمّة بإصلاح الدولة أدنى وأسرع – وهو مذهب الأفغاني – فانّ الشيخ عبده كان يؤمن بأن تجديد الدولة بإصلاح الأمّة أثبت وأدوم (2)

ولئن كانت الحركة الإصلاحية التونسية التي سنحاول في هذا البحث تحديد علاقاتها بالشيخ محمد عبده – أسبق في التاريخ (3) من الحركة التي تزعّمها الأفغاني وعبده في الربع الأخير من القرن التاسع عشر وأعلق باصابتها الأصيلة من حيث هي تونسية فإنها كانت إلى منهج الشيخ عبده أقرب وبه ألصق : ذلك أن العصابة الإصلاحية التي تزعمها الجنرال خير الدين والشيخ محمود قابادو عملت ، درءا لتطاول الغرب على السيادة التونسية ، على تركيز التجديد والنهضة على هذه الدّعامة وهو أن لا سبيل لهدم التأخر إلاّ باسترجاع ما أضاعه الإسلام وما اقتبسه عنه الغرب – وهو سرّ عظمته وعزّته – أي العلوم الحكميّة والرياضية . فلاَ نهضة للاسلام والمسلمين إلاّ باستعادة هذه العلوم ولا سبيلَ إلى ذلك إلاّ باقتباسها من الغرب بالنقل والتعلّم . فكان تأسيس المدرسة الحربية بباردو سنة 1840 الحلقة الأولى من سلسلة أعمال إصلاحية تدعمت وتأصلت فيما بعد (4) .

---

(2) تاريخ I : ص 974.

(3) لقد تفطن الجنرال خير الدين (المتوفى سنة 1889) والشيخ محمود قابادو (المتوفى سنة 1871) الى المبادرة الى استخلاص العبرة من تفوق اوربا وتركيز الاصلاح على استعادة العلوم الحكمية والرياضية.
راجع كتاب : اقوم المسالك في معرفة احوال الممالك . ط. تونس : 1868/1295.

(4) كان لخير الدين وقابادو الفضل في بناء اللبنات الاولى من صرح النهضة التونسية : فقد امتاز عهد المشير احمد باشا باي بتاسيس المدرسة الحربية ، والمكتبة الاحمدية (1840) وبتحوير التعليم بجامع الزيتونة (1842) وبرحلة رسمية قام بها الباي الى فرنسا. واتصل هذا المجهود على يد المشير مَحمد باشا باي (1955 – 1859) بتنظيم المحاكم الشرعية (1856) وبمنح « عهد الامان » (1857). وتمكن المصلحان خير الدين وقابادو في عهد المشير محمد الصادق باشا باي من انشاء المطبعة الرسمية وصحيفة « الرائد التونسي » (1860). وسافر الباي محمد الصادق الى الجزائر حيث عرض على نابليون الثالث نص الدستور الجديد الذي اعلن عنه (سنة 1861) والذي جعل من المملكة مملكة دستورية برلمانية . وتبوأ خير الدين كرسي الوزارة الكبرى (1873 – 1877) فانجز جملة مشاريع خطيرة اهمها انشاء المدرسة الصادقية (1875). راجع تاريخ احمد بن ابي الضياف : اتحاف اهل الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الامان : ج 4 و 5 و 6 طبعة تونس : 1963 – 1964 – 1965.

فلا غرابةَ إذن في أن كان الإتفاق في المنهج الإصلاحي ممّا حدا بالمصلح المصري إلى أن يزور مرتين تربةً من أشهر بنيها عبد الرحمان بن خلدون (5) .

وبعد فلا يعزب عن الناظر المتفحّص ما لهاتين الزورتين من أهمّية : فعلاوة على حدوثهما في مرحلتين جوهريتين من تطوّر الشيخ محمد عبده فإنّهما تشهدان على ما يكنّه المصلح المصري من الودّ والعطف نحو الحركة الإصلاحية التونسية في ظرفين من تاريخها : الأوّل غداة انتصاب الحماية متمثلا في مجهود الإصلاحيين من خريجي الزيتونة والمدرسة الحربيّة بباردو والثاني سنة 1903 متجسما في تظافر الجهود والتحام جبهة كان من أبرز عناصرها خريجو المعهد الصادقي .

وقد جمعنا جملة مصادر تحدّد علاقات الحركة الإصلاحية التونسية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر بالشيخ محمد عبده : وهي مصادر مطبوعة سنشير إلى أهميتها فقط ومصادر مخطوطة لم تنشر بعد سنثبتها كاملة أو مقتضبة .

اولا — الزورة الأولى :

أ) التباعد بين الأفغاني وبين عبده :

لقد وضع الأفغاني وعبده أسس دعوتهما الإصلاحية منذ التقائهما بمصر (1872 — 1879) وكان هدفهما تحرير الشعوب الإسلامية وتوحيدها . وأُطْرِد الأفغاني من مصر سنة 1879 وذهب إلى الهند فأسّس سنة 1882 بكلكته جمعيّة سريّة « جمعية العروة الوثقى » (6) وأُبْعِد عبده إلى مسقط رأسه بمحلة نصر

---

(5) لما سمي استاذ التاريخ بدار العلوم بالقاهرة ، اختار تفسير المقدمة لابن خلدون لجلالة قدرها: تاريخ I : ص 136 و ص 426

(6) لا شك ان جمعية العروة الوثقى رغم تحفظ رشيد رضا في تاريخه ، كانت على غرار الجمعيات الماسونية التي انخرط فيها الافغاني وعبده بمصر : راجع Jomier تفسير المنار Commentaire coranique du Manâr طبعة Maisonneuve باريس 1954 . ص : 5. و « دائرة المعارف الاسلامية » طبعة ثانية ، ترجمة الافغاني : ص 428 . الا ان انتماء الافغاني وعبده الى الماسونية لم يكن ليسلمهما الى الالحاد والزندقة كما ذهب الى ذلك Elie Kedourie في مجلة : Orient عدد 30 — 1964 . ص : 37 — 46

بالصعيد لمقالات معادية للحكومة نشرت بالأهرام ثم رجع إلى مصر سنة 1880 وأصبح رئيس تحرير الجريدة الرسمية « الوقائع المصرية » واتهم بالمشاركة في ثورة عرابي فنُفي إلى بيروت في ديسمبر 1882 . وبعد مرور سنة تقريبا التحق بالأفغاني في باريس وأصدرا « مجلّة العروة الوثقى » ما بين 13 مارس 1884 و 16 أكتوبر 1884 . وأُرْسِلت المجلّة إلى أعضاء الجمعيّة في العالم الإسلامي وكان من أبرزهم الأمير عبد القادر الجزائري (7) ونخبة من زعماء الإصلاح بتونس سنتحدّث عنهم بعد قليل .

وإن توقف مجلّة « العروة الوثقى » عن الصدور يشكّل نقطة تحوّل جوهريّة في علاقات الأفغاني بعبده ، وحكم رشيد رضا هو عين الصدق في هذا المقام : « فان السيد (الأفغاني) رجل دين وإن غلبت عليه السياسة والشيخ محمد عبده رجل سياسة وإن غلب عليه الدّين » (8) . فلئن كان الهدف واحدا وهو درء التطاول الإستعماري الإنجليزي والفرنسي فان المنهج لتحقيق ذلك كان يختلف عند الزعيمين : فمحمد عبده لم يكن يرى الإصلاح من طريق السياسة — وهو مذهب الأفغاني — بل من طريق تربية الأمّة وتعليمها . لذلك اقترح على الأفغاني — قبيل توقف المجلّة عن الصدور وهما بباريس — هذا الاقتراح : « أن نترك السياسة ونذهب إلى مجهل من مجاهل الأرض ، لا يعرفنا فيه أحد ، نختار من أهله عشرة غلمان أو أكثر من الأذكياء السليمي الفطرة فنربيهم على منهجنا ونوجه وجوههم إلى مقصدنا ، فاذا أتيح لكل واحد منهم تربية عشرة آخرين لا تمضي بضع سنين أخرى إلاّ ولدينا مائة قائد من قوّاد الجهاد في سبيل الإصلاح ومن أمثال هؤلاء يرجى الفلاح . فقال له السيد : « إنّما أنت مثبط » (9) أهـ .

(7) كان الامير عبد القادر الجزائري نفسه ماسونيا فقد انخرط سنة 1864 بمحفل « الشرق الكبير » (الاهرام) مدة مروره بالاسكندرية : ندين بهذا للسيد P. Bertholle عضو المحفل الماسوني بتونس : « قرطاج الجديدة وصلامبو » لما صح العزم على تاسيس محفل ماسوني جديد تحت عنوان « محفل الامير عبد القادر » سنة 1956.

(8) تاريخ 1 : تصدير الكتاب : ص : ن.

(9) تاريخ 1 : ص. 416.

ولم يكن هذا الإقتراح مجرّد أضغاث أحلام ، من قبل عبده ، ذلك أن عمله « بالعروة الوثقى » قد أحكم أواصر الودّ بينه وبين جملة من زعماء الإصلاح في العالم الإسلامي (10) .

فعدا بيروت التي اختار ان يقضي بها مدة نفيه (11) ، كانت تونس ، من بين جميع بلدان الإسلام آنذاك ، استهوته لما ظهر بها من بوارق العمل الإصلاحي الذي كان يذهب اليه . فكانت رحلته الأولى إلى تونس ترمي إلى تدعيم الصلة بين جمعية العروة الوثقى وبين أعضائها من التونسيين (12) .

ب) الأعضاء التونسيون لجمعية العروة الوثقى :

لذلك يجدر بنا أن نحدد علاقة التونسيين بجمعيّة العروة الوثقى وبمجلتها ولقد تجلّت هذه العلاقة بوضوح في زعيمين من زعماء الإصلاح بتونس في الربع الأخير من القرن التاسع عشر هما : بيرم الخامس وتلميذه وعضده الأيمن محمد السنوسي .

1 — **بيرم الخامس** (1840 — 1889) :

محمد بن مصطفى بيرم ، شهر بيرم V ، هو ابن أخي شيخ الإسلام الحنفي بيرم IV ومن مريدي الشيخ محمود قابادو وكان بحكم مزاجه أقرب إلى الأفغاني منه إلى عبده فكان مولعا بالإصلاح السياسي قبل كل شيء

---

(10) لقد كان لمجلة العروة الوثقى بعيد الاثر وابلغ الصدى في نفوس النشء في العالم الاسلامي : راجع رشيد رضا : تاريخ 1 ص . 303 — 305 « كان كل عدد منها كسلك من الكهرباء اتصل بي فاحدث في نفسي من الهزة والانفعال والحرارة والاشتعال ، ما قذف بي من طور الى طور » كذلك كان تاثيرها على الامير شكيب ارسلان .

(11) تاريخ ج 1 : ص 390 — 415 : عمله الاصلاحي في بيروت.

(12) تاريخ 1 : ص 381 . لا شك انه اراد ايضا ان يرى عن كثب سياسة فرنسا نحو احدى مستعمراتها وهو الذي كرس حياته لتقريب الشقة بين الدولتين الاستعماريتين فرنسا وانكلترا وبين الشعوب الاسلامية . راجع : تاريخ 1 : ص 819 — 829 : جمعية التاليف والتقريب بين الاديان وتاريخ 2 : مناظرته مع جبرائيل هانوتو وزير الخارجية السابق بفرنسا ص 400 — 472.

وكان العضد الايمن للجنرال خير الدين فشدّ أزره في إنجاز مشاريعه العظمى كانشاء المدرسة الصادقية وتأسيس الأوقاف وإصلاح التعليم الزيتوني وتنظيم المحاكم الشرعية وانشاء المكتبة الصادقية . وعهد اليه خير الدين بادارة المطبعة الرسميّة وبرئاسة تحرير جريدة الرائد التونسي . كما عهد اليه بمهمّات خطيرة فسافر للتفاوض فيها إلى أوربا مرارا (13) .

ولكن مساعي بيرم V منيت بالفشل وزادت صحته اعتلالاً وتضعضعا فزاد سخطه على الأوضاع بتفكك عرى العصابة الإصلاحية ، بسقوط خير الدين وتخلّيه عن الوزارة الكبرى سنة 1877 فعقد العزم على الهجرة إلى المشرق الإسلامي (14) .

والجدير بالملاحظة هو أن كفاح بيرم V قد اتصل واستمر خارج تونس : فبمجرّد دخوله مصر للمرة الأولى سنة 1879 عمّر الوكر الذي خلا بسفر جمال الدّين الأفغاني إلى الهند ونفي محمد عبده إلى مسقط رأسه بمحلة نصر فاتّصل بيرم V بعين الوسط الذي يحيط بالأفغاني وعبده في حمى الوزير مصطفى رياض .

ولقد اندلعت نيران الثورة العربيّة بمصر بعد أن فارقها بيرم V عقب الأفغاني فلا غرابة ان عين التهمة التي سلطت على الأفغاني بتدبير تلك الثورة قد سلطت على الشيخ محمد بيرم من طرف السلطنة العثمانيّة لما عاد إلى استانبول آتيا من بلاد البلقان سنة 1881 .

---

(13) حيث تعرف بالزعيم الاصلاحي مدحت باشا مؤسس الدستور العثماني والملقب بابي الاحرار. كان ذلك مدة معرض باريس لسنة 1878.

(14) لقد هاجر خير الدين الى الآستانة سنة 1878 . لكن منذ تخليه عن الوزارة الكبرى عمت البلاد موجة من السخط تضاعفت بانتصاب الحماية الفرنسية مما جر جمهورا غفيرا من المصلحين الى الهجرة صحبة عيالهم الى المشرق والى الآستانة خاصة.

ولقد ناصرت مجلة « المنار » لرشيد رضا هذه الهجرة (راجع عدد 37 . السنة الاولى) بينما كانت جريدة « الحاضرة » الجريدة التونسية الشبيهة بالرسمية تعنف اشد تعنيف هذه الهجرة.

ولقد بادر بالخروج من مصر والسفر إلى بيروت حيث أحكم أواصر الودّ بينه وبين « أبي الأحرار » مدحت باشا ثم سافر إلى الآستانة حيث التقى مع العصابة الإصلاحية التونسية المهاجرة وفي مقدّمتها الجنرال خير الدّين وأقام ثمّة عامين وانخرط في جمعيّة العروة الوثقى سنة 1882 (15) .

ثُمّ إنّه استقدم عائلته من تونس وارتحل ثانية إلى مصر حيث أقام حتى وفاته سنة 1889 وكان من جملة مشاريعه تأسيس جريدة اسبوعية ذات نزعة إسلاميّة شاملة : « الإعلام » .

وإذا كان الشيخ بيرم V لم يدركْ جمال الدّين الأفغاني بمصر ولم يتعرّف به أصلاً فانّه يُحتمل كثيرا انّه اتّصل بالشيخ محمد عبده في مصر مدّة إقامته الأولى بها سنة 1879 — 1880 (16) .

لكن الذي لا يحتمل الشك هو أن عبده كان محمّلا عند زورته الأولى لتونس سنة 1884 برسالة خطّية من بيرم V توصي به خيرا إلى الجنرال محمد البكوش ، مستشار الشؤون الخارجيّة بالحكومة التونسيّة (17) .

---

(15) راجع : الشيخ محمد الفاضل بن عاشور : اركان النهضة الادبية بتونس : بيرم الخامس : ص 21 — 27 . مطبعة النجاح . تونس 1965 : راجع صفوة الاعتبار : ج 5 ذيل به ترجمة بيرم 5 . ط . القاهرة 1311 هـ

(16) راجع : Elie Kedourie مجلة Orient عدد 31 . 1964 ص : 98 :
« يقول الشيخ عبده مُسرًا الى بلنت Blunt : لقد سئمت الاقامة بقريتي وسافرت الى الاسكندرية حيث كانت الشرطة تشدد علي الحراسة ، لذلك كنت اذهب خفية الى طنطا حيث اهيم على وجهي (انظر التاريخ السري لبلنت ص 493
Bunt. Secret History
ثم ان عبده استقر بضواحي القاهرة عند رفاعة بك وخرج من هذا الضيق بامر من رياض باشا. » اهـ.

(17) راجع : Jomier Commentaire coranique du Manâr : ص 8.
رغم عديد البحوث لم نعثر على هذه الرسالة.

2 — **محمد السنوسي** (18) : (1812 — 1900)

إذا كان بيرم V المشجّعَ لعبده على هذه الزورة الأولى للبلاد التونسية فان الشيخ محمد السنوسي — وهو من أنشط أعضاء جمعية العروة الوثقى بتونس — قد كان المنظّمَ لهذه الزورة والساهر على توفير نجاحها .

كان محمد بن عثمان السنوسي ، وهو من خريجي جامع الزيتونة ، من أخصّ أعضاد بيرم V فكان ، بحكم هذا الودّ ، كاتبا بادارة الأوقاف ومحررا بجريدة الرائد التونسي وهما مؤسستان كان يشرف عليهما بيرم V . ولما انفصل خير الدّين عن الحكم التهبت في نفس محمد السنوسي حميّة الحماس فاندفعت به إلى إظهار شخصيته وأقبل على المؤسستين اللتيْن بين يديه يعض عليهما بالنواجذ ويَذُبَ عنهما ورجا أن يجد من الوزير الجديد مصطفى بن اسماعيل عونا على تنفيذ مبادئه الإصلاحية ولكن هذا الطريق لم ينته به إلى الغاية التي أمل تحقيقها من وراء ذلك الإنتماء السياسي إلى ابن اسماعيل وكما شعر بيرم V بالخيبة وهجر البلاد فقد شعر محمد السنوسي بنفس الشعور فتخلى عن مناصبه الإداريّة وشدّ الرحال لهجرة طويلة كانت موضوع أثر تاريخي هامّ : « الرحلة الحجازيّة » (19) .

فخرج من تونس سنة 1882 وقصد إيطاليا ثم الآستانة حيث اتّصل برجال العصابة الإصلاحيّة التونسية مثل خير الدّين ورستم ومحمد العربي زرّوق

(18) راجع ترجمته : الفاضل بن عاشور : اركان النهضة الادبية بتونس ص 28 — 33.
محمد النيفر : عنوان الاريب : ج 3. ص 145 — 153. طبعة تونس. 1932.
محمد مخلوف : شجرة النور الزكية في طبقات المالكية . ج 1 . ص 416 — 417 . طبعة القاهرة 1931.

(19) مخطوط بالخلدونية : عدد 3346 . في ثلاثة اجزاء ، ح : 24 × 16.
الجزء 1 : ص 1 — 181 : ايطاليا.
الجزء 2 : ص 1 — 279 : تركيا . الحجاز. سوريا. لبنان.
الجزء 3 : ص 1 — 259 : تراجم الرجال الذين اتصل بهم السنوسي.
هذا وللشيخ محمد السنوسي آثار ادبية كثيرة مطبوعة نذكر أهمها :
مسامرات الظريف بحسن التعريف : تاريخ فقهاء الدولة الحسينية بتونس المحمية طبعة تونس:
مجمع الدواوين : مخطوط لم يطبع منه الا جزآن متعلقان بالشاعر قابادو . تونس : المطبعة الرسمية
مطلع الدرارى في توجيه الشرع على القانون العقارى : تونس 1887 — 1888
الاستطلاعات الباريسية : تونس . المطبعة الرسمية 1871

وكان مأواه في استانبول كمأوى أولائك السادة من قبله إلى ظل السيد محمد ظافر بن السيد محمد المدني المسراتي وهو معتقد السلطان عبد الحميد وصفيّة ونجيّه (20) . ومن الآستانة إلى جدّة حيث أدى فريضة الحج وتمكن مدّة إقامته بالحرمين الشريفين من معرفة اعلام من علماء الإسلام ومن المدينة رحل إلى دمشق حيث اجتمع بالأمير عبد القادر الجزائري وكان تقدّم اليه بمكتوب من بيرم V وكانت مدينة بيروت خاتمة المطاف .

ولما رجع إلى تونس التحق بوظيفه الاداري الذي كان تخلى عنه بالأوقاف والجدير بالملاحظة ان الشيخ محمد السنوسي بعد رحلته واستقراره بتونس اصبح زعيم العصابة الإصلاحيّة التونسيّة باطلاق (21) والدّاعي الأوّل لمجلّة العروة الوثقى وجمعيتها .

ونحن نثبت هنا النصّ الكامل لرسالة (22) بعث بها الشيخ محمد السنوسي إلى الشيخ محمد عبده عند صدور الأعداد الأولى من مجلّة العروة الوثقى وهي وإن كانت رسالة تقريظ فهي شاهد بليغ ولسان حال العصابة الإصلاحية التونسية بعيد انفصال خير الدين عن الحكم وغداة انتصاب الحماية بتونس ، إلى ما لها من قيمة فنّية أدبيّة :

(وعند ما وصلتنا إلى الحاضرة التونسيّة (أي مجلّة العروة الوثقى) كتبتُ في ذلك بما يوافق الغرض وهذا نصّ ما كتبتّه) :

« ما ذا يقول لسان أمّة فؤادها عليل . قد منيت أطوارها بالتبديل ، وتلاشت منها القوى ، وعظم بها الوجى ، فأصبحت رهينة آلام ، أوهت منها قوّة الإعتصام ، تطرف حدقاتها إلى نيل العز القديم ، [ص 182] مستكفة نحو شاحط ما شخص من ذلك الأديم ، لا تستطيع اليه نهوضا ، وقد رأت حبل اعتصامها منقوضا ، فعزّ دواؤها ، واحاط بها اعداؤها ، وعدمت

(20) الرحلة الحجازية : مخطوط : ص 279

(21) لقد كان له اتصال متين بالقصر الملكي والعائلة المالكة : فهو استاذ الامير الشاب الناصر باي راجع سلافة العناصر بمفاخر الملك الناصر لمحسن زكريا : ص . 49 تونس 1913 .

(22) مخطوط الرحلة الحجازية المذكور : ص . 181 ـ 186 .

النطاسـي الماهر ، الذي تحتاجه للإبقاء على ما بقـي لها في الظاهر ، وتطامحت اليه اعناق الأطماع ، وامتدت لها الأعين بجميـع وجوه الاستطلاع . هـذا وولاتها افضوا بجنوبهم الى فرش الارتياح ، بما يبعدون به عن موجبات حمل السلاح ، اخلادا لما ينقص به ممالكهم من اطرافها ، ويضع من نفوس اشرافها فاناطوا حبل رجائهم بايدي الأعداء ، واعتاضوا الادواء من الدوا ، وخانهـم الامل ، وضعف العمل ، فاصبحوا وساء صباح المنذَرين ، تنتهشهم مخالب ليوث العرين ، فالرأس فيه واضحه ، والجوارح اصابتها جارحه ، وبقية الجسد بين جائفة ومرضوضة ، ونفس متـأوهة ودموع مفضوضة ، لا يعرب عن ألم فؤادهم ، لسان ملوكهم وقوادهـم ، إلاّ بمـا يضـاعف عليهـم الويـل ، ويجلب عليهم السيْل ، إلى حيث صاروا أخرس من جماد ، واذلّ من منفرد الأوتاد ، اقترضوا الأموال فاستعبدهم أرباب الديون (23) وعدموا منافع ثروتهم في السهول والحزون ، وأخلدوا إلى الملـذات ، فبـدلت حسناتهـم بالسيّـئـات ، وأضاعوا جميـع موجبات الإرهاب ، من الاستعداد الذي جاء به الكتـاب ، فاستضعفهم أولو القوّة بما يقضـي بالعجب العجاب ، وأخلطـوا سيـاسة الدين بسياسات القوم الآخرين ، فاصبحوا عن كلا الطريقيْن متنكبين ، وسقوا نشأة أبنائهـم ، بمـاء التعليمـات التـي ليست من مائهـم ، فقذفـوا من عروقهـم زُعاقا (24) ، وأدخلوا به على أهل ملتهم تفرقا وشـِقاقا ، وتلون أولو الأمر في أثواب ليست من زيهم ، فزادوا في الأمّة غيّا على غيّهم ، واضطرّوا إلى أطوار جلبت عليهم الأغيار [ص : 183] والأكدار ، بالإحتياج إلى الحماة والنظّار(25) في أكثر الاصقاع والأمصار ، فاستسهلوا إضاعـة الأمّـة ، واستسلموا لقيادة

---

(23) يشير الى تفاقم الديون وعجز الميزان التونسي وانتصاب الكوميسيون المـالي في عهد وزارة مصطفى خزنة دار (1853 – 1873) : راجع ابن ابي الضياف : تاريخ ج 5 ص 73 – 140. تونس 1964 راجع ايضا : l'Etat Tunisien et le Protectorat Français. E. Fitoussi et A. Benazet. T. I. p. 91-99. Paris 1931.

(24) الزعاق : المـاء المر لا يطاق شربـه

(25) يشير الى انتصاب الحمايـة سنة 1881.

الأعشى في ليلة مدلهمّة ، إلى أن أصبحوا طعمة للطامعين ، ومطعنا للطاعنين ، لا يذكرهم الذّاكرون إلاّ بما لهم لمذمته لا ينكرون ، ولا نجد لهذا الدّاء من علاج ، ولا مغلق ذلك الباب من انفراج ، ويا طالما سمعنا من وراء الحجاب ، صكة مستفتح من منشيء الصحايف العربيّة من ذوي الآداب فيكشف الغيب على أنها جعجعة ليس فيها طحين من طعام ، وما هي إلاّ ما نسمّيه للمصيك (26) الكلام ، فيبتدؤونها بالتوجيه وزخاريف الكلام ويجعلونها مصايد لحطام الأموال ولا يلبثون ان تذهب ريحهم ، ويخرس فصيحهم ، فلا يعود يسمع نبيحهم ، وتلك شنشنة سقطت بها همم أربابها ، واجتنوا ثمرة مذمتها وعتابها ، كيف والأمّة العربيّة في هذا الزمان ، محتاجة إلى لسان ، يعرب عن الدّاء الذي تكنه في الجنان ، وينقذها من الإنقياد إلى العميان ، بل انها اليد أحوج من حاجتها إلى الماء والهوا ، إذا لم تجد بدونه متنفسا ولا مساغا للارتوا ، حتى أتاح هذا الدهر بصاحب العِرض الأنقى ، هذا الهاتف الذي صدع للأمّة باسم العروة الوُثقى :

لئن دجت الأحلاك بالغيهب الأبقى وضلت حلوم بعد ان طرقت طرقا
فقد وضح الصبح الذي بان عندما أنيط جمال الدين بالعروة الوثقى (27)

العروة الوثقى لا انفصام لها ، والمشرب الأنقى تبلغ به الأمّة أملها ، ناهيك به من عروة يتمسك بها أهل الهُدَى ، ويتقون بها الردى ، وينيطون بها أمل الحياة فلا يذهب سعيهم سُدَى ، قد إرتجفت لرجفه [ص : 184] اصقاع الإسلام واحتجت لمقدماته العقلية فصحاء الأعلام ، ولو أن أهل النها من رجال السياسة ، راعوا أشكاله وقياسه ، لما وقع على انفسهم منفعَة الصحبة والإقتراب ولكن لله فينا علم غيب والكل إليه صائر، يستوي في مآله جازع وصابر ، أما نحلة النصائح التي أصبحت بين الأمّة موروذة ، وكشفت عليها

(26) هكذا في النص

(27) البحر الطويل.

بفصاحة منشيها المعهودة ، فهـي الصبغة التـي لم يبلغ إليها سواه ، وعقلـه المستوفز (؟) إذا أراد أن يطيب بمدحها قلمه وفاه ، إيه ويا لها من طريق إهتداء في مجاري السياسات ، التـي تنـكبها أهل الرياسات ، أعذب في اللسان من المراشف ، وأطرب للأسماع من نغمات المعازف ، وأروق للأبصار ، مـن محيا وسيم زانه العذار ، ومن مخضل النبـات المـكسوّ بجميل الأخضرار ، ما شيت من أصـول العمران ، وقواعد تمـدّن نوع الإنسان ، وتنبيه الغافلين من أهل الحضارة في البلدان ، وجمع كلمة أهل الإيمان ، بما يتحدون به للتعاون على مدافعة ذوي العدوان ، وما شيت من تحذير وانذار ، يقع موقع الاعتبار ، من نفوس أهل الإستبصار ، في قوالب شتّى لا ترى فيها عوجـا ولا أمتـا وما هو إلاّ طـور في البلاغـة عزيـز ، يفوق على خـالص الإبريز ، [خلديـه منشوه لنفسه ما خلـده الأحزمون] (28) ، وبزّ لحسن موقعه ما الحم نسجه ابن خلدون ، فجاء نسيـج وحده في كلّ غرض ، يفـي للمقصد بالمسنون والمفترض ، نسج على أبـدع منوال ، ممن استولى على قصب السبق من أهل الـكمال ولعمري إن صحيفـة **محرّرهـا الأوّل الشيـخ محمد عبـده ومديرها السياسـي الشيـخ جمـال الـدين الأفغانـي** ، لحريّة بأن تـكون أصل أصول جميـع المبانـي ، [ص : 185] يتجبر بها الصـّدْع ، ويجمل بها الصنع فهما ما هما وما أدراك ما هما ، دَفْعُهُـما بـكل خير قد هـَمـَا ، ونفعهما قد عمّ من تحت السمـا ، ولذلك برزت من بين يديها عروس الإنشاء والفصاحة ، تختال بحسن الرّجاحة ، وتنشر في أصقاع العالم من آيات جمالها كل ملاحة ، وماذا عسى أن يقول القاصر فيها ، والذى ملأ الأرض يكفيها ، جاءت بالسحر الحلال فراق موقعها عند أهل الـكمال ، فحيـّاكما الله يـا مـُحييا ميت الغيرة والحميّة ، وأدام تعاضدكمـا لـِمـَا يثمر خير المصالح العموميّة ، قد أطلعني من نتيمّن من طليعته بالإقبال ، على ثلاثة الأعداد الأوّل من هاته الصحيفة التي جاءت بغاية الآمال ، بعد أن امتلأت

---

(28) هكـذا في النص.

أسماعي بالثناء عليها ، ممن تخيرتموه كفؤا إليها ، فاذا مخبرها فاق الخبر ، وشتان بين العين والأثر ، سيما وقد جاءت طبق ما يخالج الصدر من أماني النفوس ، حتى قلت بعد مطالعتها لا عطر بعد عروس ، ورفضت لإقبالها ما سواها ، ممّا لم تبلغ به الأمنيّة مناها ، وحدّثتني النفس ، في ليلة أمس ، أن نكون لكم مساعدا بجهد المستطيع ، وإن لم يدرك الطالع شأو الضّليع ، إذ كثيرا ما نجد من حديث النفس مقدّمات من تلك الأشكال ، ولم نجد لها موقعا من مواقع الحال ، حتى إذا رأيت آيتكم الكاملة ، اشرأب لها ما في الأفكار الخاملة ، فبادرت لكتب هذا المقال ، عسى أن يكون وصلة وصال ، تنشر في تلك الصفحات ، مع الصفح عمّا يقتضيه استعجال البريد وتزاحم الأوقات نسأل الله أن يديم هذا الصنع الحسن ، منفعة عامّة إلى كلّ أبناء وطن ، وأن يجعله سعيا مقرونا بالنجاح ، وأملا موصولا باليمن والفلاح [ص : 186] ، وأن يكثر من أمثالكم في الأفراد ، ونرجو أن لا تقطعوا عنّا كلّ ما يصدر من الأعداد ، والسلام من العبد الضعيف **محمد السنوسي** الشريف خادم العلم الشريف . وفّقه الله . » أهـ .

ج) إقامة الشيخ عبده الأولى بتونس :

لعلّ مخطوط الرحلة الحجازية هو المصدر الوحيد الذي يخبر عن زيارة عبده الأولى لتونس (29) : فالرّائد التونسي – الصحيفة الرسميّة – لم يذكر شيئا عن هذه الزّورة . والصحافة العربيّة لم تظهر بعد بتونس ذلك أن أمر 14 اكتوبر 1884 الذي وظّف ضمانا ماليا مُرْهِقا كان سدّا منيعا في وجه أيّة

---

(29) راجع : الشيخ محمد الفاضل بن عاشور : الحركة الادبية والفكرية في تونس : ص 42 – 44 طبعة القاهرة : 1956

: محسن زكريا : سلافة العناصر : ص . 49 – 57 . طبعة تونس . 1913

محاولة لاصدار صحيفة باللسان العربي (30) . **لذلك رأينا أن نثبت على علاّته خبر الشيخ محمد السنوسي الوارد في الجزء الثالث من رحلته الحجازية :**

« لما أصاب أهلها [باريس] مرض الكوليرا خرج مصفف أحرف الصحيفة فعطلت وانتهز الشيخ محمد عبده فرصة ذلك لدخول تونس فدخلها في التاسع عشر من صفر الخير [6 ديسمبر 1884] وتلقّاه الأمير علي باشا باي [1881 — 1902] في باردو وزار [ص : 187] ولي العهد بسانيته بالمرسى واستضافه الأخوان سيدي حسين باي وسيدي الناصر باي كما استضافه بالحاضرة كثير من أعيان العلماء وحضر عندي ليلة الاربعاء السادس والعشرين من صفر الخير [13 ديسمبر 1884] 1302 إثنتين وثلاثمائة والف واسترسل اجتماعنا به إلى أن قضى موسم المولد الشريف وسافر يوم الأحد السابع عشر من ربيع الأوّل قاصدا التوجه على طريق مالطه ونابلي ثم إلى باريس ورأينا منه أثناء ذلك تفوق الفكر وفصاحة اللّسان وكمال الرواية واستحضار المسائل من العلوم العقلية ما تطابق المخبر والخبر ، واغنى بالعيان عن البيان ، مع ما له من الدهاء والتحنك بالتجارب

ومن عجيب أمثاله انّه أخبرنا عن بعض العلماء أنّه لما اجتمع به فاتحه في مسائل سياسية فجرى معه في ميدانها وبعد إنفصال المجلس بلغه أن الشيخ أخذ يخبر بعض مجالسيه بخبر المجلس ويتنصّل من موضوعه . ثم نقل لنا عن الشيخ جمال الدين قصّة القاعاني وهي أنّه كان راكبا في بعض الليالي على حصان له في ليلة ماطرة مظلمة على سفح جبل وكان يسير الهوينا خوفا من الوقوع فضرط الحصان ثم لما سمع صوت ضراطه خاف منه فنكس ومن شدّة خوفه أعاد الضراط وأعاد التنكيس واشتدّ خوف راكبه كلما زاد ضرطا فجعل يخاطبه بشعر من الفارسي معناه : « يا حصان ان كنت تخاف من

---

(30) ظهرت الصحف العربية الاولى كالحاضرة (1888) والزهرة (1890) بعد اسقاط الضمان المالي سنة 1887 .

ضراطك لماذا تضرط ؟ وإن كنت ضارطا لماذا تخاف من ضراتك ؟ » . ثم قال لنا : « ان مثل هذا الشيخ وحصان القاعاني سواء ، يضرط ويخاف [ص : 188] من ضراطه » . ولعمري ان بلاغة هذا المثل هي أجلّ موقعا في كثير من أحوال من نراهم ومع هاته المزايا التي رأينا عليها الرجل كان في غاية لطف الأخلاق والأداب والخبرة بأحوال السياسة الحاضرة وبذلك كانت جملة المجالس التي قضيناها معه في أخبار الحوادث الحاضرة مع ما يستحضره لها من الأخبار التاريخية حتى أن المرفع الحازم سيدي محمّد الناصر باي (31) لما سمع منه أسرار الحوادث المصريّة كلفه ان يحرّرها على الوجه الإجمالي بما يعلم به سرّ ما هي عليه ممّا يعدّ من عجائب الحوادث وهكذا كنا نسأله عن غيرها من الحوادث فيجيب أحسن إجابة » . أهـ .

د) أصداء الزورة الأولى :

1 — أولى الحركات القومية غداة انتصاب الحماية :

لئن مكنت هذه الزورة الأولى المصلح المصري من تدعيم الروابط بينه وبين العصابة الإصلاحية التونسية فانها اكتست بطابع التحفظ والتستّر : ذلك أن الشيخ عبده رغم اتصاله بالباي وبأعضاء اسرته وبالنخبة الإصلاحية فانّه تحاشى مضايقة السلط الفرنسية بالظهور والخطب على المنابر . إلاّ أنّ ذلك لم يمنعه من الخوض في شؤون « السياسة الحاضرة » كما يقول السنوسي ، وخاصّة ما حدث بمصر من ثورة عرابي ، ممّا يدفعنا إلى الاعتقاد — ومراسلته للتونسيين عـَقـِبَ زورته الأولى تشهد على ذلك — بانّ هنالك علاقة متينة (32)

(31) تولى العرش من 1906 الى 1921

(32) راجع الشيخ محمد الفاضل بن عاشور : الحركة الادبية (المرجع نفسه) : ص 44 :
« وخلا (الشيخ عبده) في مجالس متواصلة باعضاء العروة الوثقى ، في بيت الشيخ محمد السنوسي وتطلع حول الشكاوى والآلام من سوء حالة البلاد الاسلامية وتناولت احاديثهم ما بدا يفيض على مدينة تونس ، فيثير سخطها ونفورها من النظم البلدية الجافية للدين ، العابثة بالتقاليد ، وقد بدا القلق يظهر على البلديين من جرائها ولم تمض على سفر الشيخ محمد عبده شهور عديدة حتى ظهرت في مدينة تونس حركة احتجاجية هائلة ارغمت الحكومة على الرجوع في مقرراتها وعلى تنقيح نظم البلدية ومجالسها . »

بين هذه الزورة الأولى واندلاع نيران حركة احتجاجيّة هائلة هي أولى الحركات القوميّة عقب انتصاب الحماية .

والجدير بالملاحظة أن عصابة الإصلاح وفي مقدّمتها الشيخ محمد السنوسي هي التي تزعّمت هذه الحركة ودبّرت خطوطها وحررت لوائحها وأمضت عليها وفاوضت أولى الأمر فيها كما انصب عليها — وعليها وحدها — سوط العذاب والعقاب من عزل وإقالة ونفي وإبعاد .

ولقد عقد الشيخ محمد السنوسي تأليفا في تاريخ هذه الحركة القومية يعتبر من أهمّ الوثائق (33) ، أسماه « خلاصة النازلة التونسية » ونظرا لطوله ، سنقتضب منه فقرات مقتصرين على الإشارة والتلميح دون الإطالة والتفصيل.

[ص : 27] « اعلم أن السبب الوحيد في هيجان التونسيين واجتماعهم انّما هو صدور الرّائد التونسي صبيحة يوم الخميس السادس عشر من جمادى الأولى سنة إثنتين وثلاثمائة والف [2 افريل 1885] متضمنا **قانون المجلس البلدي** وفي ضمنه وصايا دفن الأموات وتثقيل في استخلاص متأخّرات خروبة الأملاك ومعلوم النظافة وأداء الطرقات مع ما سبقه من تغيير أثمان ماء زغوان إلى ما سلب حقوق مالكيه ونوازل أخرى كدرت على الأهالي فتجمّعوا في يومي الخميس والجمعة وأجمعوا على مقابلة الباي في المرسى للشكاية مما صدر به أمره وجاء تخفيفه بناء على إذن الدولة للأهالي بأنّ ما يصدر به من الأحكام إنما يلزم الامتثال لمقتضاه بعد انقضاء الاجال المعينة » .

ويواصل السنوسي مبينا أن هذه الأجال التي يمكن فيها للعامة مراجعة الأوامر العلية هي ثلاثة أيام ثم يقول :

(33) الشيخ محمد السنوسي : خلاصة النازلة التونسية . مخطوط بالخلدونية عدد 3446 . يقع في 130 صفحة . (ح : 35 16) وبه في اوله قصيدة في المخترعات الجديدة (من 1 الى 26) راجع ايضا في هذه القضية : Honoré Pontois « Les Odeurs de Tunis ». p. 273-330. Paris 1889.

« ... لذلك أجمع رأي خاصة الأهالي فحرروا مكتوبين [ص : 28] بقلم العدل المسن الموثق الفرضي الشيخ عثمان كشك أحدهما مخاطبا به شخص الباي يعلمونه فيه بأنهم وافدون على المرسى بعد زوال يوم السبت بأربع ساعات لعرض شكاية وقد أبلغه التاجر علالة ثامر إلى الباي صبيحة اليوم حين كان بمحطة الشمندفير راكبا إلى باردو وقبله الباي بسرور والمكتوب الثاني فمضمونه وجهوه إلى الوزارة للاعلام الرسمي وعندما علم الناس قبول الباي لأشخاصهم افترقوا أحزابا في تشكيل الشكاية واختلفت مسالكهم فمنهم من اشتط في التعرض لأصول دولية وأكثرهم على الاقتصار على عرض شكاية في خصوص الجزئيات العارضة مع شرح بعض أحوال حلت بالبلاد وتعاطوا تصوير الشكاية كل على حسبه ثم ما كان منهم إلا أنهم تحروا لتحرير ما يكتبونه **بتكليفي بذلك** وأتاني الشيخ الحاج محمد الرياحي مقدم طريقة التيجانية وعضو جمعية الأوقاف ببطاقة استدعاء بخط أمين العطارين الحاج حمده الجبالي أمضى معه فيها بعض قرنائه من المتحركين » .

ويواصل الشيخ محمد السنوسي سرد هذه الحوادث :

« وحررتُ لهم معروضا قرأتُه عليهم عند الزوال في مقصورة النواورية بجامع الزيتونة واقترحوا زيادات زدناها وعينوا كاتبا نسخه واجمعوا على **أني أتولى قراءته على شخص الباي** ولما حضرنا للركوب إلى المرسى بعد الزوال بثلاث ساعات وجدت محط سكة الحديد غاصا بالأعيان ينتظرونني مع التزام جميعهم بالإقتصار على المعروض المذكور فكان أول كلمة اجتمعوا عليها وصححه أعيان منهم بعد أن أعادوا قراءته ولما وصلوا إلى المرسى توجهوا لسانية الوزير (34) وطلبوا منه أن يصاحبهم وبعد امتناعه طلب الإطلاع على المعروض فأرسلوا لي وقرأتُه عليه وبعد مراجعات توجه معهم وكان الباي في الانتظار على حسب المكتوب الذي قبله منهم فأحسن قبولهم وسمع مني معروضهم

(34) محمد العزيز بوعتور.

وبكى لبكائهم وقال « **الحق إني أولى منكم بالبكاء** » وظهر عليه أسف عجز لا مقدرة معه ووعد الوفد بالاجابة على يد وزيره وسلمه له فشكروا وآبوا ينتظرون الفرج . وهذا نصّ المعروض المذكور [ص : 28 — 32] .

وقد أثبت السنوسي قائمة بأسماء الممضين على هذا المعروض وهم من أبرز أعيان العاصمة . ويواصل قائلا :

« ثمّ من الغد أجمعوا على كتابة ما حصل وتوجيهه رسميًّا إلى الوزارة فكتبتُ لهم مكتوبا أمضاه من حضر من الخاصّة وهذا نصّه.... » وأثبت في ذيل هذا المكتوب أسماء مئات من الممضين من أبرز عناصر الإصلاح وأعضاء جمعيّة العروة الوثقى نذكر من بينهم :

— المدرس الشيخ محمد النجّار (35) .
— المدرس الشيخ سالم بوحاجب (36) .
— المدرس الشيخ أحمد الورتاني (37) .
— المدرس الشيخ الطاهر جعفر (38) .
— السيد حسونة بن مصطفى (39) .

ويتحدّث الكاتب بعد ذلك عن اعتراض المقيم العام لفرنسا بول كامبون Paul Cambon على الباي في قبوله المتظاهرين وإظهار المشاركة معهم (40)

(35) **محمد مخلوف** : شجرة النور الزكية . ج 1 ص . 421 ، 423 . طبعة القاهرة : 1350 هـ

(36) شجرة النور (نفس المرجع) ج 1 . ص 426 . 428

(37) شجرة النور (نفس المرجع) ج 1 . ص 413 .

(38) مدرس بجامع الزيتونة

(39) وكيل الغابة كان من زعماء الحركة الاحتجاجية سنة 1885 وابعد الى الكاف . ابنه خير الله بن مصطفى وحفيده الشاذلي خير الله وكلاهما لعب دورا هاما في تاريخ الحركة الاصلاحية فيما بعد .

(40) لا شك ان موجة الغضب كانت موجهة نحو شخص المقيم العام اذ هو الذي حمل **الباي** على اصدار امر 17 نوفمبر 1884 القاضي برفع سعر المياه بنسبة 0/0 60 ستين في المائة ولما صدر الامر الثاني في 2 افريل 1885 القاضي بتطبيق الامر **السابق امتنعت اغلبية الاهالي** عن امضاء العقود الجديدة مع شركة المياه فقطعت هذه عنهم الماء وكانت موجة الاحتجاج يوم السبت 4 افريل 1885 .

ولئن تراجع المقيم العامّ الفرنسي في بعض مقرّراته فانّه انصرف إلى رؤوس الحركة فصبّ عليهم وابل الغضب والإنتقام وصدر يوم 21 ماي 1885 أمر بالرّايد الرّسمي يقضي بعزل محمد السنوسي عن وظيفه وإبعاده إلى قابس في الجنوب التونسي وعزل المدرّس الشيخ أحمد الورتاني رئيس الأوقاف وإبعاده أيضا إلى قابس وعزل حسونة بن مصطفى وكيل الأوقاف وإبعاده إلى الكـاف .

وبقي الشيخ محمد السنوسي مبعدا ما يزيد على ثلاثة أشهر .

2 — المراسلات بين الشيخ عبده والعصابة الإصلاحيّة التونسية عَقِبَ هذه الحركة القوميّة الأولى :

إنّ رَسائل الشيخ عبده عقب زورته الأولى لتونس الموجّهة لزعماء الإصلاح التونسيين لا تدع مجالا للشكّ فهو تتبّع تطوّر الأحداث عن كثب وأظهر من المناصرة لمن حلت بهم النكبة ما تشهد به هذه الرسائل (41) . فليراجعها الباحث في الجزء الثاني من تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا وإنما نحن نكتفي بتوضيح مُعَمَّاها (42) ذلك أن الشيخ عبده لم يذكر أسماء مراسليه تحرِيّا واحترازا وتَقِيّة إذ كانت جمعية العروة الوثقى سريّة يخشى أن يَلحق أعضاءها أذى أو إضطهاد من قبل السلط الحاكمة ببلدانهم .

ففي الرسالة (عدد 11 ص 560 . تاريخ II بتاريخ 15 الحجة 1302 / 25 سبتمبر 1885) الموجهة إلى الشاذلي بن فرحات (43) وهو من أبرز أعضاء العروة الوثقى وأخصّ أصفياء الشيخ محمد السنوسي ، يشير الشيخ عبده

---

(41) انظر : تاريخ 2 : ص 560 . 564 . رسائل عدد II ، I2 و I4.

(42) ندين بالفضل في ذلك للشيخ محمد الفاضل ابن عاشور عميد كلية اصول الدين ومفتي الديار التونسة

(43) يرمز اليه بـ : رش ي) وهو الحرف الاول والاخير من « الشاذلي » . كان الشاذلي بن فرحات عاملا بالكاف .

إلى هذه الحركة القوميّة قائلا : « أمّا حادثة الشيخ (44) فقد مسنا منها ما مسّه ، ولم يكن ما وجدنا منه أقل ما وجده ولم يغب عنا شيء من أطرافها . وقد جهدنا فيها ما استطعنا ، وربّما رأيتم أو سمعتم بما أطالت به جرائد باريز (45) في المدافعة عن الشيخين (46) وتعنيف الحكومة على ما فعلت » .

وفي الرسالة (عدد 12 ص 562 (نفس المرجع) بتاريخ 22 ربيع الأوّل 30/1303 نوفمبر 1885) يرثي لموت الشيخ (احمد الورتاني) : « اشتدّ أسفي على فقد الشيخ الصالح أوسع الله من رحمته ونفعنا بطيب نيته أسفا على فقد حميّ لدينه ، مخلص في يقينه » .

ثم يواصل الشيخ عبده قائلا : « أمّا ما ذكرت عن الشيخ الصغير [محمد السنوسي] فقد كان كتابك السابق يشير إلى رغبة منك في تعليق الأمر بك على أنّه لو لم يكن فيه مثل ذلك لما أخطأت الظنّ فيما كلفتك ولم أستَسْمِن ذا ورم ، بل على المليء به سقطت ، وإن ظني بك لفوق ما تروي عن نفسك ، ولكن دع عنك ما استصعبت من الأمر » .

ثانيا — الزورة الثانية :

1 — جبهة الخلدونيّين والصّادقيّين :

واستمر الاتصال وثيقا بين الشيخ عبده في منفاه في بيروت وإبّان رجوعه إلى مصر — وبين زعماء الإصلاح بتونس ، لا همّ لهم إلاّ الإصلاح الاجتماعي والدّيني .

---

(44) الشيخ احمد الورتاني المدرس ورئيس الاوقاف وعضو جمعية العروة الوثقى .

(45) « لما راى المصلحون التونسيون ان مساعيهم باءت بالفشل . كونوا لهم هيئة معارضة ورجوا الصحافة الدفاع عنهم : وقد لبت الصحافة المحلية والصحافة الباريسية ومن بينها La Lanterne هذا الرجاء . انظر La Lanterne عدد 2 اوت 1885 » نفس المرجع : Henri Pontois

(46) الشيخان احمد الورتاني ومحمد السنوسي

وكان أغلب المصلحين التونسيين من خريجي الزيتونة والمدرسة الحربيّة من جهة ومن أشهر العائلات بالحاضرة التونسية ومن أعلق النّاس بالوظيف العمومي من جهة أخرى فاعتمدوا المسالمة والتحفظ ولم يجنحوا إلى العنف حتى لا يقالوا عن وظائفهم الإداريّة . وانضمّ إلى هؤلاء عنصر جديد ، التحق هو أيضا بالوظيف العمومي ، وهم قدماء الصّادقية الذين أتمّوا دراستهم بجامعات فرنسا وعمل جميعهم على مواصلة السير في طريق خير الدّين وقابادو فتكون من التئام العنصرين جبهة منيعة تزعمها رجلان من أخطر رجالات الإصلاح بتونس : الشيخ سالم بوحاجب (47) ، رئيس العصابة الزيتونية والبشير صفر (48) ، رئيس الصادقيين .

أ) جريدة الحاضرة :

فلمّا تألّفت كتلة رجال النهضة ، بانضمام العنصر الصادقي إلى النخبة الزيتونية وخريجي المدرسة الحربية ، أحسّت تلك الكتلة بأنّها في حالة عزلة لا تسمح لصوتها بالإمتداد ، إذا هي صدعت بدعوتها فعاودت بالذكرى فترة عملها المنصرمة قبل الاحتلال أيّام كانت جريدة الرّائد التونسي بيدها ، تشيع أفكارها وصححت العزم على أن لا طريق لاستعادة العمل المنقطع إلاّ بتأسيس صحيفة تتجدّد بها الدّعوة فتأسست جريدة أسبوعية « الحاضرة » (49) صدر العدد الأول منها في الثامن والعشرين من أوت سنة 1888 وإذا أنيطت مهامّ الإدارة إلى علي بوشوشة . فان الجبهة المتألفة من النخبة الإصلاحيّة

(47) الحركة الادبية : نفس المرجع . ص 41 ـ 80 واركان النهضة : نفس المؤلف والمرجع : ص . 16 ـ 20 شجرة النور الزكية : لمحمد مخلوف : (نفس المرجع) . ج 1 ص 426 ـ 428

(48) عن البشير صفر : انظر اركان النهضة : ص . 34 ـ 38

(49) لقد كان الوزير المقيم العام الفرنسي Roustan مناهضا لظهور صحافة باللسان العربي . ولما خلفه بول كامبون P. Cambon اثقل كاهل الصحافة بالضمان المالي سنة 1884 فلم تظهر اية صحيفة باللسان العربي ، عدا الرائد الذى استمر على الصدور منذ 1860 . وفي عهد الوزير المقيم الثالث ماسيكو Massicault الغى الضمان المالي سنة 1887 فظهرت جملة صحائف عربية كالحاضرة ونتائج الاخبار والزهرة ...

جعلت منها منبرا تصدع من أعلاه بدعوتها . ولم تمض سنتان على إصدار الحاضرة حتى ظهرت جريدة ثانية باللسان العربي « الزهرة » (50) تؤازرها وتدعو إلى الإصلاح وإن كانت إلى التطرّف ومهاجمة الحكومة أقرب ، بينما كانت الحاضرة بمجاملة السلط الحكومية وبالاعتدال أعلق :

ب) **الخلدونية** :

واتجهت الأنظار إلى المبدإ الذي قامت عليه أسس الدعوة الإصلاحيّة من عهد قابادو وهو إدخال لقاح العلوم الكونيّة والرّياضيّة على الثقافة الإسلاميّة . خصوصا وإن ما وقع بمصر من إدخال تلك العلوم في مناهج التعليم بالأزهر ، بسعي الشيخ محمد عبده (51) كان مثالا جديرا بالاقتداء . ثم إنّ المقيم العامّ الفرنسي René Millet الجديد كان سلك سياسة التآلف والتقارب بين العرب وفرنسا ، ممّا شجّع عصابة الإصلاح بتونس على انشاء مؤسسة خطيرة سنة 1896 وهي « الجمعية الخلدونيّة » للعمل على بثّ العلوم العصريّة باللّغة العربيّة ، سدّا للثغرّة التي كانت في تعليم جامع الزيتونة .

وسرت في جامع الزيتونة هذه الروح الجديدة (l'esprit nouveau) ممّا دفع بأولي الأمر إلى النظر في تحوير نظام التعليم بالمعهد الزيتوني واعتبار المدرسة الخلدونية مدرسة حرّة يعهد إليها بتهيئة الطلبة الزيتونيين .

ولئن أولى المصلحون التونسيون قضية التعليم كلّ الاهتمام فانّهم م فتئوا ، إلى جانب هذا الجهاد ، يجاهدون من أجل قضيّة ثانية لا تقلّ أهميّة عن الأولى وهي الإصلاح الدّيني وتصفية الإسلام ممّا علق به من ادران التقليد والجمود .

---

(50) اصدر الزهرة سنة 890 محمد الصنادلي وهو تلميذ لبيرم 5 . وعطلت جريدته موقتا سنة 1896

(51) تاريخ 1 : ص 425 – 600 (اصلاح الازهر)

2 — **مجلة المنار :**

والحقّ أنهم كانوا في ذلك ترجيعا لصدى « مجلّة المنار » التي برزت منذ سنة 1898 بسعي من رشيد رضا وبوحي من الشيخ محمد عبده . وعلى عكس مجلّة العروة الوثقى ، فلقد كان لمجلّة المنار بليغ الأثر وبعيد الصدى في أوساط العصابة الإصلاحية بتونس (52) وليس أدلّ على اهتمام المنار بشؤون الإصلاح بتونس وعلى شغف المصلحين التونسيين بالمنار من قضيتين شغلتا التونسيين والمنار ، قبيل زيارة عبده الثانية لتونس : وهما قضيتا الشيخين الثعالبي وشاكر .

أ — **الثعالبي** (53) :

وهو من الذين تخرجوا على الشيخ سالم بوحاجب والبشير صفر ، فبعد أن انخرط بعدد من الجمعيات الإصلاحية وراسل عددا لا يحصى من مجلاّت الشرق ، أسس سنة 1895 جريدة أسبوعيّة « سبيل الرشاد » (54) ، ولكن جريدته لم تعمّر طويلا فاضطرّ إلى الارتحال إلى المشرق الإسلامي حيث تعرّف على الشيخ عبده بالقاهرة . وعاد إلى تونس سنة 1902 متأثّرا بدعوة الشيخ عبده الإصلاحية فاحاطت به هالة من أهل العلم والأدب ، أصبحت له الزم من ظلّه ولكن المحافظين كانوا له بالمرصاد وبدؤوا يلتقطون من كلامه سقطات في مسائل الخلاف بين الصحابة والأولياء والكرامات ويشيعونها على وجهها أو على غير وجهها ، ممّا أدى إلى محاكمته ، فيما بعد ، سنة 1304 (55) .

(52) انظر مجلة المنار : مجلد 5 جزء 22 . ص 880 (14 فيفري 1903) : يقول رشيد رضا منوها بالاصلاحيين التونسيين : «وجاءنا من تونس ان الجزء الواحد من المنار يدار على عشرات من الناس »

(53) انظر اركان النهضة للشيخ الفاضل بن عاشور (نفس المرجع) ص 44 — 48
: « ترجمة الثعالبي بقلمه وخطه : مخطوطة بقسم الوثائق . كتابة الدولة للاخبار — تونس

(54) لم يصدر منها الا تسعة اعداد . العدد الاول بتاريخ : 16 ديسمبر 1985 .

(55) انظر ملف هذه القضية : تقرير الكلونيل بارون Rapport du Colonel Baron
قسم الوثائق كتابة الدولة للاخبار — تونس .

والجدير بالملاحظة أن مجلّة المنار ناصرت الثعالبي ولا أدلّ على ذلك من نشر رسالة طويلة له يعبّر فيها عن مرير شكواه من الحياة الفكريّة بتونس فليرجع إليها القارىء ، حيث انّها مثبتة بالمنار (56) ولافائدة من إيرادها هنا .

ب — **محمد شاكر** (57) :

كان الشيخ محمد شاكر استاذا زيتونيّا بمدينة صفاقس ومن الدعاة المخلصين لمنهج الشيخ عبده ولمجلّة المنار ، فحمل في دروسه بصفاقس على البدع المنكرة التي التصقت بالدّين الإسلامي والمتمشّية آنذاك بصفاقس من زيارة قبور الأولياء والإيمان بأراجيف أصحاب الطرق « والزوايا » ، ممّا مكّن المحافظين من الوشاية به وتقبيح عمله فأقيل من التدريس وجرّد من « شهادة التطويع » ، في الأيّام الأولى من شهر جانفي سنة 1903 ، قبيل زورة الشيخ عبده بشهور .

وناصرت مجلّة المنار هذه القضيّة وشدّت أزر الشيخ محمد شاكر (58) فليراجع الباحث ذلك .

3 — المراسلات بين المصلحين التونسيين وبين الشيخ عبده قبيل زورته الثانية :

فنرى إذن أن التونسيين ، قبيل زورة الشيخ عبده الثانية لتونس سنة 1903 ، كانوا منقسمين إلى شقّين متقابلين : فمن جهة فئة قليلة مشتتة القوى ،

---

(56) مجلة المنار : مجلد 4 ج 2 (14 افريل 1903) . ص 74 — 78

(57) ترجمته بمناسبة وفاته : جريدة « الصباح » التونسية : عدد 4 افريل 1963

(58) مجلة المنار : مجلد 5 ج 13 ص . 837 — 838 . وج 14 ص 871 — 874

رغم مؤازرة خفيّة من سلط الحماية الفرنسية (59) وهي فئة المحافظين من أهل الجمود الذين كانوا ترجيعا ليس إلاّ كصدى الصحافة المصرية المناوئة للشيخ عبده، ومن جهة أخرى عصابة الإصلاح وهي أكثر عددا، وأقوى عدّة، ملتفّة حول الشيخ سالم بوحاجب والبشير صفر. والجدير بالذكر هو أنّ عصابة الإصلاح سهرت على توثيق الصلة بينها وبين المصلح المصري ولا أدلّ على ذلك من مراسلات خصبة كانت تدور بينهما. وهاتان رسالتان تشهدان بليغ الشهادة على ذلك.

فالأولى رسالة الشيخ سالم بوحاجب في تقريظ رسالة التوحيد بعث بها إلى الشيخ عبده سنة 1899 وقد أثبتها رشيد رضا في تاريخ الشيخ عبده (60) فليرجع اليها القارىء.

والرسالة الثانية صدرت سنة 1900 عن مصلح كان من أفذاذ العلماء بجامع الزيتونة وهو الشيخ محمد النخلي (61) القيرواني وهي رسالة من الأهميّة بمكان، لم تقتصر على التقريظ لرسالة التوحيد، بل تجاوزت ذلك إلى النقد النزيه الجرىء، في خصوص قضيّة التوكيد في القرآن، فأثبت الشيخ النخلي جوازه بينما أقرّ الشيخ عبده إنكاره، ممّا جعل هذا الأخير يجرّد قلمه للردّ على مراسله وشكره على رسالته. فليرجع الناظر إلى جواب الشيخ عبده (62).

---

(59) لقد اولت الصحافة الاستعمارية بتونس قضية الشيخ شاكر اهتماما بالغا : راجع La Dépêche Tunisienne عدد 11 جانفي 1903. وتبع هذا، على صفحات هذه الجريدة مناظرة بين مراسل الجريدة وهوعلي محاوي ومدير جريدة الحاضرة السيد علي بوشوشة، في خصوص « طريقة العيساوية » والملاحظ ان جريدة La Dépêche كانت تدعو في هذا الصدد، الى ابقاء هذه الطريقة وما شاكلها لاغراض سياحية (هكذا) : انظر اعداد La Dépêche Tunisienne 25 و 27 مارس 1903 و 8 و 9 افريل 1903.

(60) تاريخ I : ص 784

(61) راجع ترجمته : التقويم التونسي للشاذلي بلحسن. سنة 1225 ـ 226 (1344 هـ) ص : 275 ـ 279 (بمناسبة وفاته وبه صورة الفقيد) تونس 1925
شجرة النور الزكية ص 425 ـ 426 ج I طبعة القاهرة 1350 هـ

(62) تاريخ II. ص 585 ـ 587. رسالة عدد 24.

ونحن نثبت هنا نصّ رسالة الشيخ محمد النخلي التي لم تنشر وهي مخطوط (63) ، لما لها من القيمة التاريخية والأدبيّة :

رسالة الشيخ محمد النخلي إلى الشيخ محمد عبده :

1 — [الدّيباجة] : مقام الأستاذ العلاّمة والنحرير الفهّامة ، محيي رسوم التقدّم الإسلامي ، ورامي فكره السامي إلى أسمى المرامي ، نَصوح الإسلام ، وممزّق غياهب الأوهام ، عين أعيان الأمّة ، الذي آسى الدّاء وكشف الغمّة ، الشيخ سيدي محمد عبده مفتي الدّيار المصريّة بلّغه الله مناه في رفع منار الإسلام ، وحياه على تحيّته الحسنة بأبلغ تحيّة وسلام .

أمّا بعد ، فاني العبد من عشّاق فضيلتكم العلميّة ، وبالأشواق إلى تحريراتكم الفائقة السنيّة .

وكم من محب قد أحبّ وما رأى وعشق الفتى بالسمع مرتبة أخرى (64)

2 — [تقريظ رسالة التوحيد] : حبّذا التحرير والتحبير ، والتطبيق على الروح العصري تطبيق النطاسي الخبير ، لا سيّما رسالة التوحيد ، التي هي في كتب الكلام جوهر فريد ، بل اختراع جديد ، على أسلوب سهل ممتنع مفيد ، يدل على باعٍ طويل مديد ، وقد اتهمها بعض الجهلة فقمت بناصر الحقّ وقرّرت له ما نمّقتم في الحسن والقبح العقليين وأنّ ما ذكرتم فيها هو زبدة ما ذكره ابن الهمام (65) في المسايرة وما بيّنتم في مسألة الكسب وتنزيل تقريركم على مقالة إمام الحرمين التي يجب أن تعتمد فتعتقد وان تؤول عبارة الأشعري حتى ترجع إليها كما صنع بعض الأعاجم وإلاّ فهو مذهب لا حاصل له إلاّ الجبر والأشعري أجلّ من أن يرتكب المغالطة في التّعبير ميلا إلى مذهب

(63) لقد تفضل الشيخ البشير النيفر المفتي المالكي واستاذ التعليم سابقا ، فمكننا من نسخها .

(64) البحر الطويل.

(65) ابن الهمام : كمال الدين محمد بن همام الدين بن عبد الحميد بن الهمام السيواسي الاسكندري الحنفي مات بالاسكندرية عام 1366/788 صاحب « المسايرة في العقايد المنجية في الاخرة » .

الجبر . وقد أوضحتم به مسألة الرؤية والكرامة فلعمري ان تلك الرسالة هي خلاصة علم الكلام ، التي من تحققها شفي من أمراض الأوهام . ولولوع العبد بهاته الرسالة كتبتُ على نسختي هذين البيتين :

رسالة توحيد على مذهب السلفْ معانيها في الألفاظ كالدّر في الصدفْ
تأملها يشفي غليل الذي غدا عليلا بأدواء الشكوك فلا تَخَفْ (66)

فلو جعلت أساسا للتعليم لاسترحنا من كتب قشرها أكثر من لبابها ولكنّا بلينا بتقليد كلّ قديم والشغف بالثناء على العظم الرّميم .

3 — [مسألة التوكيد في القرآن] : أمّا دروس التفسير فانها حريّة أن تكتب بالنضير على ورق الحرير ولهذا لم أزل أطالعها من مجلّة « نور الإسلام » ، واقتطف منها الزهر في الأكمام ، بيد أنّ قصوري وقف بي على ساحلها فتوقفت في إنكاركم أن يكون الرحيم توكيدا للرّحمان ونسبتم الجَلاَلَ المَحَلي (67) والصبّان (68) للغفلة التي قلّما يوصف بها إنسان . وقلتم : انّه لا يجوز لمسلم أن يعتقد أن كلمة بل حرفا في القرآن ورد لمعنى غيرِ مقصود وهو سند منعكم التوكيد في الكتاب المجيد .

ومثار توقف العبد ثلاثة أمور :

الأوّل : إنّه قد ورد في القرآن تعدّد التوكيد المعنويّ بحيث لا سبيلَ إلى إنكاره كقوله تعالى : « وعلم آدم الأسماء كلّها » ، « فسجد الملائكة كلهم أجمعون » إلى غير ذلك . والتوكيد المعنوي من وادي التوكيد اللّفظي حتى انّهما يتفقان في كثير من الأغراض فاذا امتنع التوكيد اللّفظيّ امتنع عديله واللازم باطل فكذا المَلْزوم .

---

(66) البحر الطويل.

(67) جلال الدين المحلي الشافعي . م. 864/1459 صاحب كتاب « الناسخ والمنسوخ »

(68) ابو العرفان محمد بن علي الصبان : م. 1206/1792 صاحب الرسالة الكبرى في البسملة والحمدلة .

الثانـي : قَدْ ورد قطعيّا ورود حروف الصلة وفي الكتاب كقولـه تعالى : « أليس الله بكاف عبده » « كفى بالله شهيدا » . وشواهدها أكثر من أن تحصى وحروف الصلـةً لا معنى لها إلاّ التوكيد على ما صرّح بـه المولى التفتزاني (69) في بعض كتبه الأصوليّة فأنّه قال : « إذا قيل ليس زيد بقائم فكأنّه قيل ليس زيد قائما ليس زيدٌ قائما » .

الثالث : لا نسلّم أن التوكيد لمعنى غير مقصود حتى يلزم محظوريةُ وقوعه في القرآن بل التوكيد لمعنى مقصود . ويدلّ على هذا تعرّض علماء المعانـي للمزايا والخواصّ التـي تُقصد بالتوكيد في غير مبحث أخصّها أحوال المسند إليه . ومن المعلوم أن تلك الخواصّ هـي المعانـي الثانويّة التـي يتنافس فيهـا المتنافسون من البلغـاء . فمن أغراض التوكيـد تقريـر المعنى وتثبيتـه في الذهن فيجوز أن يكون الرحيم توكيدا للرّحمان لهذه النكتة بمعونة أنّ الآية وردت للردّ على المشركين في اعتقاد التعدّد . ولهذا كانت على أسلوب القصر بتقديم الظرف على ما اختاره صاحب الكشاف (70) .

ومناط إشكال العبد نفي التوكيد عن القرآن ، وهو من الصعوبة بمكان.

هذا ما أُورِد على كلام الأستاذ رجاءَ أن يصـدر الجـواب بكشف الحجاب أمّا الوجه الذي انفصلتم فيه فوجه جميل وتخريـج جليل وقد صرّح به التاج السبكيّ في الطبقات حيث قال : « رَحمان فَعلان مبالغةَ في كثـرة الرحمة ولا يلزم من الكثرة الدّوام كغَضبان وفعيل لدوام الصِّفة كظريف فكأنّه قيل العظيم الرحمة الدّائمها » .

ثم المؤمّل أن لا نزال نطالع نفائس التفاسير ، وبدائع روائع التقارير والسّلام في ربيع الأنور عام 1318 (جويلية 1900)

محمد النخلي

---

(69) سعد الدين مسعود التفتزاني . م . 1320/792) صاحب كتاب تهذيب المنطق والكلام وكتاب مقاصد الطالبين ، في علم أصـول الدين .

(70) ابـو القـاسم محمود الزمخشري م . 144/538 صاحب كتاب الكشاف عن حقـائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التاويل.

4 — إقامة الشيخ عبده الثانيّة بتونس(9 — 22 سبتمبر 1903) .

وكان هذا التأييد الشامل لدعوته الدّافع (71) بالشيخ عبده إلى أن يزور ثانية البلاد التونسية في صائفة 1903 ، بعد أن أقام برهة باوربا وعرّج ، قبل دخول تونس ، على الجزائر (72) ، ولقد أحتاط الشيخ عبده ، قبل عودته لتونس وزيارته للجزائر ، درءًا لسعايات المغرضين ، فسلك في مجلّة المنار سياسة المجاملة نحو فرنسا (73) .

وكان وصوله إلى تونس يوم الاربعاء 9 سبتمبر 1903 .

ومغادرته لها يوم الخميس 24 من الشهر نفسه .

وقد أسقطت عنّا جريدة « الحاضرة » الأسبوعية مؤنة التقصّي والإستقصاء ، إذ أنّ مديرها علي بوشوشة وهو عضو الجمعية الخلدونيّة ومن أبرز عناصر الحركة الإصلاحية ، قيّد بجريدته كلّ تفاصيل هذه الزورة الثانية بما يشمل ذلك من اتصالات رسميّة وغير رسميّة ومن مآدب أقيمت على شرف الضيف الشهير ، ومن قصائد وخطب القيت ترحيبا به ، إلى جانب الدّرس العامّ الذي ألقاه الشيخ عبده بالخلدونية عشيّة الأحد 20 سبتمبر 1903 فليرجع الباحث إذن إلى جريدة الحاضرة (74)

---

(71) لقد كان لرحلة محمد فريد بك ، رئيس الحزب الوطني . لتونس سنة 1902 بليغ الاثر وبعيد الصدى في مصر ولقد اودع ارتساماته في كتاب : « من مصر الى مصر » ج 2 مطبعة الموسوعات بشارع باب الحلق بمصر سنة 1319

(72) انظر : Ali Merad : l'enseignement politique de Abduh aux Algériens. Confluent : N° 42-43 (juin -juillet 1963) p. 644-679.

(73) تاريخ 1 ، 870 ـ 874 . ومجلة المنار : (مجلد 4) ج 13 . ص 540 . و ج 2 . ص 80

(74) انظر : الحاضرة : عدد 860 السنة 17 (الثلاثاء 8 سبتمبر 1903)
عدد 861 » » » 15 سبتمبر 1903)
عدد 862 » » » 22 سبتمبر 1903)
عدد 863 » » » 29 سبتمبر 1903)
عدد 867 » » » 27 اكتوبر 1903)

والجدير بالملاحظة ، أن شقّ المحافظين المخالفين لمنهج الشيخ عبده قد انضموا من باب المجاملة إلى عصابة المصلحين وحضروا جملة مآدب ومجالس ترأسّها الشيخ عبده . ولم نعثر في بحوثنا إلاّ على وثيقة واحدة تشير إلى هذا الاختلاف (75) . فانّه حدثت مشادة عنيفة ، في إحدى المآدب ، بين الشيخ محمد عبده والشيخ صالح الشريف (76) وهو مدرس بالزيتونة ، كان من المخالفين لمنهج المصلح المصري . وكان موضوع الخلاف ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهّاب فشنّع صالح الشريف على ابن تيميّة ومحمد بن عبد الوهّاب في إنكارهما زيارة قبور الأولياء عامّة وزيارة قبر النبيء (صلعم) خاصّة . ونهض الشيخ عبده للدفاع عن ابن تيميّة مقرّرا « أن خلاف ابن تيميّة مع بعض أهل السنّة لا يخرجه عن كونه منهم » وبأنّه « ينبغي أن تؤخذ آراؤه من كتبه لا من كتب أعدائه » . ثم فكّك الشيخ عبده بين الوهابيّة (77) ومذهب ابن تيميّة وإن لم ينكر الصّلة بينهما .

5 — **أصداء الزورة الثانية :**

أ — **الفتوى الترانسفالية :**

وأعقب رجوع الشيخ عبده من تونس ، قيام ضجّة هائلة حول مسألة الفتوى الترانسفالية (78) في أواخر سنة 1903 وهي التي أجاز فيها الشيخ عبده

(75) لقد تفضل الشيخ محمد الفاضل بن عاشور فاطلعنا على مذكرة من تحرير والده الشيخ محمد الطاهر بن عاشور أثبت فيها ما رآه وما سمعه في المأدبة التي حضرها الشيخ عبده يوم 16 سبتمبر 1903 بدار الشيخ محمد محسن الاكبر بتونس .

(76) انظر : شكيب ارسلان : السيد رشيد رضا او اخاء اربعين سنة . ص 147 . دمشق 1937
الفاضل بن عاشور : المجلة الزيتونية . مجلد 8 ج . 2 . ص 78 75 عدد افريل 1952
مجلة المنار : مجلد 13 عدد 6 (جويلية 1910) . ص 419 — 423 .
مجلة المنار : مجلد 12 عدد 18 (جوان 1909) ص 393 — 396

(77) لقد كانت مشادة عنيفة فيما بعد سنة 1907 بين صالح الشريف ورشيد رضا بجامع دمشق : انظر المنار : مجلد 12 ج 18 ، واتهم فيها صالح الشريف صاحب المنار بانه على مذهب الوهابيين
ومناهضة التونسيين للوهابيين ترجع الى عهد حمودة باشا (1782 — 1813) حيث كلف الشيخ عمر المحجوب بتحرير رد على رسالة الوهابي . انظر تاريخ ابن ابي الضياف : ج III ص 60 75 تونس 1963 (رد المحجوب) ج 7 ص 52 — 55 تونس 1965 (ترجمة المحجوب)

(78) تاريخ I : ص 618 — 717 . والترانسفال هي مقاطعة بالاتحاد الافريقي الجنوبي عاصمتها برتريا ونزح اليها اواخر القرن 19 مستعمرون من الانجليز والهولانديين

لبس المسلم القبّعة وأكله ذبائح النصارى التي لا تتوفّر فيها شروط الذكاة الإسلاميّة . ولقد اغتنم الخديوي عباس حلمي هذه الفرصة للتشنيع على الأستاذ الإمام ونهضت لذلك الصحافة المصريّة المناوئة للمصلح المصري كاللواء والمؤيّد والظاهر والحمارة وشدّت أزر عبده الاهرام والمنار والمقطم .

ولقد شدّ أزره المصلحون التونسيون يتقدّمهم الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ، فبعث إليه برسالة فقهيّة في تأييد الفتوى على المذهب المالكي (79) .

ب — **مجلّة السعادة العظمى** :

واغتنمها المحافظون الرجعيون التونسيون فرصة للتشهير بهذه الفتوى والردّ عليها وعلى صاحبها . ولقد كانت زورة المصلح المصري الثانيّة لتونس وحّدت صفوف حركة المعارضة ، ممّا حدا بهؤلاء ، عند رفع الضمان المالي نهائيا عن الصحف سنة 1904 (80) إلى تأسيس مجلّة فكرية — الأولى من نوعها باللّسان العربيّ في تاريخ الصحافة التونسيّة — مجلّة « السعادة العظمى » (81) جعلوا منها منبرا يصدعون من أعلاه بآرائهم . ولقد تولى إدارتها الشيخ الخضر بن الحسين (82) وهو رجل أخصّ ما يمتاز به الاعتدال وأناطوا الاشراف عليها إلى عالم كبير القيمة شهير الإسم تلتف حوله عناصر حركتهم وهو الشيخ محمد النجّار . فانتصبت هذه المجلّة تردّ إذن على الفتوى (83) وعلى الشيخ عبده . إلاّ أنّه لا يسعنا إلا الإقرار بما اتسمت به هذه المجلّة من

---

(79) المنار : مجلد 6 ج 24 (3 مارس 1904) ص . 927 — 938 (نص الرسالة الفقهية في تاييد الفتوى للطاهر بن عاشور) .
تاريخ 1 . ص 717 . (اشارة الى هذه الرسالة) . ولقد اثبت رشيد رضا فصلا مقتضبا من صفوة الاعتبار للشيخ بيرم 5 ذهب فيه المصلح التونسي ، استنادا على المذهب الحنفي وقبل صدور الفتوى بما يزيد على خمس عشرة سنة ، الى رأي الشيخ عبده في ان ذبائح اهل الكتاب حلال في الشرع الاسلامي . راجع : تاريخ 1 ص 685 — 686 .

(80) في عهد الوزير المقيم العام الفرنسي Stéphen Pichon

(81) جريدة نصف شهرية صدر منها 21 عددا (مارس 1904 — فيفري 1905)

(82) انظر ترجمته : زين العابدين السنوسي : الادب التونسي في القرن 14 هـ . ج II ص 193 — 204 . مطبعة العرب . تونس . 1927/1346

(83) مجلة السعادة العظمى : اعداد 7 ، 8 ، 9 و 10 .

تسامح ، رغم ذلك ، ومن إرادة صادقة في التقارب بين الشقّين المختلفين ففتحت أعمدتها للمصلحين والتقى الجمعان على صعيد واحد وهو الجدال الصادق قصد الفوز بالحق .

الخــــاتمة

وبرفع الضمان المالي عن الصحف إطلاقا ونهائيا ، إزدهرت الصحافة التونسيّة العربيّة إزدهارا لم تعهده منذ انتصاب الحماية فاندفعت تخوض مشكلة الإصلاح مؤتمّة في ذلك بهدي الشيخ عبده ، عدا قلّة قليلة من الصحف (84) .

ولم تمض سنتان على رجوع الشيخ عبده من تونس حتى أتى نعيه في 11 جويلية 1905 فعمّت العصابة الإصلاحيّة التونسيّة موجة من صادق الأسى وان من يقف على المراثي والمقالات والرسائل التّونسية التي انشئت في تلك المناسبة ليدرك أنها تمثّل عنصرا هامّا من مميّزات الأدب التّونسي في هذه الحقبة من التاريخ فليرجع إليها الباحث (85) .

فنستخلص ، من استعراض هذه المصادر ، أن كفاح الشيخ محمد عبده منذ انفصاله عن الأفغاني سنة 1884 ـتقى في صعيد واحد مع كفاح العصابة الأصلاحيّة التونسيّة التي بقي عملها امتدادا لدعوة خير الدّين وقابادو . فسعوا جميعا إلى تحقيق هذا الهدف الأسمى وهو تحرير الفكر الإسلامي من التّقليد وتمكين الشعوب الاسلامية — عن طريق التربيّة والتّعليم وإقحام عناصر قوّة الغرب — ، من « الحوار الحقّ » مع العصر الحديث .

(84) اظهار الحق : جريدة تونسية لاحمد القبائلي لم تعمر طويلا صدر العدد الاول منها يوم الثلاثاء 10 ماي 1904 . وكانت مناهضة للمنار وللشخ عبده .
انظر المنار : مجلد 7 ج 16 (25 اكتوبر 1904) ص 635 — 637

(85) تاريخ 3 : ص 123 — 129 : تابين جريدة الصواب عدد 68 لمحمد الجعايبي
ص 119 — 123 : تابين الحاضرة لمحمد بن الخوجة
ص 294 — 276 : تابين الطاهر بن عاشور
ص 296 — 297 : تابين : محمد شاكر (صفاقس)
ص 364 — 365 رثاء عبد العزيز المسعودي
ص 397 — 398 : رثاء الطاهر بن عاشور

تجارب ادمـاج البدو فى تونس بالحيـاة الريفيـة

بقلم : مصطفى الفيلالي

فهـرس المـواضيـــع

مقدمة

1 — للبلاد التونسية نصيبها من « الصحراء الكبرى » الشمال الإفريقية (1) ، وهو نصيب شامل للمناطق الجنوبية ابتداء من الخط الأفقي 32 درجة ، قرب الحدود الليبية ، إلى ما بين الخطين 34 و 35 درجة قرب مدينة صفاقس على الساحل الشرقي من البحر .

2 — وكانت هذه الصحراء ، بحكم ما آلت إليه ظروفها الجغرافية من جفاف وحرارة ومن إنهيار الأديم الزراعي وتلف الغطاء النباتي ، موطنا لمجتمع بدوي منظم على الأسلوب العشائري ، معول على تربية الماشية كمورد أساسي للعيش ؛ ولم يكن ضعف الإستقرار ، من جانب تلك العشائر البربرية ثم العربية والمستعربة ، سوى مظهر من مظاهر ما كان يقتضيه حفظ الحياة في البيئة الصحراوية من انسجام مع قوانينها الطبيعية الخاصة . بل لعله كان أوفق الطرق واحكمها في إستغلال الموارد النباتية المتفاوتة في الزمان والمكان ، استغلالا فنيا ، لا هو يستنزفها فتنضب طاقاتها ولا هو يهملها فيفوته الإنتفاع من خيراتها الزائلة .

3 — ولقد تحول المجتمع العشائري التونسي عن حياة البداوة الظاعنة وشمله الإستقرار في الكثير الغالب من مواطنه المألوفة ، وتنوعت موارده الإقتصادية بعد ان كانت مقصورة في معظمها على نتاج الماشية ، وشمله اقتصاد

(1) 80 الف كيلومتر مربع (ك م 2) من 4 ملايين كم 2 بنسبة 2 % .

الشجرة والمحراث ، فأصبحت الغراسة السقوية والجافة تساهم في موارده بأكثر من ٪ 60 ، وتطرق به الادماج إلى مشاركة اوثق بالحياة العامة داخل حدود التراب القومي وزالت عنه عزلته الإجتماعية المألوفة .

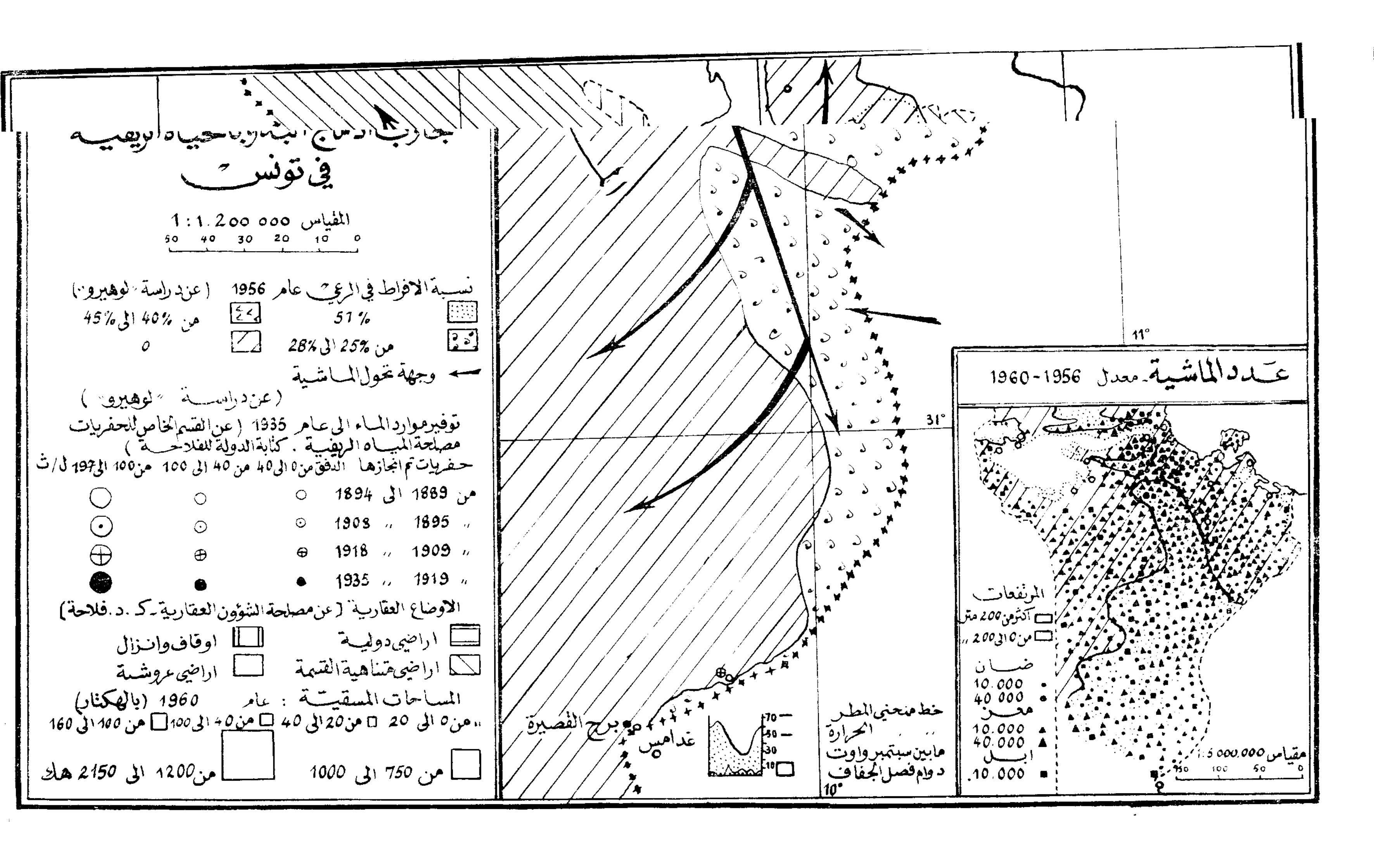
4 ـــ لئن كان هذا التحول حقيقة ماثلة اليوم فليس لدينا القدر الكافي من الوثائق الإحصائية التي تعين على ضبط مراحله ولا على التمييز بين أهمية عوامله الإقتصادية والإجتماعية والسياسية . وتدل قرائن كثيرة على أن التوطين قد حصل بفضل تطور بطيء أطرد مفعوله طيلة ما يقرب من مائة عام ، ولم يكن هذا التطور على نسق واحد من السرعة والأهمية بين النصف الثاني من القرن الماضي والنصف الأول من القرن العشرين . بل لعله كان أسرع واشمل بعد صدور بعض الإجراءات العقارية أو على أثر احتفار عدد من الأبار الأرتوازية .

5 ـــ تفيد الوثائق التاريخية ان المجتمع الصحراوي لم يكن منعزلا عن مجتمعات وسط البلاد وشمالها . بل كانت له بها علاقات قديمة من التبادل الإقتصادي اكتست صبغة التكافل بين الجهات . فلقد كانت القوافل التجارية تنتظم مرتين في العام : تنزل من الوسط إلى الجنوب آخر الصيف محملة بعدائل الحبوب ، وتصعد من الجنوب ، آخر الشتاء ، مثقلة بأكياس التمور . وكان هذا التكافل يشمل الماشية على نحو من الرعي الدوري بين القديم المتعارف من المناطق الرعوية في وسط البلاد وجنوبها ، كلما نضبت المراعي في منطقة أرسل « العزيب » برواده إلى المناطق الأخرى يستطلعون طاقاتها الرعوية ويعدون العدة لتسيير الماشية إليها . وفي هذا التكافل الزراعي بين المناطق الصحراوية وبين سهول الجنوب اولى مصاعب الباحث الرامي إلى طلب الخصائص المميزة لاقتصاد العشائر البدوية ولوصف ما كان عليه ذلك الإقتصاد قبل التوطين وما آل إليه بعد غلبة النزعة الإستقرارية على حياة الجنوب التونسي .

6 ـ لذلك كان لا بد من البدء بطلب الخصائص المميزة للبيئة الجغرافية التـي كانت أوساعا لحياة الظعن فتحولت إلى ديار استقرار زراعـي ، وإلى واحات وحقول لم يعد للاقتصاد الرعوي فيها سوى دور ثانوي . ثم يتطرق هذا البحث ، بعد العرض الإجمالي لمقومات الجغرافيا الطبيعية والبشرية إلى تحليل أهم العوامل التـي تظافرت للتدرج بالمجتمع العشائري من حياة البـداوة الظاعنة إلى حالة الإستقرار ، فيحاول التمييز بين العوامل السياسية والإقتصادية والإجتماعية ، تمييزا نظريا قد لا يـكون مطابقا للواقع . ذلك ان الفاعلية قلّ ما تـكون للعامل في ذاته ، مهما كان دوره وباعتبار انفرادي بل هـي في اتصال ذلك العامل بغيره وفي قابليته للتظافر مع سائر العوامل المعاصرة الأخرى لتحقيق الغاية المشتركة . فلئن كانت العوامل متفاوتة في قوة التأثير فلا يتبـع ذلك أن لأحدها قدرة على الفعل بانفراده دون التعاون مع سائر العوامل الأخرى .

7 ـ ولا يرى صاحب هذا البحث أن استقرار العشائر البدوية غايـة في ذاته ، أو طريقة سياسية كافية ، إذا ما تحقق بصورة شاملة أو فرعية تحققت به لتلك العشائر أسباب الحياة الفاضلة . بل ربما تفيد بعض التحقيقات الأخيرة ان لذلك الإستقرار مساوئ عديدة من حيث مستوى الدخل بالنسبة للأفـراد ومن حيث الأديم الزراعـي في مناطق التوطين . إنما الإستقرار تمهيد لادماج العشائر البدوية في المجتمع الشامل ، إدماجا يمكنهـا من المشـاركـة في الحيـاة الإقتصادية على مستويات الإنتاج والإستهلاك ، ويؤهلها للاضطلاع بمسؤليتها في النهوض بالإقتصاد وللاخذ بنصيبها من الدخل القومـي وما يتوزع اليـه ذلك الدخل عادة من منشئات انتاجية تعمل على تحسين الدخل الفردي ومن خدمات تربوية وصحية وفكرية هـي من حق المواطـن في أشمـل حـاجياتـه واسمى مراتبه الإنسانية . لذلك يتعرض البحث في فصله الثالث وفي الخاتمـة إلى ما تحتله مشاكل المناطق الصحراوية من مكانة في الإقتصاد القومـي ومـا منحته من أولوية في سياسة الدولة منذ الإستقلال ، خصوصا في مخطط التنمية الأول ، وما سيـكون لها من حظ في المخطط الثانـي .

8 ـ موضوع العشائر البدوية الساكنة للمناطق الصحراوية التونسية موضوع قد تناوله عدد من الكتاب بشتى التحاليل التي يكتسي معظمها صبغة علمية مرضية . غير أن الدراسات الشاملة التي تأخذ بعين الإعتبار تعدد جوانب البحث وتقوم على النظرة التأليفية لمختلف تلك الجوانب قليلة العدد مقتضبة . لذلك فان صاحب هذا البحث مدرك لما في الإفتراضات التي يتقدم بها من استقراء شخصي ومن اجتهاد قد لا يكون منزها عن التقصير بالإعتبار العلمي . وهو لذلك مدرك لما في عمله من طابع سطحي ، ومعتذر عن ذلك جميعا .



تجارب ادماج البدو بالحياة الريفية
في تونس
المقياس 1:1.200 000
50 40 30 20 10 0
نسبة الافراط في الرعي عام 1956 (عن دراسة لوهيرو)
51 %
من 40% الى 45%
من 25% الى 28%
0
وجهة تحول الماشية
(عن دراسة لوهيرو)
توفير موارد الماء الى عام 1935 (عن القسم الخاص بالحفريات مصلحة المياه الريفية . كتابة الدولة للفلاحة)
حفريات تم انجازها الدفق من 0 الى 40 من 40 الى 100 من 100 الى 197 ل/ث
من 1889 الى 1894
" 1895 " 1908
" 1909 " 1918
" 1919 " 1935
الاوضاع العقارية (عن مصلحة الشؤون العقارية ـ ك .د. فلاحة)
اراضي دولية
اوقاف وانزال
اراضي متناهية القسمة
اراضي عروشية
المساحات المسقية : عام 1960 (بالهكتار)
من 0 الى 20
من 20 الى 40
من 40 الى 100
من 100 الى 160
من 750 الى 1000
من 1200 الى 2150 هك
برج القصيرة
غدامس
70
50
30
10
خط منحني المطر
الحرارة
مابين سبتمبر واوت
دوام فصل الجفاف
10°
31°
11°
عدد الماشية ـ معدل 1956-1960
المرتفعات
اكثر من 200 متر
من 0 الى 200 "
ضان
10.000
40.000
معز
10.000
40.000
ابل
10.000
مقياس 1:5 000.000
0 50 100 150

الفصل الأول

الوسط الطبيعـي

1 — مشاكل ضبط حدود المنطقة الصحراوية . 2 — المقياس المناخـي لمدى فصل الجفاف . 3 — المساحة والخصائص الكبرى . 4 — السكان والكـشافة الحسابية والواقعية . 5 — الفروق الجهوية الكبرى . 6 — بلاد الجريد . 7 — بلاد نفزاوة والغريب . 8 — جهة قفصة . 9 — جهة الجفارة والأعراض . 10 — الجهـة الجبلية .

1 — مشاكل ضبط الحدود للمنطقة الصحراوية :

من المعروف ان تحديد الوسط الطبيعـي للمناطق الصحراوية يثير مشاكل متعددة ترجع إلى اختيـار ما ينبغـي اعتمـاده من المقـاييس للتمييـز الجغـرافي والإقتصادي بين تلك المناطق وبين ما يجاورها من جهات هـي في الغـالب امتداد لها وموطن ربط . فالصحراء التونسية محدودة من الجانبين الجنوبـي والغربـي بالحدود السياسيـة بين تونس وليبيـا وتونس والجـزائـر . غيـر أن الجغرافيا لا تطمئن كثيرا إلى فاعلية الحدود السياسية لعزل موطن العشائـر البدوية ، لما هو مألوف عند تلك العشائر من الإختراق الموسمـي لتلك الحدود طلبا للمراعـي والإتجار ، ولما لا يزال قائما بين العشائر المتناظرة من وراء الخط السياسـي من روابط اجتماعية واقتصادية ، كالتـي ربطت زمنا طويلا بين المرازيق في تونس وبين الشعانبة في الجزائر ، وبين سكان الجريد التونسـي وبين أجوارهم الجزائريين من سوف والنمامشة ، أو بين التوازين في سهول الجفارة التونسية وأولاد دباب بين أودية جبال مطماطة وبين النوايل في التراب الليبـي .

هذا ما يهم الحدود الجنوبية والغربية . أما بالقياس إلى الحدود الشمـالية للمناطق الصحراوية فالإشـكال مركب بسبب ما لم يزل قائما من التـكافـل الإقتصادى بين المناطق الجنوبية ومناطق الوسط التونسـي ، وبسبب ما بيـن

هاته وتلك من التجانس في الأعشاب والرعوية مثل الدقفت والشيح والعرفج والرتم والمثنان أو السدر (2) في سهول جلاص والهمامة (3) في منطقة القيروان وسيدي أبو زيد وفي سهول بني زيد والتوازين جنوبا على السواء ، ويظهر التشابه بين هذه الجهات أيضا في ضعف الغطاء النباتي وتفاوت نسبته من عام إلى عام ، وفي انجراد الأديم الزراعي تحت تأثير عوامل الإنجراف ، كما يتضح فيما يتصف به مستوى الدخل من انحطاط يرجع إلى ضعف الموارد الذاتية لتلك المناطق وقلة انتظام الحصول عليها ، وفي افتقار السكان إلى موارد إضافية من أصل غير زراعي .

2 ــ المقياس المناخي لفصل الجفاف :

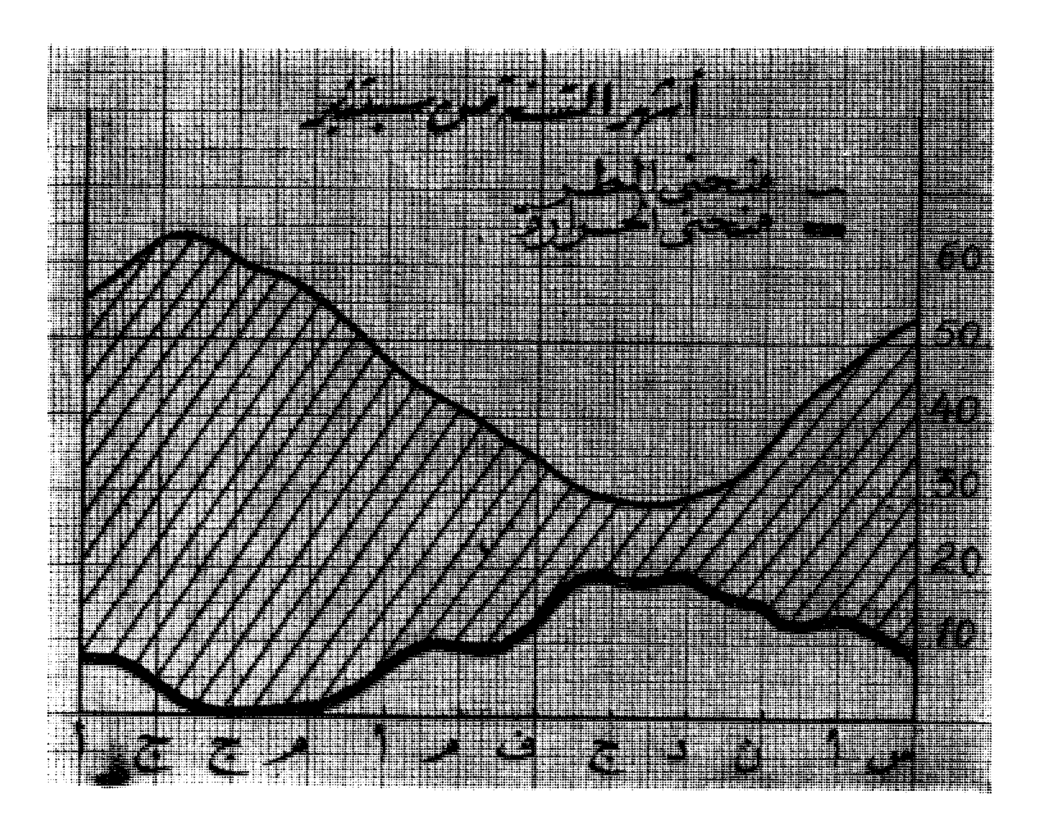
نظرا إلى هذه الصعوبات في ضبط الحدود الشمالية للمناطق الصحراوية التونسية ، كان لا بد من الإقتصار على مقياس المناخ ، القائم على معدل كميات الأمطار النازلة وعلى معدل درجات الحرارة الحاصلة ، وبالتأليف بين هذين العاملين نتحصل على « مقياس الجفاف » ونعني به المدة التي تكون فيها الحياة النباتية خاملة أو عسيرة ، فيتعطل بروز الأعشاب الرعوية السنوية ولا تقوى على الجفاف سوى الأعشاب القارة الدائمة . فالمناطق الصحراوية ــ حسب المقياس ــ يحدها شمالا خط مناخي يطابق خط كميات الأمطار السنوية المتراوحة بين 100 و 200 مم ، ويطابق في آن واحد درجات الحرارة المتراوحة بين 10 د. وبين 30 درجة مائوية ، وبهذا الإعتبار تشمل المناطق الصحراوية كامل الجنوب التونسي وتصعد شمالا إلى مرتفعات الأطلس الصحراوي الممتد من الحدود الجزائرية شمال مدينة قفصة إلى ساحل البحر شرقا شمال مدينة قابس . ما بين الخطين 34 و 35 درجة افقية .

(2) انظر جدول الاصناف الرعوية .

(3) من العشائر الكبرى المتوطنة في المنطقة الوسطى والوسطى الغربية.

3 ـ المساحـة والخصائص الكبرى :

تقارب مساحة هذه المنطقة 70 الف كيلومتر مربـع «كم2» أي نحـو ٪ 50 من المساحة الجملية للبلاد التونسيـة . يشتد فيها الطابـع الصحراوي في الجنوب والجنوب الغربـي فينحط معدل الأمطار السنويـة إلى ما دون 100 مم في الطرف الأقصى عند برج القصيرة وفي بلاد نفزاوة والغريب على هضاب



الظهر غربا . وتخفّ وطأة المناخ الصحراوي في سهول الأعراض والجفارة على الساحل الشرقـي للبحر أو في بطون أودية الجبل المنحدر على شـكل قوس من شط الفجاج إلى بلاد النوايل في التراب الليبـي . فتبلغ الأمطار في هذه الجهة معدل 200 مم. وتحد الرطوبة من شدة الجفاف ، وتتنوع الإمكانات الرعويـة

في المراعي والزراعية في الواحات وتصبح الغراسات الجافة ممكنة وخاصة الزيتون والتين في بطون الأودية وعلى سفح الجبل من وراء الجسور المشيدة لحجز التراب والسيل .

تشترك جميع هذه المناطق في شدة تدهور الأديم الزراعي بمفعول الرياح الجنوبية الغالبة ، وقد بلغ هذا التدهور في بعض جهات الجريد والجفارة إلى إزاحة الأفق الرملي أو النقلي وكشف الجلباب الصخري في الأفق الأسفل من أصل جيري أو جبسي .

كما تشترك في ضعف الغطاء النباتي وانحطاط نسبته إلى ٪ 50 . وأخطر ما في هذه الظاهرة تلف الأصناف الرعوية القارة الدائمة واقتصار الغطاء النباتي على الأصناف السنوية المتوقف بروزتها على الأمطار . ومن أكبر العوامل المتسببة في تدهور الأديم الإفراط في الرعي والتوسع في الحراثة الناتجة عن تغلب أحوال الإستقرار .

4 ـ السكان والكثافة الحسابية والواقعية :

يبلغ مجموع سكان المنطقة الصحراوية 570.000 نسمة ، حسب احصاءات عام 1956 ، وهو ما يساوي نسبة ٪ 15 من المجموعة التونسية . فيكون معدل الكثافة 8 سكان في كم2 . غير أن هذا المعدل الحسابي ضعيف الدلالة على التوزع الحقيقي للسكان ، لأن الإكتظاظ العمراني الملاحظ في الواحات والقرى الجبلية يرتفع بذلك المعدل إلى ما يزيد على 120 س/كم2 في حين أن هلهلة التوزع العمراني تنحط به في سهول نفزاوة والجفارة السفلى إلى ما دون 5/كم2 .

5 ـ الفروق الجهوية الكبرى :

لا تمنع عوامل التشابه والتجانس القائمة في المنطقة الصحراوية من أن نلمس بعض الفروق الجغرافية والإقتصادية بين مختلف جهاتها ، وذلك بسبب بعض العوامل المؤثرة في المناخ مثل مدى المسافة من البحر ، ووجود المرتفعات

الجبلية أو السباخ الواسعة المعروفة بالإسم المحلي « الشط » (4) . وبالإعتماد على هذه العوامل يمكن التمييز بين الجهات الخمس التالية :

أ — الجريد : ما بين السفح الجنوبي الغربي لجبال قفصة إلى المضيق بين شط الجريد وشط الغرسة .

ب — بلاد نفزاوة والغريب : ما بين هضاب « الظهر » (5) عند منحدر جبال مطماطة والسواحل الجنوبية لشط الجريد إلى الحدود الجزائرية غربا .

ج — جهة قفصة : من الحدود الجزائرية غربا في امتداد أربعين كم. صوب خليج قابس شرقا وما بين شط الفجاج جنوبا إلى سلسلة الأطلس الصحراوي شمالا .

د — جهة الجفارة والأعراض : وهي السهول الشرقية ما بين السفح الشرقي من سلسلة الجبال وبين ساحل البحر ، يحدها شمالا خليج قابس وجنوبا الحدود الليبية .

س — بلاد الجبالية : وهي السفوح والأودية المنسابة بين مرتفعات الجبل الفاصل بين سهول الجفارة والأعراض شرقا وبين هضاب الظهر غربا .

وتبرر هذا التقسيم الجغرافي فروق متفاوتة الأهمية في كميات الأمطار السنوية وفي طاقات المياه الجوفية . ولذلك أثره الطبيعي في أحوال المراعي

---

(4) الشط : منخفضات صحراوية ، تفيد بعض الابحاث انها كانت متصلة بالبحر ، وتشكل « بحرا داخليا » يمتد الى جنوب الجزائر . افقه العلوي مركب من اديم طفلي ملح . في الجنوب التونسي من الحدود الجزائرية خط متقارب من ثلاث شطوط ينتهي شرقا الى واحة الحامة على 20 كم من البحر وهي : **شط الغرسة** : مثلث قاعدته 20 كم وارتفاعه 50 كم ، سطحه على 17 ـ دون سطح البحر ـ **شط الجريد** : مفاييسه 110 كم × 70 كم (سطحه 17 + مترا) شط الفجاج يمتد على 90 كم من شط الجريد غربا الى الحامة على عرض يتراوح بين 4 كم و 20 كم

(5) الظهر : الاسم الجغرافي للهضاب المتصلة بسلسلة الجبل على سفحه الغربي والممتدة غربا الى كثبان الرمال في « العرق الكبير الشرقي » من بلاد نفزاوة والغريب .

ونسبة الغطاء النباتـي وفي كثافة الماشية . كما أن لتلك العوامل أثرها في توزع الواحات ودرجة استقرار العشائر البدوية ولون نشاطها الزراعـي . لذلك كان من المناسب التعرض إلى أهم خصائص هذه الجهات الفرعية التـي تتنوع اليهـا المنطقـة الصحراوية .

6 ـ بـلاد الجـريـد :

مناخ حار لبعده عن البحر ولوجوده في وهاد من الأرض ، ولقرب شطّـي الغرسة والجريد ـ معدل الأمطار دون المائة (90 في توزر وقبلي) . رطوبة قليلة (اقصاها في شهر جانفـي 65 بالمائة وأدناها في شهر جويلية 35) في حين أن التبخر يبلغ في مدينة توزر1170 مم. ـ هذه الخصائص جعلت من بلاد الجريد انسب البيئات المناخية بالنخلة المنتجة لصنف « دقلة النور » (6) .

انفلاقات جيولوجية بين مرتفعات الأطلس وبين هضاب الظهر ، بهـا طاقات مياه جوفية غزيرة ، كانت سببا في قيام واحات آهلة بالسكان قديمة يرجع عهدها إلى العصر الرومانـي . وأهمها :

أ ـ واحة نفطة ـ 15.000 س ـ 700 هك . 8 عيون وعدد من الأبار جملة الدفق المستعمل 550 ليترة في الثانية (ل / ث).

ب ـ واحة توزر ـ 12.000 س ـ 1000 هك ـ 10 عيون وعدد من الأبـار .

جملة الدفق المستعمل : 700 ل/ث .

ج ـ واحة الوديان ـ 8000 س ـ 600 هك ـ الدفق 300 ل/ث .

د ـ واحة حامة الجريد : 3000 س ـ 600 هك ـ الدفق 150 ل/ث .

---

(6) دقلة النور : ارفع انواع التمور واجودها . تختص بانتاجه واحات الجريـد . اكثر من 80 % من الانتاج موجه الى التصدير . وهي ثمرة صافية اللون تبصر النواة من خلال اللب . وتمتاز بنسبة سكرية معتدلة .

7 — بلاد نفزاوة والغريب :

منطقة منعزلة ، يفصلها شط الجريد من الجانب الشمالي ، وهضاب الظهر ومرتفعات الجبل من الجانب الشرقي والشمال الشرقي . وهي مكونة من سهول تتناثر بها أتلال رملية وأودية طفلية ذات انحدار غربي . وتفيد بعض الأبحاث انها كانت مكونة من سباخ منخفضة من جنس شط الغرسة فطمستها الرمال التي تهب بها الرياح الغربية والجنوبية من كثبان العرق الشرقي الكبير.

بها مياه جوفية وسطحية كانت سببا في قيام جملة من الواحات معظمها حديث العهد لا يزيد عمرها على المائة عام — لمنطقة نفزاوة خزينتان من المياه الجوفية :

أ — الخزينة الجوفية : تغذي نحوا من 200 عين حية و43 بئرا عميقة · جملة دفقها 1550 ل/ث .

ب — خزينة جبل طباقة : يبلغ دفقها 150 ل/ث .

تكونت في بلاد نفزاوة والغريب 32 منطقة سقوية ترد من ماء العيون وتبلغ مساحتها 918 هك . تروى من دفق جملته 531 ل/ث كما تكونت بعد ذلك 27 منطقة سقوية جملة مساحتها 1795 هك . تروى من مثل عددها من الأبار جملة دفقها 1107 ل/ث (7) .

8 — بلاد قفصة :

موطن التقاء وتصادم جغرافي بين جبال مقطعة تنساب في ثناياها سهول متفاوتة الأهمية والجدب ، تلتقي فيه السهول الجافة الشرقية والسهول الصحراوية الجنوبية والغربية والجبال العارية المنجردة في بوهدمة وعرباطة . وتنحدر أودية سيدي يعيش والوادي الكبير والوادي المالح فتتكون من السهول

---

(7) انظر تفصيل ذلك في الجدول الملحق رقم I.

مفاضات للرعي والحراثة — كلما نزلت الأمطار ، ثم تضيع في سباخ شط الغرسة . وهذه الجهة موطن التقاء زراعي بين واحات قديمة (المتلوي — قفصة — القصر — القطار — فريانة) واخرى محدثة (القويفلة — قفصة الغربية — لالا — القصر) مساحتها الجملية 8120 هك . تسقى من عيون فوارة يبلغ دفقها 578 ل/ث ومن عدد من الأبار العميقة جملة دفقها 358 ل/ث ، يرجع تكوينها وبروزها إلى انفلاقات جيولوجية .

ثم أن جهة قفصة موطن التقاء اقتصادي بين واحات مكتظة اكتظاظا عمرانيا يبلغ ٪ 22 من المجموعة الجهوية للسكان ، ومكتظة اكتظاظا نباتيا (8) وبين سهول جرداء قفر ، واخرى تعمر زمن الحراثة والحصاد ، وبين قرى جبلية في ناحية القطار وبوهدمة تقوم على الإقتصاد المزدوج بين الحراثة والتشجير وتربية الماشية والدواجن . وهي إلى ذلك جهة حارة لا أثر فيها لتلطيف البحر ، تنزل بها في العام أمطار تتراوح بين المعدلات التالية : 100 مم. في سهول الوادي المالح بين جبال بوعليمة وعرباطة وبوجدرة — 152 في قفصة 137 في المتلوي — 170 في السند بينما يزيد مستوى التبخر على المترين ، وتغلب فيها الرياح الشمال الشرقية والرياح الجنوبية الغربية الحارة .

9 — جهة الجفارة والأعراض :

سهول ممتدة من منحدر الجبال غربا إلى ساحل البحر شرقا ، ومن وادي العكاريت شمالا إلى الحدود الليبية جنوبا . تفصلها مرتفعات جبال مطماطة عن شط الفجاج إلى الشمال الغربي . مساحتها الجملية نحو من ثلاثة ملايين هك . عشرها 1/10 مستغل بالزراعة — 335 الفا تتوزع إلى 270 الفا للحراثة ، و75 الفا للغراسات الجافة ولا تحتل المساحات المسقية في الواحات أكثر من 9300 هك .

---

(8) كثافة شجر الزيتون في واحة قفصة تبلغ 200 شجرة في الهكتار الواحد وربما وصلت الى ضعف هذا العدد بالنسبة للاشجار المثمرة.

تتوزع هذه الجهة ، بحكم تأثير البحر إلى قسمين مختلفين في نسبة الرطوبة ونوع الأديم ، وكثافة الإستغلال واكتظاظ الإحتلال العمرانـي .

أ ــ القسم الأول يشمل السهول الساحلية وتقع فيه معظم الواحات ويسكنه أكبر عدد من السكان في قابس ، ومطوية ، ومارث ، والحامة ، ومدنين ، وجرجيس ، وبن قردان ، وجزيرة جربـة ، ويمتاز بكمية أوفر من الأمطـار قد ترتفع إلى ما فوق 200 مم ، وبرطوبة قوية يبلغ معدلها ٪ 77 في قـابس وجرجيس ، وبأديم خفيف مستقر صالح للغراسات السقوية والجافة .

ب ــ القسم الثانـي يشمل السهول الجوفية الممتدة عند سفح الجبل من تطـاوين إلى الذهيبة ، ويتصف بأديم منجرد قد تعرى منه الجلباب الصخـرى ، وبحرارة كبيرة بين أدنى درجاتها وأعلاها تفاوت كبير يبلغ 55 درجة مائوية في تطاوين ، وبرطوبة قليلـة ، ثم أن للجليـد في هـذه السهـول اشتـدادا على المغروسات الرقيقة من غير الزيتون وعلى الخضراوات . للجهات الساحليـة طاقات غزيرة من المياه الجوفية أهمها خزينة مياه قابس التي تدر دفقا يبلغ 1500 ل/ث ، وخزينة جرجيس وجربة البالغ دفقها 350 ل/ث ، وأقلها أهمية خزينة مدنين وتطاوين ثم أن هذه الجهة تنتفع من مياه عيون فوّارة تنصبّ في بعض الأودية مثل وادي قابس حيث يبلغ دفقها 300 ل/ث ، وقد دلت هذه العيون على وجود المياه الجوفية ، ممـا دعا إلى احتفار 70 بئرا عميقة معظمها على السهول الساحلية .

تهب الرياح من الشمال إلى الشمال الشرقـي صيفا ، ومن الغرب إلى الجنوب الغربـي شتاء .

10 ــ الجهـة الجبليـة :

سلسلة متقطعة من الجبال على شكل قوس مفتوحة إلى الشرق . طرفهـا الشمالي عند جبل مطماطة على مقربة من مركز مارث غير بعيد من البحر ، وطرفها الجنوبـي على الحدود الليبية قرب مركز الذهيبة كلما نزلت السلسلة

إلى الجنوب إزدادت بعدا عن البحر ؛ وضعفت الرطوبة . تنفتح بين هذه الجبال أودية تزداد انفراجا عند انحدارها من السفح إلى هضاب الظهر . ويتراوح الإرتفاع في السلسلة ذاتها ما بين 500 و 650 مترا فوق سطح البحر ، إلى مستوى المائتين في الظهر . لذلك كانت معدلات الأمطار في هذه الجهة تزيد على 250 مم في العام ، وهي شبيهة بمعدلات الأعراض الساحلية . إلا أن أديم الأرض قد أكله الإنجراف ، وتعرى الجلباب الصخري من دون الأفق الرملي ، بحيث أصبح سكان الجبل في حاجة إلى استخلافه بأديم مجلوب من بطون الأودية السفلية وجمع هذا التراب المجلوب وراء « جسور » من الحجر المرصوف ، بعضها أعلى من بعض حسب خطوط الإستواء وعلى قدر درجة انحدار السفح ، ونقروا لهذه البساتين الصغيرة مجاري في الصخور لاستجلاب مياه السيل لما يغرس فيها من زيتون وتين ونخل . المياه الجوفية قليلة ، تكاد تكون مقصورة على مياه السيل وعلى بعض العيون الضعيفة مثل عين مدرار عين الحمام — عين أم الصيام — وعين الجير — وعين توجان — وفي الجهة عدد من الأبار السطحية قرب وادي الحلوف .

أنشأ الجبالية قرى جبلية قديمة لعلّ نواتها الأصلية كانت من « القصور » أو « الرتب » (9) التي اتخذتها العشائر الظاعنة على خطوط ظعنها لإدخار مواردها احتياطا لأعوام « البقرات العجاف » .

11 — الجهات الرعوية :

وهكذا فالمناطق الصحراوية متفاوتة الحظ في الإمكانيات الطبيعية ، وبالخصوص في طاقات المياه الجوفية ودرجة ما بها من املاح ، وفي حالة الأديم النباتي وما بلغه من تدهور ، وبالنسبة إلى بعض العوامل الأخرى

(9) القصر : بناء من حجر مكون من غرف خاصة بكل فريق يختزن فيها القمح والشعير والتمور ، ويقام من حولها سور ويعين عليها حارس امين ، اما « الرتبة » فحفر في الارض للاختزان.

كالقرب من البحر ودرجة الإرتفاع فوق سطحه ، مما له أثره على كمية الأمطار السنوية وعلى درجة الرطوبة أو عدد أيام الجليد في العام .

ولجميـع هذه العوامل أثرها في انتشار المراعـي وتنويـع أصنافها ، وفيما تتفاوت فيه من كثافة الغطاء النباتـي ، ويمكن أن نقسم المنطقة العمرانية إلى خمس جهات رعوية نجدها تطابق تقريبا التقسيم السابق :

أولا — مراعـي العرفج (10) وأكثر انتشارها في سهول الجفارة .

أ — جماعة العرفج والدقفت . على مساحة 300 الف هك .

أديم رملي جهة مدنين . توجان — بن قردان — جرجيس — تطاوين .

كثافـة ٪ 50 في الحد الأقصى .

أصنافها النباتية : الرقيق — الهدمة — النسـي — النشـل — الرقمة .

ب — جماعة العرفج والبسليمة ، على مساحة 250 الف هك .

أديم رملي في تطاوين وسيدي الطوي...

كثافة ضعيفة لا تزيد على ٪ 20 .

ثانيا : مراعـي الباقل ومثنان الغزال . وأكثر انتشارها في جهة قفصة على مساحة تبلغ 150 الف هك . في جهات المضيلة ، والرديف ، وقويفلة ، وأم العرائس وماجن بن عباس ، وسيدي يعيش والسند .

أديم رملي من دونه افق من النقل ، من دونه الجلباب الجيري والجبسـي .

الأنواع النباتية : النسـي — السهمة — الدقفت — الأنام — الحلفاء — الطفايا

ثالثا : مراعـي القزاح . تـكـثر في المناطـق الساحليـة من الفجـاج وفي الجهات المنجردة من منطقة قفصة .

(10) في الجدول 2 توضيح للاصناف الرعوية المالوفة بالجنوب التونسي.

أديم الأرض منجرد ، كشف عن جلباب الجبس .
الأنواع النباتية : الهدمة ــ النثل ــ المركبة (الميم والراء بالرفع) ، الطفايا ،
أنواع موسمية قليلة لقلة الأمطار : بوغربية ، العجرم...

رابعا : مراعـي الشيـح : تنتشر على 300 الف هك . في اسفل منحدرات الجبال من مطماطة والدويرات إلى قابس ، وفي السهول النقلية من بلاد السقـي بين قفصة وقابس .

أديم نقل عميق رملي التركيب ممزوج بطفل . يزرع حبوبا كلما سمحت الأمطار ، كثافة الغطاء النباتي لا تزيد على ٪ 5 بالنسبة للأصناف الرعوية الدائمة قد امعنت في اتلافها سكـة المحراث ، في حين ان الأصناف الرعوية الموسميـة ترتفع كثافتها إلى ٪ 80 إذا ما سمحت الأمطار .

الأنواع الدائمة : الشيـح ــ القزاح ــ النهام ــ المركبة ــ الطفايا ــ الدقفت

الأنواع الموسمية : الزبـال ــ عوينـة الحنش .

خامسا : المراعـي الصحراوية ، أكثر انتشارها في نفزاوة والغريب على نحو مليونـي هك . في أديم منجرد بالرياح يـكسوه غطاء متحول من الرمال . تغلب في هذه المراعـي الأصناف الرعوية القارة على الأصناف الموسمية المتوقفة على المطر ، وذلك بسبب تباعد المسافة على موارد الماء .

الأنواع النباتية : الرزدبر ــ (لا يرعاه غير المعز) ، الطفايا ، السنـي ، السهمـة ، الشحـال....

وممـا ينبغـي ملاحظته من الآن ان ٪ 80 من مراعـي الجنوب التونسـي محملة لرعـي مفرط يجعل الإستغلال الرعوي اثقل بنسبة ٪ 30 من طـاقـة الإستجمام النباتـي .

جــدول المنــاطق السقويــة في بــلاد نفزاوة

المنطقة	اسم المكان	المساحة هك	الدفق ل/ث
	ماء الأبار العميقة		
قبـلي	البشيـلي	38	28
	الواعـــة..	68	72
	النجـــا	88	51،5
	أم الفـرث..	60	23
	مزرع ناجـي..	55	35
	الـربطـة..	62	29،9
	بـازقـة..	62	42،9
	سوق البياض	43	36
	تمبيـب	43	35
	تلميـــم	94	56
	تنبــار..	43	42
	دجمــــة	66	37،5
	غـامـت..	48	35
	قطـايـا	43	32
	سيدي مسيعيد..	34	26
	راس العيـن	15	25
دوز	النـويـل	66	60
	دوز..	91	61
	زعفـرانـة	100	63
	قصر غيـلان..	100	100

جدول المناطق السقوية في بلاد نفزاوة (تابع)

المنطقة	اسم المكان	المساحة هك	الدفق ل/ث
	ماء الأبار العميقة		
دوز	الفوار	42	38
	بئر الزيتون	45	40
	كلابية	89	50
	غراد	110	68
	الحساي	40	28
	القلعة	75	68
	زركين	40	25
	الجملة	1795	1107،5
	ماء العيون		
قبلي	عين التوارغة	135	84
	تنشيق	34	18
	غلمة	60	18
	غلمة	60	9
	بشري	32	16
	الكوك	23	18
	بن دها	11	5
	دربل	5	3
	بلاد أم الصمعة	16	4،75
	السنايسة	40	23

جـدول المنـاطق السقويـة في بـلاد نفزاوة (تابع)

المنطقة	اسم المكان	المساحة هك	الدفق ل/ث
	ماء العيـون		
قبـلي	الحجـاج..........................	10	4
	أولاد دبن	31	9
	أولاد أحمـد	17	3
	الجديدة الفوقانية	16	4
	الحلتـايـا	7	3
	الـكبيـرة 2	35	14
	الـكلديـة	15	37،5
	السوفيـة	16	27،6
	البـــزاز............................	10	6
دوز	الـكبيـرة 1	70	12
	منطقة غـزوة..........................	17	7،5
	بـوفقـوش	12	3،75
	سيدى أحمد	24	8،5
	بلاد الـزيرة	36	9،5
	التواتـي الجديدة	8	4
	القديمـة	40	14
	أولاد قليعـة	40	20
	السفتيمية	10	7
	أولاد زيـر..........................	80	63
	الجنـب.............................	21	17،8
	عين بلاد صبريـة	1	1
	بليـدة القلعة	11	8
	زركيـــن	35	25
	الجملة...........	918	531

جــدول الاصنــاف الرعويــة بالجنوب التونسي

1 — ASCLEPRIADACÉES

Periflora lenigata .... الحلاب

2 — BORRACINACÉES

Echiochlon fructicosum .... الهدمـة

3 — CARYOPHILLACÉES

Gymnocarpos decander .... الخرشوت

4 — CISTACÉES

Helianthemun brachipodium .... السمهاري
Helianthemun kahiricum .... الشعـال
Helianthemun sessiliflorum .... الرقيقة

5 — COMPOSÉES

Artemisia campestris .... الدقفت
Artemisia herba alba .... الشيـح
Atractilis serratuloides .... الصـر
Corduncellus eriocephalus .... الشـوك
Launaea resedifolia .... الشقـارة
Rantherium suaveolens .... العـرفج

6 — CRUCIFÈRES

Diplotaxis simplex .... الجرجير
Diplotaxis harra .... الكرنب
Matthiola kralickii .... الشقـرة

7 — EPHEDRACÉES

Ephedra alata spalenda .... ألنـدة

8 — EUPHORBIACÉES

Euphorbia .... اللبينـة

جدول الاصناف الرعوية بالجنوب التونسي (تابع)

9 — GRAMINACÉES

Aristida ciliata	المركبة
Aristida obtusa	النصي
Aristida plumosa	السهما
Aristida pungens	الصبط
Cenchrus ciliaris	الرقمة
Cynodon dactylon	النجم
Lygeum spartum	الحلفاء المهبولة
Schimus barbatus	الزبال
Stipa lagascae	العدام
Stipa tenacissima	الحلفاء

10 — LÉGUMINEUSES

Anthyllis henoniana	القزدير
Astragalus armatus ssp tragacanthoides	القطاط
Genista saharae	المرخ
Genista uniflora	النشل
Medicago (plusieurs espèces)	عوينة الحنش
Retama raetam	الرتم

11 — LILIACÉES

Allium roseum	الأزول
Asphodelus refractus	البسليمة
Asparagus stipularis	السكوم
Urginea undulata	القيز

12 — MALVACÉES

Malva aegyptia	الخبيزة
Malva parviflora	الخبيزة

جـدول الاصنــاف الرعويــة بالجنــوب التونسي (تابع)

13 — OMBELLIFÈRES

Pituranthos chloranthus	القزاح
Pituranthos tortuosus	القزاح
Doncus syrticus	خضرة الحمير

14 — PLANTAGINACÉES

Plantago albicans	الأنـم

15 — PLOMBAGINACÉES

Limoniastrum guyoniana Limoniastrum monopetalum	الزيتـة

16 — POLYGONACÉES

Calligonum arich	العريش
Calligonum azel	الأزل
Calligonum comosum	الأرطـة
Polygonum equisetiforum	القرضاب

17 — RÉSÉDACÉS

Reseda Arabica	لبوس الحلوش

18 — RHAMNACÉES — ANACARDIACÉES

Rhus tripartitum	الجداري
Ziziphus lotus	السدر

19 — SALSOLACÉES

Anabasis orticulata	العجرم
Anabasis orepediorum	الطفايا
Arthrocnemum glaucum	الحماضة
Arthrophytum schmittianum	الباقل
Arthrophytum scoparium	الرمث

جدول الاصناف الرعوية بالجنوب التونسي (تابع)

Atriplex glauca .... القطف
Atriplex halimus .... القطف
Atriplex mollis .... القطف
Bassia muricata .... الشوبطة
Cornulaca monocantha .... الحد
Halocnemum strobilaceum .... الحماضة
Salsola bravifolia .... الشبيطة
Salsola tetragona .... المبلبل
Salsola zygophilla .... الطفا
Suaeda fructicosa .... السويدة
Suaeda mollis .... السويدة
Traganum nudatum .... الضمران

20 — SOLANACÉES

Lycium arabicum .... سكوم

21 — TAMARICACÉES

Tamarix aphylla .... طرفة سوري
Tamarix indigenes .... طرفة عربي

22 — THYMELEACÉES

Thymelea hirsuta .... مثنان
Thymelea microphylla .... مثنان الغزال

23 — ZYGOPHYLLACÉES

Fagouia (diverses espèces) .... الخيطة
Nitraria retusa .... الفزدق
Peganum harmala .... الحرمل
Zygophyllum album .... بوقريبة

الفصل الثاني

الحياة الاقتصادية

1 — من التقسيم الجغرافي إلى التحليل الإقتصادي . 2 — قسم الواحات . خصائصه الكبرى . 3 — واحات قفصة . 4 — واحات الجريد . 5 — واحات السهول الساحلية . 6 — الواحات الصحراوية . 7 — القرى الجبلية . 8 — الإقتصاد البدوي المزدوج عند بني زيد وعكارة في السهول الشمالية . 9 — الإقتصاد البدوي المزدوج عند المرازيق والعذارى وعند الغريب وأهل صبرة في السهول الغربية . 10 — الإقتصاد البدوي المزدوج عند التوازين والخزور والودارنة في سهول الجفارة . 11 — الخصائص الإجمالية لإقتصاد المناطق الصحراوية .

1 — من التقسيم الجغرافي إلى التحليل الإقتصادي :

للعوامل الجغرافية سيطرتها الطبيعية في اقتصاد المناطق الصحراوية ، وإنما خطر ما بأهلها من تخلف ناتج عن شدة ما لإقتصادهم من خضوع لتلك العوامل ومن تبعية لها تكاد تكون تبعية مطلقة . وفي مقدمة تلك العوامل طاقات المياه النازلة والجوفية ، ودرجة الحرارة والجفاف ، ونسبة الرطوبة الميسرة للحياة النباتية ، ومقدار ما بلغه الأديم الزراعي من تدهور ومن ضعف الغطاء النباتي. لذلك كان لا بدّ من ذكر تلك العوامل الجغرافية ومقدار ما بين الجهات من تفاوت بالقياس اليها ، تمهيدا لتحليل الأوضاع الإقتصادية والعمرانية ولتعليل الدواعي الأصلية الكبرى لما بين تلك الجهات من تنوع في الزراعة ومن تفاوت في الدخل .

وسيمكننا التحليل الإقتصادي من فحص الدواعي الحيّة للتوزيع العمراني ومن فهم أسباب الإستقرار في المناطق السقوية والجبلية ودوام الحياة البدوية نصف الظاعنة في سهول نفزاوة والغريب وفي أودية الظهر أو في أرض الجفارة

لذلك يجوز تقسيم الحياة الإقتصادية للمناطق الصحراوية ، بحسب الإمكانيات الطبيعية ، إلى ثلاثة أقسام كبرى يهم أولها الواحات حسب جهات قفصة والجريد والسهول الساحلية أو الجهة الغربية الصحراوية ، ويهم القسم الثانـي اقتصاد القرى الجبلية في جبال قفصة وسلسلة مطماطة ، ويهم القسم الثالث اقتصاد السهول في بلاد السقـي والأعراض ، موطن بنـي زيد وعكـارة وفي نفزاوة موطن المرازيق وأهل الغريب وأهل صبرة والعذارى ، وفي الجفـارة موطـن التوازين والودارنة .

2 ــ قسم الواحـات : خصائصه الـكبرى :

يبلغ عدد سكان الواحات نحوا من مائتـي ألف نسمة أي ما يزيد على ٪ 40 من مجموع سكان المناطق الصحراوية . يستغلون لأرض سقوية لا تزيد مساحتها على 15000 هك ، تنتفع من طاقات مائية جملة دفقها 7100 ل/ث . ويساوي الدخل الزراعـي من الغراسات السقوية 2.044.998 دينارا من مجموع الدخل الزراعـي (غراسات جافة ، وتربية الماشية) البالغ 5.061.470 د . الذي يتوزع على المقادير والنسب التالية :

دخل المناطق السقوية : 5.044.998 د. أي بنسبة ٪ 40،5 من مجمـوع الدخـل الـزراعـي .

دخل الغراسات الجافة : 1.281.624 د. أي بنسبة ٪ 25،2 من مجموع الدخل الـزراعـي .

دخـل المـاشيـة : 1.734.848 د. أي بنسبة ٪ 34،3 من مجموع الدخل الـزراعـي .

ويتضح من الآن الطابـع الإستقراري الذي تتصف به الحياة الإقتصادية في الواحات من غلبة الدخل النباتـي على دخل الماشية ومن تفوق دخل الغراسات السقوية المستوجبة لدوام الحضور على الصنفين الباقيين من الدخل الزراعـي .

كما يتضح من الآن أيضا ضعف هذا الدخل بالقياس إلى عدد السكان إذ يبلغ بالقياس إلى الفرد الواحد 10 دنانير تقريبا (20 دولار أمريكـي) في العام، وهو مبلغ زهيد للغاية، يرجع ضعفه إلى أسباب متعددة نرى في مقدمتها :

أ) الإكتظاظ العمراني . إذ أن عدد السكان في الواحات قد تضاعف مرتين أو ثلاث على ما كان عليه منذ 80 عاما (11) .

ب) الإكتظاظ النباتي. إذ نجد أن الكثافة الغراسية تتراوح ما بين 600 و 800 في الهكتار الواحد، في حين أن الإمكانيات السقوية لا تتحمل أكثر من 200 شجرة في الهكـتار .

ح) كلل الأديم االمنجر عن هذه الكثافة النباتية وبالخصوص عن عدم تطعيم الأديم بالأسمدة العضوية والكيماوية، لعدم قيام التكافل بين الزراعات السقوية وبين تربية الماشية في الواحات، ولارتفاع ثمن الأسمدة من بين كلف الإنتاج وعدم تناسبها مع الموارد .

د) تدهور قيمة الدخل الذى يتضح بخصوص التمر من المقارنة بين الأثمان التالية، بين عام 1884 وعام 1946 :

ما كان يتيسر شراؤه بثمن قنطار واحد من التمر :

الصنف الغذائـي	عام 1884	عام 1946
من القمح	3 قناطر	1،5 قنطار
من الـزيت	1،5 قناطر	0،25 قنطار
من الخرفان	12	1

(11) كان عدد سكان نفزاوة عام 1881 لا يزيد على 000 18، فاصبح اليوم 000 56 نسمة.

ولعل الإكتظاظ العقاري وتفتت الملكية في بعض الواحات القديمة امثال واحات الجريد وقفصة وقابس كان من أكبر العوامل على انحطاط مستوى الدخل . ويتضح من الجدول التالي التطور الذي شمل صغار الملاكين الذين يتصرفون في أقل من مائة نخلة ومتوسطي الملاكين المستغلين لبستان يحتوي على 200 إلى 500 نخلة . فقد تضاعف العدد الأول ثلاث مرات مثلا في واحات الجريد فيما بين 1854 و1962 ، فارتفع من 932 إلى 2850 ، في حين أن الصنف الثاني قد انحطت نسبتهم من ٪ 21 إلى ٪ 10 من مجموع الملاكين .

جـدول تطـور الملـكيـة في واحـة الجـريـد

عدد النخيل	1854		1949		1962	
	٪ الملاكين	٪ النخيل	٪ الملاكين	٪ النخيل	٪ الملاكين	٪ النخيل
من 1 إلى 100	43،5	4،5	59	10	62	26
من 100 إلى 200	61	12	76	22	81	45
من 200 إلى 500	21	19	15	26،5	10	11
من 500 إلى ما فوق	18	69	9	51،5	9	44
الأعداد الكاملة	2.150	735.000	4.830	1.071.550	4.587	1.000.000

كما ارتفع تفتت الملكية فبعد أن كانت عام 1884 نسبة الأملاك الصغرى التـي دون المائـة نخلة لا تزيد على 4،5٪ « فتشمل نحواً من ثلاثين الف نخلة من جملة 735 الف» ، ارتفعت تلك النسبة عام 1962 إلى 26 وأصبحت تشمل

أكثر من 260 الف نخلة . وفي هذا التطور دلالة على دخول طائفة جديدة من المزارعين ومن الموظفين والعمال القارين في صف الملاكين بالواحات ، بالإضافة إلى تكاثر الملاكين بمفعول الوراثة ، وتزايد النسل في ذات المجتمع الجريدي . ثم أن التغير قد شمل بصورة محسوسة كبار الملاكين إذ ارتفع عددهم ارتفاعا جزئيا من 397 إلى 412 وانحط نصيبهم من 507 الف نخلة إلى 440.000 نخلة فيما بين عام 1884 وعام 1962 .

3 ـ واحات قفصة :

وهو موطن أولاد معمر وأولاد سلامة . تبلغ المساحات المسقية في الواحات 3800 هك . تروى من دفق قدره 1086 ل/ث ، جملة السكان 60 الف أكثر من 2/3 يعيشون في الواحة ويعيش الربع في القرى الجبلية من جبال عرباطة ومجورة والعيايشة وبوهدمة . تبلغ المغروسات المسقية جملة 447.143 تتوزع إلى أصناف النخيل 134.627 ـ الزيتون 223.489 ـ سائر الأشجار 89.027 . يبلغ دخلها السنوي 208.000 ديناراً ينضاف إليها دخل المزروعات السنوية المسقية البالغ 102.000 د .

إقتصاد هذه الواحة إقتصاد يقوم على :

أ ـ التنوع الزراعي ما بين نخيل وزيتون وأشجار مثمرة وبقول .

ب ـ الإزدواج بين المغروسات المسقية داخل البساتين المسيّجة بالحجر المرصف أو عريش النخل والتي يطلق عليها أهل الواحة إسم « الغابة المحصنة » وبين المغروسات الجافة المعروفة باسم « غابة الزيتون » .

ج ـ الجمع بين الغراسة في الواحات والفلاحة السنوية في السهول المجاورة وخاصة في « الشرابات » وبلاد السقي .

د — الجمع بين الموارد الزراعية والموارد غير الزراعية المتأتية من الصناعة اليدوية والتقليدية وخاصة من نوع نسج الأغطية والفرش الصوفية ، والمتأتية من الوظائف الإدارية ومن الهجرة إلى العواصم الشمالية (12) ومن الأشتغال في مناجم الفسفاط التي بدأ استغلالها في فجر هذا القــــرن .

وتدل المقارنة بين أهمية الموارد الزراعية أن النشاط الإقتصادي قد تطور عن هذا القطاع البدائي — الذي لا يساهم في الدخل بأكثر من 16٪ وأصبح الإقتصاد مركزا على قطاع الخدمات وفي مقدمتها الصناعات التقليدية التي تساهم بأكثر من 40٪ ، تليها موارد خارجية مجلوبة من المهاجرين المقيمين بتونس العاصمة أو بغيرها من المدن . أو من جراية الموظفين . — ولعلّ قدم الواحات وبالخصوص واحة قفصة والقصر الراجعة إلى العهد الروماني ، والتي كانت موطن حضارة وعلم ، إذ انجبت أمثال ابن منظور القفصي صاحب « لسان العرب » هو الذي يسّر هذا التطور الإقتصادي المتضح في تناقص قيمة الزراعة وتزايد أهمية القطاع الثالث الدال على تخصص فني (في الصناعات التقليدية وفي المناجم) وعلى تقدم في التعليم .

4 — واحــات الجــريــد :

هي أقدم مواطن الإستقرار في المناطق الصحراوية وأكثرها نخيلا وأجودها تمورا ، تبلغ مساحة الواحات الأربع الكبرى 3000 هلك ، وهي مدن :

تـوزر ، عدد سكانها 12.000 ، مساحتها الف هلك .
نفطــة ، عدد سكانها 14.500 ، مساحتها 700 هلك .
الوديان ، عدد سكانها 7.460 ، مساحتها 600 هلك .
الحامـة ، عدد سكانها 3.000 ، مساحتها 600 هلك .

(12) انظر الجدول 3 : تفصيل الموارد في المناطق الصحراوية.

وهـي أكثر الواحات اكتظاظا بالنخيل إذ يبلغ عددها 1.039.634 منهـا 268.000 نخلة تنتج « دقلة النور » . وبالواحات 503.255 من الأشجار المثمرة الأخرى و 41.867 من الزيتون . إلا أن أكبر قسط من الموارد ينجر عن النخيل ويبلغ ذلك الدخل 595.000 دينار تنضاف إليها خمسون الف دينار من البقول . وليس بالجريد مغروسات جافة ، ولا تساهم تربية الماشية في الدخل الزراعـي إلا بنسبة ٪13 (13) ذلك أن قطيـع الماشية في الجريد لا يمثل إلا جزءا قليلا من مجموع الماشية في المناطق الصحراوية يتراوح بين ٪2 و ٪8 تقريبا (14) وبالرغم عن قدم هذه الواحات وعن إكتطاظها العمرانـي ، حيث تزيد كثافة السكـان على 120 نسمة ، وعن الإكتظاظ النباتـي الذي يثقل كاهل الأديم أربعة اضعاف طاقته الإنتاجية ، فلا تزال الزراعة تحتل المـكانة الاول في النشاط الإقتصادي فتساهم بما نسبته ٪3،44 من الدخل ، وتليها في الأهميـة الصناعـة التقليديـة القائمـة بالخصوص على النسج للملابس التقليدية الصوفية والحريرية المشهورة بجودتها في كامل تراب الجمهورية .

يقوم الإقتصاد حينئذ في أكثر من ٪63 من مجموع الموارد على نشاط داخلي من زراعة وصناعات يدوية عائلية ، ممـا يدل على اتجاه قوي للاستقرار، ولا تساهم الموارد الخارجية وخاصة موارد المهاجرين إلا بنسبة ٪4،14 .

ومع ذلك فان هذا الدخل ضعيف جدا ، لا يزيد على 1.457.000 دينـار بالنسبة لجملة السكان البالغ عددهم 48.000 ، بحيث أن الدخل الفردي ينحط إلى 30 دينارا في حين أنه يرتفع بواحات قفصة إلى ما يقرب من الستين دينارا .

ولعل هذا الإنحطاط في الدخل راجع إلى الإكتظاظ العمرانـي المتفـاقم مفعوله بالإكتظاظ النباتـي ، المتسبب في كلل الأديم وتدهور الإنتاجية الزراعية.

---

(13) انظر الجدول 3 : تفصيل الموارد في المناطق الصحراوية

(14) انظر الجدول 4 : تطور التوزيع الجهوي للماشية من 1941 الى 1960.

ولفساد الأوضاع العقارية دور كبير في انحطاط الدخل ، ذلك أن ثلث الواحة في توزر كان على ملك ستين عائلة وان عشرها كان إلى عام 1957 من الأوقاف على ملك الطريقة التيجانية ، فأصبح اليوم بعد قانون حل الأوقاف عام 1957 ملكا للدولة تسخره لفائدة المجموعات التعاونية ، ثم أن الملكية موصومة بالتفتت ، تدل على ذلك الأرقام التالية :

في تـوزر ٪47 من المزارع بها أقل من 100 نخلة .
٪22 من المزارع بها أقل من 50 نخلة .

في نفطـة ٪12 من الملاكين لكل واحد منهم أكثر من 1.000 نخلة .
٪33 من الملاكين لكل واحد منهم أقـل من 50 نخلة .

وكان ضعف الموارد مدعاة إلى أمواج من الهجرة إلى المدن ، إلا أنها هجرة تمتاز عن هجرة الجبالية الذين سيرد ذكرهم ، ذلك أن أكثر من يهاجر من مدن الجريد متعلم يسعى إلى الدخول في الوظيفة العمومية مع ميل واضح إلى التدريس والحقوق ، في حين ان هجرة الجبالية هـي في الغالب هجرة عمالية مع ميزة هـي أقرب إلى المهارة منها إلى التخصص بالمفهوم العصري .

5 ــ واحـات الأعـراض :

هذه الواحات الساحلية قديمة في معظمها دون أن تبلغ في ذلك مشابـة واحات الجريد أو قفصة . وتمتاز عن السابقتين بارتفاع عدد السكان البالغ ثمانين الفا ، في حين أن المساحة المسقية لا تزيد على 5000 هك ، تروى من دفق جملته 1759 ل/ث . كما تمتاز بارتفاع درجة الرطوبة وكمية الأمطـار السنوية . وتتوزع أصناف المغروسات إلى الكميات التالية :

نخيل 1.063.000 ــ زيتـون 280.000
أشجار مثمـرة (خوخ ــ موز ــ رمـان ــ مشمش) 391.000

ويتوزع الدخل الزراعـي إلى الأبواب التالية :

دخل المغروسات السقوية 712.823 د. أي بنسبة ٪59،2 من المجموع .

دخل المغروسات الجـافة 88.137 د. أي بنسبة ٪6،9 من المجموع .

دخـل تربيـــة المـاشيـــة 410.000 د. أي بنسبة ٪33،9 من المجموع .

وينضاف إلى الزراعـة مـورد الصيـد البحـري ، الذي يمتاز بتخصص الصيادين في الغوص على النشاف وفي اصطياد نوع « التن » الذي دعا إلى قيام صناعة تصبير في قابس . ويشارك قطاع الصيد في تشغيل 6 آلاف من العمال إلا أن الزراعة والصيد البحري لا يمثلان أكثر من ثلث الموارد ، ويتوزع الثلثان الباقيان بين الوظائف الإدارية ٪ 31 والصناعات اليدوية ٪ 16 ، مثلما يتضح ذلك من الجدول 3 في تفصيل الموارد بالمناطق الصحراوية .

اقتصاد واحـات الأعراض اقتصـاد مفتوح إلى الخـارج لوجود هذه الواحات على الخطوط الساحلية بين أقصى الجنوب وبين وسط البلاد ، وهـو متنوع الموارد ، ضعيف الدخل بالقياس إلى اكتظاظ السكان في هذه الواحات ، موصوم بالتفاوت الكبير بين طبقات الدخـل الفـردي بحكـم هذه المساهمـة الكبيرة من طرف موارد الوظيفة العمومية .

6 ـ واحـــات نفـــزاوة :

هذه الواحـات الصحراويـة هـي احـدث الواحـات عهدا بالقيـاس إلى الواحات السابقة . وإذا استثنينا الواحة القديمة في قبلي فان أكبر صفة يمتاز بها هذا القسم هو كثرة العدد والتشتت لكثرة عدد الأبار المحدثة وكثرة العيـون وضعف ما تستفيده من الدفق كما يتضح ذلك من الجدول رقم 1 .

يبلغ عدد سكان المنطقة 56.000 لا تزيد المساحة المسقية عندهم على 2800 هلك ، إلى جانب الخمسة آلاف هلك المخصصة للزراعات السنوية الجافـة ، وهـي مساحات ضئيلة بالقياس إلى ملايين الهكتارات التـي تشتمل عليها المنطقة

يتوزع الدخل الزراعـي إلى المقادير التالية :
الزراعة السقوية 358.000 د. أي بنسبة 65٪ من مجموع الدخل الزراعـي.
الزراعة الجـافـة 8.300 د. أي بنسبة 2٪ من مجموع الدخل الزراعـي.
تربيـة المـاشيـة 180.500 د. أي بنسبة 33٪ من مجموع الدخل الزراعـي.

الملاحظ أن الزراعة السقوية تحتل المكانة الأولى في الدخل الزراعـي كما هو الشأن في سائر الواحات، غير أن هذه الجهة تمتاز بوفرة الدخل من الماشية، مما يدل على اقتصاد زراعـي مزدوج يـكاد يقوم على النشاط الثابت في المزارع المسقية وعلى نشاط الظعن في تربية الماشية، دون الصنف الثالث من المزروعات الجافة. فقد دلتنا المعلومات الجغرافية على ما تتصف به نفزاوة من قلة الأمطـار ومن جفاف المناخ ومن انجراد الأديم، فمن الطبيعـي أن لا يـكون للغراسات الجافة شأن في هذه الجهة، وان ينحط دخلها إلى نسبة 2٪، فبينما يرتفع عدد النخيل إلى 778.500 لا يصل الزيتون والتين إلى مائة الف شجرة، غير ان أهمية مساهمة الماشية في الدخل الزراعـي الجهوي، لا تدل على أهمية عدديـة في ذاتها بالقياس إلى اصناف الماشية بالمناطق الصحراوية، بل ان ما ببلاد نفزاوة منها ما لا يزيد على النسب الضعيفة التالية :

الضان من 10٪ إلى 12٪ من مجموع المناطق الصحراوية.
المعز من 8٪ إلى 14٪ من مجموع المناطق الصحراوية.
الإبل من 10٪ إلى 13٪ من مجموع المناطق الصحراوية.

يتضح ذلك من الجدول 4 عن تطور التوزيـع الجهوي للماشية. ثم أن نصيب الفلاحة من الدخل العام لهذه الجهة مرتفع يبلغ 41٪، ولعل ذلك راجـع إلى حداثـة عهـد القطـاع الزراعـي ألمستقـر، وبالخصـوص إلى الإنعـزال الجغرافي لهذه المناطق الصحراويـة من وراء شط الجريـد وجبـال مطـاطـة، وهضاب الظهر، ويلي القطاع الزراعـي في الأهمية مورد الخدمات وبالخصوص

منها الخدمات الإدارية التي تساهم بأكثر من 31٪ ، ثم موارد المهاجرين إلى المدن الساحلية للاتجار خاصة ، ويساهمون بما لا يقل عن 15٪ من موارد الجهة

بهذا ننتهي من القسم الكبير الاول من اقسام الاقتصاد في المناطق الصحراوية ، وننتقل الى القسم الكبير الثاني ، قسم الجبالية ، المستوطنين من قديم في قرى جبلية في اودية جبال عرباطة ومجورة والعيايشة وبوهدمة من منطقة قفصة ، وفي اودية جبال مطماطة.

7 — القرى الجبلية :

أ — في منطقة قفصة .

يبلغ بها عدد السكان ما يقرب من 14.000 ، قد استقروا في قرى جبلية على عين جارية ، أهمها تمغزة وميداس والشبيكة ، وقرية أولاد سعد بوعمران وساكت ، ومجورة والعيايشة وميش والسند ، في الجبال المعروفة باسم جبل عرباطة ، وجبل مجورة ، وجبل العيايشة وجبل بوهدمة وجبل السند . وينتسب هؤلاء « الجبالية » إلى فريق أولاد معمر ، وأولاد سلامة ، وأولاد يحيا وأولاد ثلجان . وهم معروفون باسلوب ماهر في استغلال السفوح الجبلية ، بأقامة « الجسور » من الحجر المرصف حسب خطوط ألاستواء وبجلب التراب اليها ونقر المجاري للمياه ، فيغرسون في تلك البساتين الاصطناعية الزيتون والتين والنخيل ، ويستغلون مفاضات الأودية في أسفل الجبل للحراثة ، وللرعي ، وربما انتقلوا بمساكنهم إلى السهل فاغترسوا الزيتون في تلك المفاضات ، وأقاموا حولها شطرا من العام ، ينتقلون بينها وبين مساكنهم الجبلية .

فبعد أن كان اقتصادهم انعزاليا ، مقصورا على غلة المغروسات الجافة وعلى المحاصيل المتفاوتة للزراعة الموسمية في السهل ، وليس للماشية فيه من مساهمة كبيرة ، تطور ذلك الإقتصاد اليوم إلى الإزدواج بين منتوجات الجبل ، والسهل ، وازدادت أهمية الماشية في الدخل الخاص بهاته الطبقة من المستوطنين .

ب – في جبـال مطمـاطة .

يبلغ عدد الجبالية الجنوبيين 72.750 نسمة استقروا منذ قرن في عدد من القرى أهمها بنـي خداش ، وغمراسن ، والدويرات ، وشننـي في أواسط الجبل ، وتمزرط ومطماطة وتوجان في جهته الشمالية . ويشترك هؤلاء السكان في الإنتساب إلى قبيلة ورغمة البربرية ، التـي يذكر المؤرخون ان هجمة بنـي هلال في القرن الخامس الهجري قد اجلتهم عن مساكنهم بسهول الجفارة ، فاعتصموا بالجبال وانشأوا لهم فيها قرى حول موارد الماء ، واتخذوا حولهـا المزارع الصغيرة على السفوح العارية ، فبنوا الجسور وجلبوا التراب الصالح من بطون الأودية واغترسوا فيها الزيتون والتين ، وقليلا من النخل ، وأضافوا إلى مواردها القليلة مورد الحراثة الموسمية في بطون الأودية (القرعة ، البحيرة) ، واختاروا لماشيتهم مراعـي مشتركة في أودية الظهر .

ثم تعربت ورغمة وعادت إلى الإشتراك في حياة السهل فانحدرت إلى الجفارة ولـكنها لم تترك إلى اليوم ديارها بالقرى الجبلية ، بل مالوا بنشاطهـم الإقتصادي إلى المزج بين العناصر الثلاثة : البساتين الجبلية ، الحراثة في الأودية ، والرعـي في الظهر والجفارة .

ولعل أهم ما ينبغـي ذكره بالقياس إلى الجبالية تعودهم من قديم الزمان على الهجرة إلى العاصمة ومدن الشمال طلبا للرزق ، وحرصهم على تحسيـن مستوى العائلة في القرية بهذه الموارد الإضافية . يهاجر عدد من الرجال من كل فريق ، للاقامة بالمدينة ستة أشهر أو عاما وحتى عامين ، بعيشون على التقشف والإدخار ، فاذا ما اجتمع لديهم قدر « كاف » من المال ، لتجديد قطيـع من الضان اتلفته سنة مجدبة ، أو لشراء حديقة زيتون أو حتى لدفع مهر الزواج ، قفلوا راجعين إلى القرية ، وترتفع نسبة المهاجرين في الأعوام السيئة ، مثل اعوام 1946 و 1948 ، فقد هاجر في تلك المدة 5000 مطماطـي ، في حين انه لم يهاجر في عام 1949 الممطرة سوى 1750 ، وهاجر 700 من تمزرط وزوارة عن 4000

ساكن ، وهاجر من الدويرات 600 من مجموع 3500 ساكن . ولعل اتصال أمواج الهجرة قد استنزف جميع سكان قرى البراقة على 50 كم. جنوب تطاوين ، فهي خاوية منذ قرون . واذا كانت هجرة المرازيق لتعليم القرآن وهجرة الجريدية لطلب الوظيف فان هجرة ورغمة تكاد تكون عملية بحتة ، مع ضرب من التخصص المهني :

لاهل تمزرط في النزل والمطاعم والمقاهي .

لاهل زوارة وتوجان في الحمل ، والمخابز .

ولبني زلطن في الحمالة .

ولغمراسن في صنع « الفطاير » وبيعها . منهم عدد كبير في ولاية قسنطينة بالجزائر .

ولاهل شنني في بيع الصحف .

وللمبالغ المالية الواردة من فرق المهاجرين أهمية كبرى في الدخل العائلي ، بالقرى الجبلية ، فقد بلغت الحوالات البريدية الواصلة إلى قرى مطماطة عام 1947 ما لا يقل عن 80.000 دينار .

ننتقل الآن الى القسم الثالث والاخير من تقسيم الاقتصاد بالمناطق الصحراوية ، بعد ان فرغنا من مواطن الاستقرار بالواحات والقرى الجبلية ، ولمسنا ما يتصف به اقتصاد العشائر المستقرة من ازدواج بين القطاعات ومن تنوع في الدخل . ونتعرض في هذا القسم الثالث الى اقتصاد ثلاث مناطق ، في السهول الشمالية ، موطن بني زيد وعكارة ، وفي السهول الغربية ، موطن المرازيق والغريب واهل صبرة والعذارى ، وفي السهول الشرقية ، موطن التوازين والودارنة ، فنلمس ما في اقتصادهم من تداخل متزايد بين النشاط الزراعي وبين تربية الماشية، وما للفلاحة السنوية من اهمية في الدخل الزراعي، وما لهم من ميل الى الاستقرار وانشاء المزارع المغروسة اقتداء بالجبالية وبسكان الواحات .

8 – الإقتصاد البدوي المزدوج عند بني زيد وعكارة في السهول الشمالية .

بلاد السقـي والاعراض موطن بنـي زيد ، على جانبـي شط الفجـاج جنوب جبل الطباقة . اصل بنـي زيد فرع من أولاد دباب المتفرعين عن بنـي سليم في القـرن XIII ، يعيشون باتصال مع واحـات الحامـة ، كانوا بـدوا معروفين بجودة الخيل والابل ، يظعنون بها في سهول قابس ويحرثون في الأودية قرب الفجاج وحتى في بلاد السقـي أرض الهمامة .

أما عكارة فاصلهم من ورغمة كانوا انصاف رحل ، أنشأوا عام 1870 بعض القصور للاختزان وبعض الرتب ، ثم احتفروا حولها الأبار السطحية وأقاموا عليها غراسات الزيتون وتعاطوا الحراثة في المفاضات وتربية المـاشية في المراعـي المجـاورة .

وتزايد عدد الزيتون في هذه المنطقة بفضل الأموال المجلوبة من المـدن الشمالية والوسطى وخاصة من صفاقس وجزيرة جربة فبلغ اليوم نحوا من 685.000 ، وانتشرت على الأبار البساتين المسقية فاصبحت تشمل مساحة قدرها 500 هلك مخصصة للباكورات .

أما عدد الماشية في هذه السهول فهو يحتل المنزلة الثانية بعد ماشية الجفارة من حيث الأهمية فيتراوح بيـن النسب التاليـة من مجمـوع قطيـع المنـاطـق الصحراويـة :

الضــان من 20٪ إلى 25٪ .

المعــز من 19٪ إلى 26٪ .

الابــل من 11٪ إلى 19٪ .

فهذا الإقتصاد مزدوج بين المغروسات الجافة القائمة على الزيتون بصفـة غالبة وعلى تربية الماشية .

9 ـ الإقتصاد البدوي المزدوج عند المرازيـق والعذارى وعند الغريب وأهل صبرة في السهول الغربيـة .

هـي من القبائل العربية القديمة في منطقة نفزاوة ، كانت تقوم بالتجارة بيـن أهل صوف في الجزائـر وبين المنـاطق الصحراوية التونسية وتنحدر إلى غدامس وإلى بلاد التوارق ، وكانت الخلافات بينها وبين الشعانبة في الجزائر ، وورغمة في الجفارة تتجدد كل عام بسبب تجاور المراعـي وتقاطع خطوط القوافل والاتجار . وكانت حياة البداوة والظعن غالبة فيهم إلى أواخر القرن الماضـي ، وكثيرا ما تغمر الرمال قراهم لقلة حضورهم فيها وعنايتهم بها .

وتم في عام 1908 احتفار عدد من الأبار العميقة ، تظافرت مع بعض العوامل الأخرى فكانت سببا في تكاثر المغروسات من النخيل والزيتون وسائر الأشجار المثمرة ، واحتفر آل الغريب ، وكانوا أمعن في البداوة من أهل صبرة والمرازيق ، عددا من الأبار السطحية وانشأوا عليها البساتين من المغروسات الجافة وأصبـح لهم اقتصاد مزدوج يقوم على دخل المغروسات وعلى نتاج الماشية . واستقر المرازيق حول واحة دوز ، واكثروا من الأبار السطحية وغرسوا النخل على طريقة أهل سوف الجزائريين، وهو أن يحتفروا لاصل النخلة حفرة تنحدر امتارا عديدة تحت سطح الأرض ويغرسوها قريبة من المياه السطحيـة ومحفوظة من مفعول الرياح الرمليـة .

ولا يزال الظعن مألوفا عند آل الغريب وعند العذارى المالكين لخمس قطيـع الإبل ينحدرون بمواشيهم حتى جبل نفوسة في ليبيا وإلى غدامس . وتشمل هذه العشائر حركة هجرة موسمية تصعد بهم إلى الواحات الساحلية وبالخصوص إلى قابس ، وإلى غابات الزيتون في صفاقس عند موسم الغلة ، كما يهـاجر عدد منهم هجرة طويلة للمدن الشمالية وحتـى إلى فرنسا طلبا للعمل . وتبلغ نسبة موارد هذه الهجرة 15،2٪ وهو ما يساوي 187.000 د. من مجموع دخل المنطقة البالغ 1.229.000 د. الا أن مستوى الدخل الفردي هو من اضعف أنواع الدخل في المناطق الصحراوية . بسبب الإنعزال الجغرافي لمناطق نفزاوة وقلـة تنـوع المـوارد .

10 ــ الإقتصاد البدوي المزدوج عند التوازين والودارنـة في الجفارة .

يمتد موطن التوازين من مدنين شمالا إلى بن قردان جنوبا على الحدود الليبية . وهو أوسع موطن بعد بلاد نفزاوة ، والجفارة أكثر سكان من سائـر المناطق الصحراوية ، إذ تبلغ جملتهم نحوا من 130 الف ، أي بنسبة 41٪ من مجموع سكان المناطق الصحراويـة (مع حساب سكـان الجبـل) ثم ان هـذه السهول أكثر البلاد مغروسات جافة وسهول حراثة إذ تحتل هذه وتلك مساحة قدرها 216.480 هلك ، ثم ان بها أوفر عدد من الماشية تتوزع اجناسها من المجموعة الجنوبية على النسب التالية :

الضـــان من 31٪ (120.163) إلى 45٪ (124.275) .
المعـــز من 38٪ (164.763) إلى 50٪ (153.078) .
الابـــل من 45٪ (030.638) إلى 52٪ (031.351) .

وليس للزراعة السقوية من أهمية تذكر إذ هـي لا تزيد على 722 هلك . ولا تساهم بأكثر من 1،7٪ في الدخل الزراعـي .

كان التوازين أصحاب ماشية ، يكاد اقتصادهم ينحصر فيها ، وكانت لهم بسبب ذلك حروب مع أجوارهم النوايل بليبيا . وحصل منذ مائة عام تقريبا تطور اقتصادي متجه إلى الغراسة على غرار سكان الجبل ، فاصبـح اقتصادهم يقـوم على المغروسات الجافـة (الزيتون) وعلى الحراثـة السنويـة في مفاضات الاودية وبطونها ، وكلما اشتدت بماشيتهم ازمات الجفاف مثلما وقع عام 1947 ، ازداد بدو الجفارة ميلا إلى تنويـع مواردهم واجتهدوا في احتفار الأبار السطحية لانشاء البساتين الصغيرة عند مجاري السيل في مفارج الظهر ، وأقاموا للسيل سدودا ترابية . وقد فعل ذلك فريق الخزور قرب أم التمر وقرب زاوية سيدي مخلوف وفعل ذلك فريق الودارنة حوالي الجبل الأبيض إلى 40 كم شرقا . وأكثر التوازين من الأبار السطحية والفساقي حول بن قردان وغرسوا عليها الزيتون والتين والنخل . وتـكاثرت مساكنهم الصخرية القارة . لـكـن

الخريف يظعن بهم إلى المفاضات للحراثة وإلى طلب المراعـي ، ويتركون وراءهم من يتولى جمع الزيتون والعناية بالأشجار وقد كانت لهم أواخر القرن الماضـي « قصور » و « رتب » للخزن ، انشأوا حولها المساكن واحتفروا الأبار السطحية وتحولت تلك الأماكن إلى قرى ومدن آهلة بالسكان . مدينة مدنين العاصمة الإدارية لمناطق الجفارة ، كانت في أصلها « قصرا » لاختزان القمح والشعير والأصواف والتمر . وكذلك الأمر بالنسبة إلى مدينة تطاوين وقرى أم التمـر وبـن قـردان .

وتـكاثرت القرى حول « الرتب » بالخصوص . منها رتبة تاقلميت على 15 كم شمال شرقـي بن قردان ، ورتبة النفاتية ، بين مدنين وبن قردان على الطريق الرئيسـي رقم 1 ، ورتبة بئر السلوقـي ، بين تطاوين وبن قردان ، ولا يزال هذا الإقتصاد البدوي المزدوج قائما على تربية الماشية في أكثر من 35٪ من مجموع الدخل الزراعـي وبنسبة 13٪ من مجموع الدخل .

11 ـ الخصائص الإجمالية لاقتصاد المناطق الصحراوية .

ابرز ما يتصف به اليوم اقتصاد المناطق الصحراوية اطراد تطوره من الزراعة القائمة على تربية الماشية وعلى الحراثة الظاعنة إلى الزراعة المستقرة من حول المغروسات الجافة ، ومن الزراعة الجافة الإتساعية إلى الزراعة السقويـة المنحصرة في مساحات ضيقة .

وتتظافر هذه العناصر على تنويع المحصول الزراعـي وتحسين الدخـل . غير أنه لا يقوم بين أصناف النشاط الزراعـي التـكامل الفنـي الذي يجعل تربية الماشية بالخصوص معينة على اخصاب الأديـم الـزراعي وتحسيـن المستـوى الإنتاجـي ، وتجعل المساحات السقوية معينة على حفظ الماشية من التلف بانتاج العلف واختزانه . لذلك كانت الماشية عرضة للتلف كلما قلت كمية الأمطار ؛ فظهر تطورها من عام إلى عام بمظهر هذا التفاوت على شـكل اسنان المنشار كما يتضح ذلك من جدول المنحنيات (رقم 4 مـكرر) ومن جدول الإحصاءات

رقم 4 — وينجر عن ذلك التفاوت في كميات الماشية تفاوت مماثل في مستويات الدخل الزراعي خصوصا بالقياس إلى مناطق قفصة التي تساهم فيها الماشية بنسبة ٪53،7 من جملة الموارد الزراعية ، وبالقياس إلى منطقة الجفارة حيث تبلغ تلك النسبة ٪35،1 ، ومنطقتي الأعراض (٪33،9) ونفزاوة (٪33) .

ثم ان الإنتاجية الزراعية معرقلة بسبب الإكتظاظ النباتي في المناطق السقوية ، وعن هذا الإكتظاظ يترتب كلل الأديم وتدهور قوته على الإنتاج خصوصا إذا ذكرنا أن تسميد الأرض بالمواد العضوية والكيماوية ليس من الأساليب الفنية المألوفة بين مزارعي الواحات ، ولا هو متيسر بسبب ارتفاع الأثمان ، وكلف النقل وخاصة بسبب هذا العزل الفاصل بين الماشية وبين المغروسات . كما انالإنتاجية الزراعية معرقلة من جانب فساد الأوضاع العقارية وتشتت الملكية.

الظاهرة الكبرى الثانية لاقتصاد المناطق الصحراوية هي عجز القطاع الزراعي عن توفير الدخل الكافي ، إذ يتراوح المعدل الحسابي للدخل الفردى بين الأرقام والنسب التالية :

المنطقة	مجموع الدخل الزراعي	نسبته من مجموع الدخل الجهوى	معدل الدخل الزراعي الفردى	عدد السكان بالجهة	نسبته من مجموع سكان الجنوب
الجريد	645.000	44،3	15	48.500	10٪
قفصة............	579.000	16،1	13	60.000	12،5٪
نفزاوة........	508.000	41،3	9	56.000	11،6٪
الأعراض	1.198.357	31،4	10	117.000	24،4٪
الجفارة.........	1.853.000	38،9	8	200.000	41،5٪
الجملة......	4.783.357	32،2	11	481.500	

ونظرا إلى الضغط العمراني فقد طلب سكان الجنوب موارد إضافية في غير القطاع الزراعي ، فازدادت عنايتهم بالصناعات اليدوية وتكاثر الطلب لهذه المصنوعات التقليدية خصوصا تحت تأثير السياحة الأجنبية ، وفتح الأسواق التجارية في المدن الشمالية . وتحولت هذه الصناعة عن طابعها العائلي الإكتفائي إلى طابع تجاري ،فازدادت في مساهمة الدخل حتى احتلت المكانة الأولى من بين عناصر الدخل في قفصة والمرتبة الثانية في الجريد . ثم ان اقتصاد المناطق الصحراوية قد شمله نوع آخر من التنوع ، وهو تنوع خارجي جعله يستعين بموارد مجلوبة من المدن والمناطق الزراعية في وسط البلاد وشمالها بفضل أمواج الهجرة التي شملت نسبا متفاوتة من ابناء الجنوب ، فازداد الدخل بصورة محسوسة بلغت نسبتها 25٪ في الجفارة والجبل ، و18٪ في قفصة و14٪ في الجريد ، ولكننا لا نعلم بصورة مضبوطة الأوجه التي ينفق فيها ذلك الدخل المستورد ، فمما لا شك فيه ان نصيبا من ذلك الدخل ينفق في المشاريع الزراعية ، وفي استعادة القطيع من الضان ، ولكن الجزء الأوفر من ذلك المال المستورد ينفق في الأوجه الإستهلاكية من لباس ومسكن وطعام .

ومهما يكن لاقتصاد المناطق الصحراوية من تطور عن القطاع الزراعي « البدائي » إلى قطاع الخدمات أو حتى إلى القطاع التحويلي ، ومهما يكن لموارده من تنوع بين أصناف النشاط وبين مختلف المناطق الجغرافية ، فالظاهرة الكبرى التي يتصف بها أولا وآخرا هو ضعف الموارد . فلو اعتمدنا النتائج الحسابية وحدها لوجدنا المستويات التالية من الدخل للأفراد :

الجريد : 30 دينارا في العام للشخص الواحد .

قفصة : 59 دينارا في العام للشخص الواحد .

نفزاوة : 21 دينارا في العام للشخص الواحد .

الأعراض : 32 دينارا في العام للشخص الواحد .

الجفـــارة : 24 دينارا في العام للشخص الواحد .

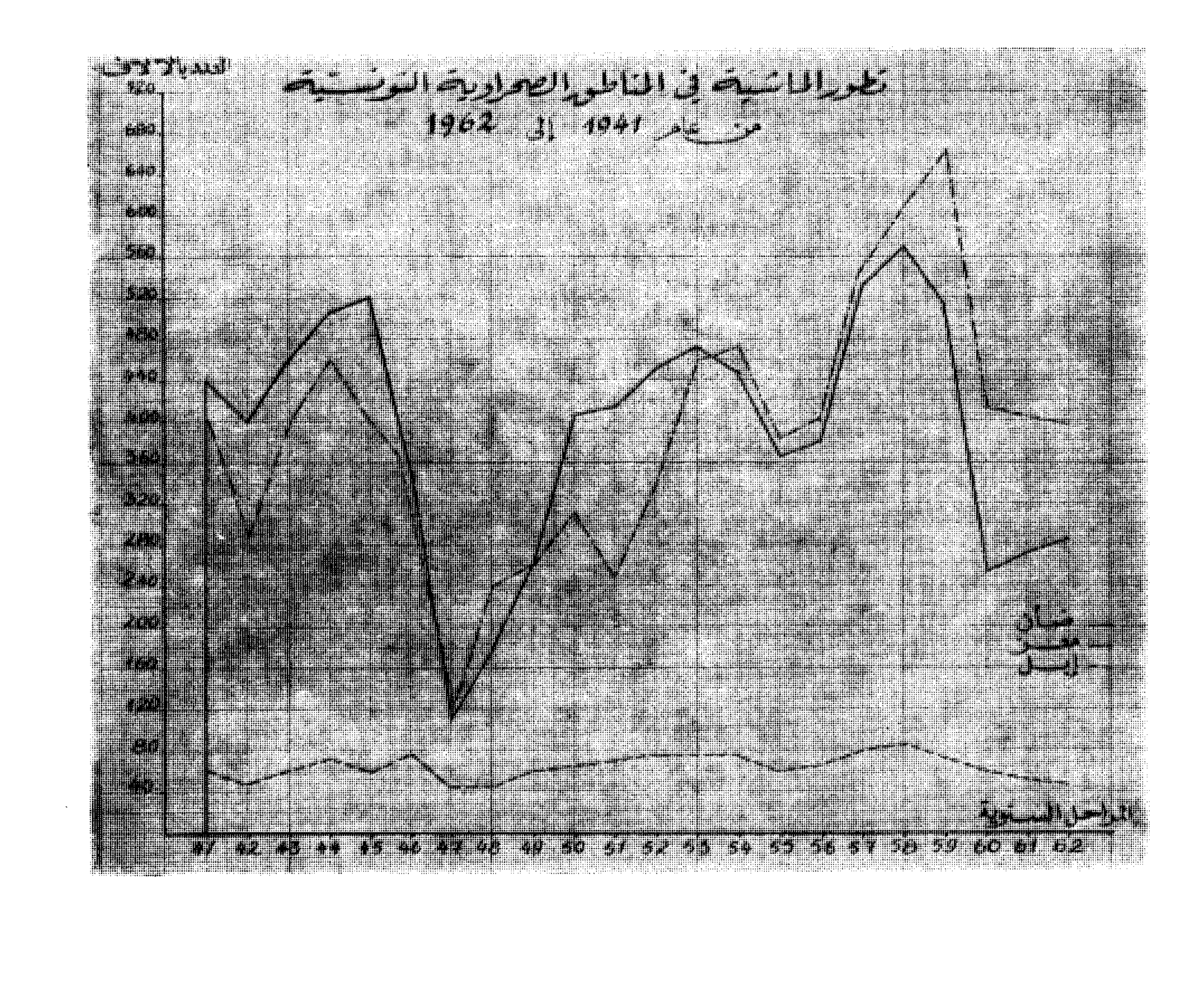
غير ان المعدل الحسابي قليل الدلالة على الدخل الحقيقي للأفراد ، وما بين « الحراثين » و « الشواشين » و « العشارة » الذين لا مورد لهم إلا من الزراعة ولا تعويل لهم إلا على نصيب من غلة النخلة أو الزيتونة على قدر ما تقتضيه عقدة التشارك ، وبين الموظف الذي ينتفع من جراية قارة لا خوف عليها من انحباس المطر ، ويضيف اليها نصيبه من دخل المزرعة ومن اصواف الضان ومن ثمن الخرفان ، يتوزع الدخل حينئذ حسب طبقات لعل بينها من التفاوت ما بين مختلف طبقات الدخل في البلاد المتخلفة .

الجدول 3 تفصيل الموارد في المناطق الصحراوية (بآلاف الدينار)

القطاع	الجريد		قفصة		نفزاوة		الأعراض		الجفارة		الجمالة	
	المبلغ	٪	المبلغ	٪	المبلغ	٪	المبلغ	٪	المبلغ	٪	المبلغ	٪
الزراعة والصيد البحرى..........	645	44،3،	597	16 ٪	508	41،4،	1.198	31،4،	1.853	38،9،	4.783.	32،2،
الصناعات التقليدية والعصرية	274	18،8،	1.502	41،8،	60	4،9،	624	16،3،	279	5،9،	2.739.	18،4،
الخدمات..............	193	13،2،	389	10،8،	84	6،8،	488	12،8،	329	6،9،	1.483.	10
الإدارة	136	9،3،	461	12،8،	390	31،7،	1.199	31،4،	1.093	22،9،	3.279.	22
الهجرة..............	209	14،4،	665	18،5،	187	15،2،	310	8،1،	1.213	25،4،	2.584.	17،4،
جملة الدخل الجهوي	1.457	100 ٪	3.596	100 ٪	1.229	100 ٪	3.821	100 ٪	4.767	100 ٪	14.870.	100 ٪
نسبته من الدخل الجملي	9،8٪		24،2٪		8،26٪		25،7٪		32،05٪		100٪	
نسبة عدد السكان من المجموعة الجهوية	10٪		12،5٪		11،6٪		24،4٪		41،5٪		100٪	

الجدول 4 تطور التوزيع الجهوي للماشية
— من 1941 إلى 1960 —

المدة	جملة الماشية بالمناطق الصحراوية	الجريد		نفزاوة		الأعراض		الجفارة		قفصة		الأجناس
		العدد	%	العدد	%	العدد	%	العدد	%	العدد	%	
من 1941	398.280	14.950	،3،75	37.953	،2،52	95.167	23،88	139.894	35،11	99.968	25،09	الضان
إلى	465.226	17.193	،3،67	64.051	13،40	111.146	23،78	204.615	43،48	57.646	12،33	المعز
1945	63.697	1.941	،3،02	8.200	12،79	11.262	11،56	32.173	50،18	9.523	14،85	الإبل
من 1946	276.358	9.437	،3،40	19.893	،7،18	54.133	19،54	124.275	44،86	68.619	24،77	الضان
إلى	308.412	13.254	،4،29	37.512	12،15	56.328	18،25	153.078	49،59	48.238	15،62	المعز
1950	61.234	2.606	،4،24	5.127	،8،35	8.985	14،64	31.351	51،10	13.163	13،45	الإبل
من 1951	387.840	30.538	،7،84	24.396	،6،26	87.932	22،59	120.163	30،88	124.807	32،07	الضان
إلى	438.041	26.925	،6،13	50.041	11،40	117.912	26،88	164.763	37،56	78.399	17،87	المعز
1955	68.768	4.354	،6،31	7.240	10،49	11.743	17،02	30.638	44،42	14.792	21،44	الإبل
من 1956	518.252	10.373	،1،99	26.501	،5،08	130.420	25،04	189.417	36،36	161.540	31،01	الضان
إلى	469.692	12.392	،2،62	38.518	،8،16	116.496	24،69	220.351	46،75	81.933	17،36	المعز
1960	75.755	2.072	،2،73	7.209	،9،51	13.768	18،43	35.070	46،29	17.426	23	الإبل



تطور الماشية في المناطق الصحراوية التونسية
من عام 1941 إلى 1962
العدد بالآلاف
ضأن
معز
إبل
المراحل السنوية

الجدول 6

الكميات الجملية لاقتصاد المناطق الصحراوية

	الجريد	قفصة	نفزاوة	الأعراض	الجفارة	الجملة
جملة السكان	48.500	60.000	56.000	117.700	199.900	482.100
جملة المساحة «هك»	486.000	473.000	5.701.000	516.000	2.386.000	9.562.700
مساحة المزروعات الجافة	»	13.000	5.500	53.000	216.480	287.980
مجموع دخلها	»	59.000	8.300	88.137	1.126.187	1.281.624
مساحة المزروعات المسقية	3.000	3.800	2.800	5.000	722	15.322
مجموع دخلها	645.000	310.000	358.300	712.823	18.875	2.044.998
جملة الماشية	27.269	122.413	62.300	156.592	293.830	662.404
دخلها (دينار)	98.000	428.000	180.500	410.000	618.348	1.734.848
مجموع الدخل الزراعي	743.000	797.000	547.100	1.210.960	1.763.410	5.061.470
عدد النخيل	1.039.634	134.627	778.500	1.063.000	»	3.015.761
عدد الزيتون	41.867	223.489	37.500	280.300	685.000	
عدد سائر الأشجار	503.255	89.027	58.000	391.300	»	

الفصل الثالث

عوامل التوطين والإدماج

1 — اطراد ظاهرة التوطين . 2 — ازمة البداوة ومصاعب الإقتصاد البدوي . 3 — العوامل السياسية . 4 — العوامل العقارية . 5 — عامل الماء والتشجير . 6 — تطور أوضاع الماشية . 7 — العوامل الصناعية . 8 — العوامل الإجتماعية . 9 — تظافر العوامل .

1 — اطراد ظاهرة التوطين :

ليس من طبيعة التوطين ، باعتباره ظاهرة اقتصادية واجتماعية جماعية ، وتحولا في سلوك العشائر البدوية ظل مألوفا عندهم قرونا متوالية ، ان يطرأ بصورة سريعة يمكن ضبطها بتاريخ . فمن العسير تحديد الزمن الذي برزت فيه ظاهرة التوطين بالمناطق الصحراوية التونسية ، وحصر المراحل الكبرى التي تعاقبت فيها . بل لعله أقرب إلى الواقع ان نقول باطراد ظاهرة التوطين مدة طويلة . وقد رأينا أن الواحات ، وهي مراكز التوطين الكبرى ، ومواطن الإدماج بالحياة الريفية ، يرجع تاريخها إلى العهد الروماني ، أي إلى ما أكثر من الفي سنة . ولا نستثني من ذلك سوى بعض واحات نفزاوة . ورأينا أن قرى البراقة في منطقة تطاوين بين الجبل والظهر الشرقي ، اندثرت منذ ثلاثة قرون ، بعد أن كانت مراكز استقرار ، كان لا بد لها من حياة زراعية . كما رأينا أن القرى الجبلية سواء في جبال قفصة أو في السلسلة الجنوبية كانت معاقل استقرار تحصنت بها القبائل البربرية من هجمات بني هلال منذ الف سنة . ولعل البداوة المحض ، التي لا استقرار لها ، ولا ديار ثابتة ولا نشاط زراعي ، هي من ابتكارات الخيال ؛ كما أن الإستقرار النهائي الذي لا ظعن بعده ولا رجعة فيه عسير التحقيق . ذلك أن البيئة الصحراوية تقتضي التوطين مثلما تقتضي التنقل والظعن ، ولعل تاريخ المجتمع البشرى فيها

خاضع لتعاقب المد والجزر بين الإستقرار والظعن وبين الوفرة والقلة . ولا نعني به فقط هذا التعاقب السنوي بين صيف الإستقرار وشتاء الظعن ، فذلك من طبيعة الحياة الزراعية في مختلف الأفاق الجغرافية ما دامت الزراعة خاضعة لقانون الموسمية . بل يشهد التاريخ ان صحراء الجنوب التونسي قد مرت بها احقاب من الزمن كانت كثافة الغابات فيها ضمانا لاعتدال الأمطار وغزارتها ولخصب الأديم وعمقه ، ولتنوع الحيوانات وكثرتها ، فتيسرت بفضل تلك العوامل المؤاتية حياة بشرية لم يكن عيش الإنسان فيها ولا بقاء ماشيته متوقفا على جوب الأوساع ولا على مغالبة الطبيعة أو التحيل على ظروفها القاسية . يومئذ كان الإستقرار طبيعيا ، وكان الإقتصاد الزراعي قائما على التوازن السليم بين الحاجيات وبين الإمكانيات ، وكان استغلال الإنسان للموارد الطبيعية محترما لطاقات تجديدها ، مسايرا لقوانين الطبيعة في دورية تجدد الأصناف الرعوية الدائمة والموسمية ، وفي استجمام الأبار والعيون . كانت العلاقة بين الإنسان والطبيعة قائمة يومئذ على تضامن ذكي وعلى توازن حي متجدد . ويظل الأمر كذلك إلى أن ينخرم ذلك التوازن ويصبح الإستغلال جائرا على الطبيعة ، مستنزفا لطاقاتها ، فإذا الإستقرار أكول لرأس ماله ، سائر بأهله إلى الفقر . يومئذ تقوم إزمة الإستقرار وتصبح ضروريات العيش موقوفة على الظعن ويدخل الإنسان في الإقتصاد التوسعي الذي تكون فيه الغلبة للماشية ، وللحراثات المتنقلة .

2 ـ ازمة البداوة ومصاعب الإقتصاد البدوي :

ولعل عصرنا في القرنين الماضي والحاضر هو عصر ازمة بالقياس إلى حياة البداوة الظاعنة ، لحقت فيه الإقتصاد الصحراوي مصاعب كثيرة يرجع بعضها إلى تغييرات داخلية طرأت عليه ، ويرجع البعض الآخر إلى تغير العلاقات التي كانت تربط بين المناطق الصحراوية وبين سائر المناطق التونسية والجزائرية والليبية التي كانت تتعامل معها ، وإلى اختلال التكامل الذي كان

قائما بين اقتصاد الصحراء والإقتصاد الجمـلي للبـلاد . ومن أكبـر التغيـرات الداخلية التي طرأت على المناطق الصحراوية نشأة حاجيات جديدة متنوعة في الملبس والتـأثيث والادوات المنزلية والفلاحية وغيرها ، يعجز الإقتصاد الجهـوي عن انتاجها وتضيق امكانياته عن تمويل استجلابها . ثم أن هذه الحـاجيـات ازدادت أهمية بتزايد عدد السكان . فاشتد عجز الإقتصاد الرعوي ، وتناقصت قدرة أهله على الإكتفاء الذاتـي ، ولسنا ندري هل كان يوما لذلك الإقتصاد من اكتفاء ذاتـي ؟ بل لعله من الأنسب أن نقول ان التبعية اشتدت بالعشائـر البدوية بالقياس إلى الواحات ومواطن الإستقرار . وكلما توالت أعوام الجدب إزدادت مصاعب الإقتصاد البدوي وتفاقمت روابط تلك التبعية . ذلك أن الإقتصاد الرعوي لا تستقيم فائدته ولا يـكون مجديا إذا انحط عدد الماشية دون مستوى معين نطلق عليه اسم « المستوى الأدنى للجدوى » ويتنوع ذلك العدد بحسب جنس الماشية . فإذا كان المستوى الأدنى للحاجيات يقتضـي للعشيرة المؤلفة من خمس بيوت جملة سكـانها عشرون شخصا مثلا ، دخلا سنويا صافيا قدره الف دينار أو دخلا جمليا يساوي الفا وخمسمـائة دينار، وكان ذلك الدخل قائما في ثلثيه على نتاج الماشية ، فبالإمكان القيام بالحسابات المفصلة في الجدول التالي لتقدير أعداد القطيـع :

		قيمة الدخل	نتاجها	ثمن الواحد	الإنـاث	جملة القطيع
مورد	من الضان	600 د	120	5 د	130	150
الماشية	من المعز	300 د	100	3 د	120	150
الف	من الإبل........	100 د	6	17 د	9	15
دينار	الجملة......	1000 د	226			315

هذا القطيـع المؤلف من 315 دابة هو الوحدة الرعوية الإقتصادية القـادرة على توفير الدخل المطلوب . على انه عدد مطلق وليس معدلا بين اعداد خاضعة

للتفاوت السنوي ، ولذلك يكون انسب ان نضيف إلى عددنا هذا ثلثه ، احتياطا لما تتعرض اليه الماشية من التلف الدوري في أعوام الجفاف . فيصبح المستوى الأدنى للجدوى بالقياس إلى قطيع الوحدة العشائرية او « الفريق » يساوي :

42 = 105 + 315

مع مراعاة ان التلف ابلغ في الضان والمعز مفعولا منه في الإبل . ومما لا شك فيه ان مثل هذه الاعداد من الماشية لا يتيسر اليوم ولم يتيسر في الماضي القريب الا لطائفة قليلة من العشائر البدوية ، بحيث ان الأغلبية الباقية كانت ولا تزال تكتفي بقطعان قليلة الجدوى قد ينحدر عددها إلى بعض شويهات هزيلة دون العشرين ، كثيرا ما تذهب بها أعوام الجدب أو يزهد أهلها في نفعها فتدفعهم الفاقة إلى أكل رأس المال .

وهكذا تكون قد ضعفت لدى العشائر البدوية وسائل التعامل الإقتصادي مع سكان القرى والواحات . فبينما تزداد التبعية فيهم بالنسبة لاولئك المستقرين ، بحكم تزايد الحاجيات الموجودة في أسواقهم ، يتناقص ما بين أيديهم من كميات « العملة » من الخرفان والجديان والأصواف التي كان التعامل ، بفضل كثرتها ، متكافئا — وكان الحوار حوار انداد .

ملخص الازمة البدوية هي في تفاقم اختلال التوازن الذي كان قائما منذ اجيال بين الحاجيات الإنسانية وبين الطاقات الإنتاجية ومستويات الدخل . وهذا الاختلال الداخلي قد تسبب في فساد التعامل وتزايد التبعية بالنسبة إلى الإقتصاد الزراعي التجاري ، ولا شك أن هذه الازمة الإقتصادية قد تمخضت عن ازمة اجتماعية لحقت الروابط القبلية واضعفت اللحمة بين العشائر . ذلك ان الاحتياج إذا اشتد بالعشيرة كان مدعاة فيها إلى تزايد الروابط وتظافر الجهود . فاذا ما ازدادت شدة الإحتياج ، ونزلت الفاقة بالعشيرة دون مستوى معين ، انقلبت تلك الشدة عامل تفرق وتشتت ولا يبقى للانسان من اشتغال سوى باهله المقربين ، وتتمزق العشيرة إلى وحدات عائلية تسعى كل

واحدة لرزقها ، وتتـوزع الإمكانيـات فتـزداد ضعفـا وعجـزا . تلك بعض الخصائص الـكبرى للبيئة الإقتصادية والإجتماعية التـي نشأت فيها أو توفرت بسببها عوامل التوطين . في مثل تلك البيئة البشرية المعقودة حول ازمة الإحتياج والفاقة وحول ازمة الإنعزال والتشتت ، تظافرت عوامل متعددة ، اكثرها خارجية ، فحملت العشائر البدوية على الركون إلى الإستقرار . وليس من الهين التمييز بين هذه العوامل بحكم ما كان بينها من تفاوت في أهمية المفعول ، فلا بد لذلك من دراسات تاريخية وجغرافية لم تتوفر إلى الآن . انما الارجح ان تلك العوامل قد تظافر مفعولها ولذلك كان لها اثر إيجابـي في التوطين ؛ ثم ان تأثيرها ذلك ما كان مفعوله ليدوم بين العشائر البدوية لولا تلك الازمات الإقتصادية والإجتماعية التـي شكلت بيئة بشرية مؤاتية .

3 – العــوامل السيـاسية :

لا شك ان احتلال الجيوش الفرنسية لارض الجزائر ، عام 1830 وتوغلها تدريجيا في المناطق الصحراوية الجزائرية قد ادخل تغييرات نفسية واجتماعية واقتصادية على عشائر الصحراء التونسية ، بحكم ما آل اليه امر جاراتها من وضع سياسـي احتلالي جديد . فلقد اصبحت تجارة القوافل بين الجنوبيـن الجزائري والتونسـي مشوشة ، معرقلة احيانا ، ولما تم احتلال البلاد التونسية من طرف القوات الفرنسية ، وتوغلت تلك القوات في المناطق الصحراوية ونصبت لها مراكز على الحدود الليبية وخطت سياراتها المسالك واحتفـرت الأبار لتموين جنودها ، احدث ذلك رجة كبرى في العشائر البدوية لعل ابرز مظاهرها كان في قيام الشعور القومـي مقام الشعور القبلي ، وفي ادراك ان من وراء الوطن العشائري المألوف وطنا مشتركا أوسع يمكن ان يـكون غرضا للاغتصاب من طرف الدخيل الاجنبـي .

ولا نقول ان هذا الشعور كان قويا شاملا من أول أمره ، بل ربما ساير في تطوره ، تطور احتلال الجنود الفرنسيين للمناطق الصحراوية . وهو عمل

قد استغرق اكثر من عشرين عاما . ولعل هذا الشعور قد تفاقم بحكم عاملين اثنيـن :

أولهما : تدخل السلطة العسكرية في حياة العشائر البدوية ، بمحاولة ضبط حدود مواطنها المألوفة وذلك تطبيقا لقانون 1901 القاضـي بتحديد اراضـي العروش ، واقامة الحجر المرقم على حدود كل أرض . وليس ادعى للغضب من مشاكل الحدود .

ثانيهما : غلق الحدود الجزائرية اولا عام 1906 ثم الليبية عام 1911 واعتبار المناطق الصحراوية إلى حدود قابس شمالا « ترابا عسكريا » خاضعا للسلطة العسكرية أولا وآخرا منفصلا من « التراب المدنـي » الشامل لسائر مناطق البـلاد التـونسية .

وانفجر الشعور القومـي في العقد الثانـي من القرن العشرين ، وقامت ثورة العشائر البدويـة في الجبـال ، بمـواطن اولاد دبـاب واولاد شهيـدة ، وازدادت حدة بدخول القوات الإيطالية للارض الليبية واستعمالهم الطائرات في قمع الثورة الليبية ، وما دعاهم اليه ذلك من جرائم كانت تتناقل العشائـر البدويـة اخبـارها .

ولم يطل العهد حتى وجدت هذه العاطفة القومية تغذيتها في العقد الثالث وخصوصا عام 1924 من طرف الحركة العمالية الناشئة ، التـي تزعمها محمد علي ، ورام تـكتيل العمال في مناجم الجنوب الغربـي بقفصة ، داخل شركات تعاونية وطنية غايتها « استرجاع المناجم التونسية من الشركات الرأسمالية المغتصبـة » .

يشهد تاريـخ الحركة الوطنية التونسية ان لاهالي الجنوب وللعشائر البدوية منهم بصورة خاصة مشاركة فعالة في الـكفاح التحريري ، ودورا قويا خصوصا في المرحلة الأخيرة من ذلك الـكفاح ، قبيل الحرب العالمية الثانية وبعدها . ولا

شك ان تلك المشاركة دعت العشائر البدوية إلى نوع جديد من التعاون والتمازج، وصرفت جيلين اثنين من اجيالهم عن الخلافات القديمة وعن الفوارق المتوارثة بين طبقاتهم . وقد زاد ذلك في توهين الروابط القبلية ، ويسرّ الاسباب النفسية والإجتماعية لاندماج العشائر البدوية في المجتمع الشامل .

ولعل خروج أهل الجنوب التونسي من عزلتهم بسبب تناقص امكانياتهم الإقتصادية واشتداد التبعية بهم إلى الموارد الخارجية المجلوبة ، ثم لعلّ وطأة الاحتلال العسكري لمناطقهم وقيام هذه الإزمة الإجتماعية النفسية وسط عشائرهم ، ثم لعل مشاركتهم الهامة في الكفاح التحريري ، وانتشار الوعي القومي في صفوفهم ، كل ذلك ، لعله قد خلق بيئة اجتماعية واقتصادية مؤاتية لاندماج العشائر البدوية بالحياة الريفية بصوره هينة ومن غير عنت . ولولا وجود هذه البيئة المركبة الخصب ، لما كان للتجارب التوطينية الإدماجية ، نصيب من نجاح . ذلك ان التجربة عمل إرادي يظهر بمظهر الإجراءات السياسية والإقتصادية والإجتماعية المقصودة ، ويهدف إلى غايات اختيارية . وفي هذا الباب قد تم احتفار عدد كبير من الأبار السطحية والعميقة ، وارتفعت الطاقات المائية المسخرة للاغراض الزراعية ، كما تم توزيع الإعانات قصد التشجيع على غراسة الأشجار ، وصدرت قوانين طيبة النوايا لتيسير القرض الزراعي على آجال متوسطة وطويلة .

وتم انشاء عدد من المدارس الإبتدائية في المناطق الصحراوية ، ووقع تجهيز المراكز العسكرية والمدنية بمصحات ومستوصفات للتداوي المجاني.... تلك جميعا من الإجراءات المتنوعة ، والمتتابعة ، تلاحق اتخاذها في النصف الأول من القرن العشرين ، لكنها ، ولا شك ، كانت تبقى ضعيفة الجدوى ، محلية التنفيذ ، وقتية المفعول ، ضيقة المدى ، فاترة الاشعاع على ما حولها ، طارئة دخيلة ، لو لم تسبقها بيئة اقتصادية واجتماعية مؤاتية ، يسرت في البشر الإستعداد النفساني وقابلية الإدراك ومهدت في السلوك الجماعي طواعية

الإنصياع ، واوجدت صلة التجانس بين تلك الإجراءات المتباينة وربطت بين ازمنتها المتباعدة حبل الإتصال .

4 ــ العوامــل العقــارية :

اذا استثنينـا الأراضـي الـزراعية ، السقويـة والجـافة ، بالواحات ومن حول القرى الجبلية وفي بعض المفاضات والاودية ، وكلها خاضعة لقانون الملكية الخاصة ، فان معظم أراضـي الجنوب الصحراوي ، وجملة المنـاطق الرعوية بها ، ملك مشترك بين جميـع اعضاء الوحدة القبلية أو الترابية ، متداول في التصرف بين عشائرهم بحسب الأعوام . ويعرف في تونس باسم « أراضي العروش » (15) أو باسم « الاراضـي الإشتراكية » ، ويقوم على تصريف الحقوق في هاته الأراضـي ، وعلى قسمة المساحات القابلة للحراثة ، وعلى توزيـع مناطق الرعـي بين المستحقين ، وعلى فصل ما ينجم فيهم من نزاعات ، مجلس منتخب يتألف عادة من شيوخ « العرش » ويعرف باسم « الميعــاد » .

وصدر في 14 جانفـي 1901 قانون تونسـي يقضـي بضبط الحدود لـكل مجموعة منفردة من أراضـي العروش وذلك بالخصوص فيما يهم أراضـي الهمامة والأعراض بالنسبة إلى المناطق الصحراوية ، كما يقضـي بوجوب وضع الأحجار المرقمة على الحدود المقررة ، وبوجوب حصر التصرف في الأرض لفائدة العرش ، مما كان يدعو إلى ضبط الفرق المنتمية إلى العرش ، وتحليـل تقسيمها إلى بيوت ، والقيام بابحاث حول مساكنها المألوفة ، ومسالك تنقلها ، وحصر ما لديها من ماشية... ثم ان قانون 1901 كان يقضـي بالخصوص أن تخضع الأراضـي العروشية إلى اشراف الدولة في كل ما يهم القسمة وان

(15) « العرش » لفظ مستعمل في الارياف التونسية للدلالة على الجماعة الـواسعة من البشر يجمع بينها انتساب قبلي مشترك

تـكون إدارة الشؤون الفلاحية المرجع الأخير فيما يهم الخلافات والنزاعـات الإستحقاقية . وقضى ذلك القانون أخيرا بتعدد المراجـع ، فنص على احداث :

مجلس محلي للتصرف المباشر .

مجلس جهوي للتصرف يكون مرجعا عند عجز المجلس المحلي .

لجنة مركزية للاشراف في العاصمة ، بمثابة دائرة تعقيب .

لجان تحكيم على مرتبتين اولى وثانية للنظر في النزاعات الإستحقاقية .

ثم تلاه قانون 1918 فضبط الوضع القانونـي للاراضـي العروشية في التراب العسكري ، وأقرّ مبدأ الملـكية الجماعية للارض ، إلا أن في اعترافـه ذلك انـكارا لجزر الأملاك الخاصة وسط اوساع الأراضـي العروشية ، ممـا كان مدعاة إلى نزاعات استحقاقية كبيرة .

لعل الإجراءات العقارية قد اعانت على النزعات الإنفرادية في الإستغلال الزراعـي ، وعلى كل فان تلك النزعة كانت موجودة في أوائل هذا القرن ، وربما كانت الإنشاءات المائية معينا على تأكيدها . لذلك بادرت حكومـة الإستقلال باستصدار قانون 1957 . ومن أهم احكامه :

أ ــ التوحيد في الإجراءات الإدارية وفي الأحكام القانونية بين أراضـي العروش في المناطق الصحراوية (العسكرية سابقا) وفي المناطق المدنية .

ب ــ اقـرار مبـدأ :

الإعتراف بالملكية الخاصة للذين حققوا احياء الأرض .

الوعد بالملـكية الفردية لـكل من يلتزم بالاحياء .

الخروج من الملـكيـة الجماعيـة إلى الملـكيـة الخاصة وعـدم التفويت في الارض قبل تمـام مرحلة الأحيـاء .

ج ــ العدول عن هيئات الاشراف (مجالس التصرف ولجان التحكيم) .

وتفيد بعض الإحصاءات ان صدور هذا القانون قد تبعته حملة واسعة من الغراسات الجافة يبلغ عددها بالقياس إلى الزيتون ما يقرب من نصف مليون شجرة . وقد دعا هذا التوسع الزراعي إلى احتفار عدد كبير من الأبار السطحية في المناطق الصحراوية .

5 ــ عامل المــاء والتشجير :

طلب الماء في بطن الأرض شغل دائم في المناطق الصحراوية والجافة ، ومحرك لنشاط مستمر . وتفيد الأثار المتناثرة لابار مطموسة ان التوازين شرقا ، وبني زيد والمرازيق شمالا وغربا لم تن جهودهم في تحريك الأديم السطحي للعثور على الماء ، وفي اقامة « الجسور » والسدود لاصطياد سيوله وتحويل مساكبه .

ثم جاءت السلط العسكرية فتولت احتفار عدد من الأبار العميقة على خطوط تنقلاتها وبالقرب من مراكزها . وتوالت مجهوداتها في الإكثار من «الأبار العسكرية» . وخصوصا قبل الحرب العالمية الأولى ثم من 1920 إلى 1940 . وقد رسمنا لمجموع الدفق ، المراحل الكبرى للاحتفارات العميقة فيما بين 1890 و 1940 . وذكرنا في الفصل السابق أن معظم الأبار الارتوازية الموجودة ببلاد نفزاوة وفي الواحات الجديدة إنما تم احتفارها عام 1908 .

إلى جانب ذلك يقتضي القانون منح اعانة مالية لكل مزارع يروم احتفار بئر سطحية . وتبلغ تلك المنحة ٪20 من مجموع المصاريف المقدرة إذا كانت البئر ناجحة ، و٪50 إذا كان الحفرية فاشلة . وارتفعت هذه النسب ابتداء من عام 1957 إلى ٪30 و ٪60 . وكذلك كانت السلط تعين على بناء الفساقي التي تتجمع فيها المياه أما من المطر أو من السيول . وكان عددها قد بلغ عام 1958 عشرة آلاف فسقية .

وقد احتل مشكل توفير المياه درجة عالية من الاولوية في سياسة الحكومة المستقلة ، فارتفعت كميات الدفق المسخر للاغراض الزراعية من أبار محدثة بنسبة 30٪ في الخمس سنوات الأولى 1956 — 1960 ، ثم ان المخطط التمهيدي الثلاثي قد رصد للاشغال المائية 40٪ من الرصود المالية المخصصة للزراعة .

أما بالنسبة للتشجير فان تطوره مساير لتطور الحفريات المائية الناجحة ، ومقترن بالإجراءات العقارية اقترانا وثيقا ، وقد اشرنا إلى ما نتج عن توضيح الأوضاع العقارية من تكاثر الغراسات في المناطق الجنوبية بعد صدور قانون 1957 الخاص بالأراضي العروشية .

هذا وقد كان سكان الجنوب ينتفعون ، ولو بنسبة قليلة من أصول الأشجار التي كانت توزع اما بأثمان رمزية أو بدون مقابل . غير أن هذا التوزيع كاد يكون مقصورا على أصول الزيتون . وكانت قروض الغراسة مضبوطة بقانون يجعل التحصيل على القرض متوقفا على اثبات الملكية الخاصة ، فلا يقترض إلا من كانت له وثيقة ملكية ، فيخرج بذلك جميع المستحقين في الأراضي العروشية وأراضي الوقف . ثم وقع تنقيح هذا القانون وأنشيء « صندوق عقاري » لتقديم القروض لهؤلاء المستحقين ، على أساس الحوز ، فقامت عقبة ثانية هي عقبة الإستقرار ومباشرة الأحياء ، أي ان القرض متوقف على مباشرة الاحياء والاحياء متوقف على الإستقرار بالارض وتسييجها ، وهذا الإستقرار بدوره متوقف على القرض... بحيث لم يكن هناك مخرج من هذه الحلقة .

وفي هذا الميدان أيضا أنشأت حكومة الإستقلال (البنك القومي الزراعي) وأدخلت على قانون التسليف الزراعي تحويرات هامة جعلت التحصيل عليه ايسر ، والإنتفاع به أشمل .

6 — تطور أوضاع الماشية :

تطورت الماشية في المناطق الصحراوية تطورا ملحوظا من حيث الطريقة الرعوية أولا ثم من حيث الأجناس الحيوانية .

فلقد كان الرعـي في النصف الأول من القرن الماضـي رعيا جماعيا لفائدة قطعان عديدة تشمل آلاف الرؤوس من الضان والمعز والإبل يقودها رعـاة متدربون ، تحت اشراف « قائد العزيب » الخبير بمواطن الرعـي وشؤون الماشية في رعيها للاصناف النباتية وفي جزّها وتناسلها . وكان هذا الرعـي الجماعـي خاضعا لقواعد رعوية أشبه ما تكون بطريقة الحمى المعروفة عنـد بادية نجد ، وبطريقة الرعـي الدوري العصرية ؛ ليس في رعيها استنزاف للطاقات النباتية ولا تعطيل لتجديد الأصناف الموسمية ، ثم تدرج الرعـي إلى الطريقة الإنفرادية وتعددت القطعان العائلية الصغيرة الحجم ؛ فأصبـح القطيـع لا يتجاوز المائة شاة وبعض المعز والإبل ، وربما انحط إلى ما دون هذا العدد . فـكان هذا الرعـي المقسم أكثر اتلافا للمراعـي ، لتشتت مواقعه ، ولافراطه في النيل من جهة واحدة . ولا شك انها توجد صلة وثيقة بين عدد الرؤوس في القطيـع الواحد ، وتنوع الأجناس من جهة ، وبين الاسلوب الرعوي من جهة ثانية ، فيما يهم بالخصوص القدرة على التنقل . فمن البديهـي أن ثمن «العشابة» أي اكتراء المراعـي في الجهات المطرة ناحية سيدي بوزيد من بلاد الهمامة أو ناحية القيروان من بلاد جلاص ، لا يقدر عليه سوى أصحاب القطعان الـكبيرة التـي لا تنحط اعدادها دون المستوى الأدنى للجدوى ، ويعجز عنه صاحب القطيـع الضعيف الذي ينحط عدد ماشيته دون هذا المستوى . ويصبـح صغر الحجم عاملا من عوامل الضعف ، ويترتب عن ذلك الضعف تضييق في مدى الظعن ، وميل إلى المسافات القصيرة التـي لا تزيد على مسيرة يوم أو يومين .

ثم ان التغير الحاصل في القطيـع قد نالها من حيث تركيبها ، فقد تناقص قطيـع الإبل ، وزهد الناس في تربية هذا النوع من الماشية بسبب الإستغنـاء المتزايد عن هذا الحيوان وانحطاط اثمانه في الأسواق من جراء مزاحمة وسائل النقل الحديثة ، ومن جراء تعطيل تجارة القوافل وتحول العشائر البدوية عن الـكثير من عاداتها في الغذاء والملابس والسكن وقد كان للابل من قبل دور

كبير في ذلك بلحومها والبانها وبوبرها وجلودها . ولا شك في أنه بين عدد الإبل المشتمل عليها القطيع وبين مدى مسافات ظعن ذلك القطيع صلة مباشرة فاذا قل عدد الإبل أو ضعفت نسبته في تركيب القطيع قصر مدى الظعن ، وتغيرت نوعية المراعي التي يمكن ارتيادها .

وهكذا فان ضعف الطبقة الوسطى من المربين ، بسبب التغييرات الحاصلة في أهمية القطيع ونوع تركيبه ، كان مدعاة إلى قيام طبقة عديدة من صغار المربين يحول ضعفها الذاتي وتشتت امكانياتها دون الإسترسال في تربية الماشية حسب الخطوط الواسعة للظعن . والفقر حينئذ سبب من الأسباب المعينة على التوطين في صفوف العشائر البدوية . وفي الجدول التالي دلالة على ما آل اليه تركيب القطعان من ضعف العدد .

تناقص أهمية القطعان من الماشية
(احصاءات عام 1959)

الصنف العددي	مجموع الماشية	٪ من الجملة
دون 50 دابة................................	440.000	82 ٪
من 50 إلى 200 دابة	90.000	16 ٪
أكثر من 200 دابة	10.000	2 ٪

7 — العوامل الصناعية :

نعني بالصناعة الإمكانيات الجديدة التي انفتحت في وجه الصيد البحري بسبب تزايد الطلب داخل البلاد التونسية وخارجها لمنتوجات السواحل من نشاف وسمك على اختلاف أنواعه ، وما دعا إليه انتشار هذا الطلب من قيام مصايد بحرية هامة خاصة في بحيرة جرجيس ، موطن عكارة ، وفي خليج قابس وعلى سواحل جزيرة جربة ، وما افضى إليه هذا النشاط من انشاء مصانع لتصبير السمك وتعليبه خاصة في مدينة قابس . وقد أوجدت هذه الصناعة

تشغيلا لستة آلاف من العاملين . ونعنـي بالصناعة أيضا وبالخصوص المناجم التـي وقع اكتشافها في منطقة قفصة عام 1886 للفسفاط . فقد بدأ الإستغلال في مناجم قفصة عام 1889. وتـكونت لذلك أربعة مراكز لم تلبث أن اصبحت مواطن عمران هامة . خصوصا في المتلوي التـي يبلغ عدد سكانها 9840 من أولاد مبـارك ومبـروك وأولاد الوصيف ، وفي الرديـّف التي يتقـاسمها أولاد عيسى 6303 وأولاد نصر 5214 وفي أم العرائس والمضيلة . وتساهم المناجم في التشغيل بنسبة 26٪ أي في المرتبة الثانية بعد الفلاحة . ويبلغ عدد المشتغلين بالمناجم اليوم 39.747 من بينهم 17.767 عاملا تونسيا ، والبقية من الجزائريين من أهل سوف وبلاد القبائل ، ومن الليبيين والمغاربة . أما العمال التونسيون فأكثرهم من الهمامة (أولاد سيدي عبيد ، وأولاد بويحيا ، وأولاد نصر) .

وقد استوجب النشاط المنجمـي انشاء خط حديدي للنقل يربط بين قفصة وميناء صفاقس ، وقد وفر هذا الخط مناسبات عديدة للتشغيل تزيد على الثلاثة آلاف بالقياس إلى التونسيين . والمهم بالنسبة لهذا القطاع الصناعـي هو التغيير المحسوس الذي ادخله على الموارد بالقياس إلى عدد متوسط من العائلات ، وما ادخله على الإقتصاد البدائـي من تنويـع في الموارد وفي القطـاعـات الملحقة من تجارة ، وبناء ، ونقل . وما أصبـح مدعاة له من الوان التخصص المهنـي .

ولعل دور القطاع الصناعـي في تغيير العقلية البشرية والحث على التاهيـل الفنـي وفي الاسراع بتطوير الأوضاع الإجتماعية وخلق عقلية اقتصادية جديدة كان أهم من دوره الحسابي في توفير هذه المبالغ من الدخل الإضافي . ثم أن النشاط المنجمـي والحديدي كان مدعاة لقيام طبقة عمالية ، ميـّزها الوعـي للمشاكل الإجتماعية والإقتصادية عن بقية فئات المناطق الصحراوية ، واصبـح لهذا الوعـي اشعاع في مناطق قفصة وحتى بالنسبة للطبقة العمالية التونسية كافة . وبالرغم عن ضعف عدد منخرطيها بالنسبة إلى العمـال في سائـر القطاعـات الإقتصادية فان جامعة المناجم لم تزل منذ ثلاثين عاما من انشط الفئات العمالية في المنظمات النقابية للعمال وخاصة في صفوف الإتحاد العام التونسـي للشغل .

8 ــ العـوامل الإجتمـاعية :

التعليم من أهم العوامل الإجتماعية التـي اعانت على توطين العشائر البدوية الظاعنة ورغبت لها الإدماج في الحياة القومية . يستخلص ذلك من الطابـع الخاص الذي اشتهرت به العشائر البدوية في الجريد ونفزاوة وفي قفصة والأعراض من الرغبة العريقة في تخريـج الناشئة على حفظ القرآن الـكـريم والأحاديث النبوية وعلى حفظ المتون ورواية الشعر . فلقد كانت واحات الجريد وقفصة ونفزاوة ديار علـم ، كثـرت فيهـا الـكتاتيب لحفظ القـرآن والمساجد للعبادة والتعليم التقليدي ، وتخرج منها الـكتاب والشعراء وعلمـاء اللغة ، والمتفقهون في الدين . وقد رأينا ما للوظائف الإدارية من أهمية في الموارد الجهوية حسبما يتضح ذلك من الجدول 3 . ثم ان هذا الميل التقليدي إلى المعرفة قد تجددت قوته بسبب الإحتلال الأجنبـي للبلاد ووطأة ذلك الإحتلال على المناطق الصحراوية ؛ ومن الأثار القوية للاحتلال الفرنسـي بشمال افريقيـا اشتداد التمسلك بالقيم الدينية والتعويل على التراث الحضري القديم في الدفـاع عن الذاتية القومية ، وحفظ الناشئة من الإندماج في صفوف الدخلاء . بل ان هذا الحرص على الذاتية القومية ربما كان في أول الأمر عاملا على تزهيد الأباء في الحاق صبيتهم بالمدارس الدولية الفرنسية ، حيث تدرس اللغة الفرنسية ، والميل بهم إلى كتاتيب القرآن واللغة العربية . ثم أن الرغبة في الإلتحاق بالوظيفة العمومية والحرص على « ضمان المستقبل » كان هو الآخر عاملا قويا على « التضحية » في سبيل تعليم الأبناء ، والإستقرار في المراكز التـي تتوفر فيهـا أسبـاب التعليـم .

وقـد رسمنـا في الجدول الموالي حـالـة التعليم اليوم بالمنـاطق الصحراويـة واختـرنا السنتين الآخيرتين لملاحظـة نسبـة التزايـد في انتشـار التعليم بالمنـاطق الصحراويـة :

احصاءات التعليم في المناطق الصحراوية

	قابس		قفصة والجريد		مدنين (الجفـارة ونفزاوة)		الجملة
	1963 64	1964 65	1963 65	1964 65	1963 64	1964 65	1964 65
عدد المدارس	83	145	90	152	121	133	368
عدد الأقسام	650	727	1012	1105	782	843	2675
عدد الغرف	348	394	549	593	390	454	1441
عدد المعلمين	453	518	733	786	520	609	1913
عدد التلاميذ	26.355	29.909	39.656	43.931	28.441	33.573	107.413

ومن الجدير بالملاحظة أن التعليم أصبح اليوم يشمل أكثر من ٪60 من عدد الصبيان ذكورا وإناثا الذين هم في سن التعليم ، في حين أن تلك النسبة لم تكن تبلغ ٪25 عام 1955 قبل الإستقلال بعام . ويقتضي مخطط التعليم الذى دخل في عامه الخامس ان يتم تعميم التعليم في كامل البلاد عام 71 — 1970 الدراسيـة .

تنبغي الإشارة في باب العوامل الإجتماعية ، إلى الدور الكبير الذى لعبته ، في توطين العشائر البدوية ، ظاهرة الهجرة إلى المدن . وقد رأينا في التحليل الإقتصادي ما للهجرة من مساهمة ذات بال في الموارد الجهوية ؛ وتجدر الملاحظة إلى ما في اختيار الهجرة عن البيئة الإجتماعية المالوفة من رغبة الإندماج بالحياة القومية ، وما لمواردها من تشجيع على الأخذ باسباب الكسب الزراعي

المتطور ، إذ كثيرا ما تنفق هذه الموارد المستجلبة في اقتناء المزارع وفي انشائها وتحسينها . ومع الأسف ليس لدينا تحليل مضبوط في عينة من العينات الجهوية بالمناطق الصحراوية تعين على توضيح هذه الظاهرة الجديرة بالبحث .

9 – تظافر العوامل :

لا جدال في ان جميع هذه العوامل السياسية والإقتصادية والإجتماعية لا تتساوى في قوة التأثير ولا في شموله ، بل الأرجح انها متفاوتة الأهمية بهذا الإعتبار ، وان انشاء الأبار في مناطق نفزاوة وتوفير كمية إضافية من المياه يبلغ دفقها 500 ل/ث ، لا يعادل مفعوله توفير مثل تلك الكمية في الأعراض أو في مفاضات قفصة . ذلك ان البئر المحدثة إنما تدخل على واقع سابق ، له خصائصه الجغرافية من حيث نوعية الأديم واتجاه الرياح وشبكة المواصلات ، وله خصائصه الإقتصادية من حيث الإمكانيات المالية والتنوع الزراعي في الأفاق المحيطة ، ثم له خصائصه البشرية من حيث الكثافة العمرانية وطرائق الأحياء الزراعي المألوفة ، وامكانيات التسويق... وليست جميع تلك الخصائص متشابهة في النوع ولا متساوية في القوة بين مختلف المناطق الصحراوية وما كان للفصل الأول عن المعطيات الجغرافية من غاية سوى ان يعين على لمس ما بين تلك المناطق من فوارق اقتصادية واجتماعية .

ولا جدال في ان الماء من اكبر العوامل على التوطين ، لان الماء خلاق للشجرة ، والشجرة – كما رأيناه بالنسبة للجبالية مدعاة لاتصال الحضور ودوام العناية . غير أن لهذا الماء كمية من الدفق الصالح للاستعمال ، ثم هو يتصف بمحلولات كيمياوية تتفاوت في التركيب وفي النسبة المائوية . وما كل المقادير كافية للتوطين ولا للادماج . فقد دلت التجارب على أن للماء في كمياته مستوى أدنى نستطيع أن نطلق عليه اسم « الدفق الأدنى للتوطين » . وقد لاحظنا ذلك بالقياس إلى مناطق المرازيق والغريب والعذارى بجهة نفزاوة ، حيث لا يزيد

دفق الأبار والعيون على أرقام منخفضة ، لم تـكن ميسرة لقيام واحات كبرى ، من شأنها ، إذا توفرت لها عوامل إضافية ، إن تبلغ إلى مرتبة واحات الجريد أو الأعراض في الإستقرار والإشعاع وفي درجة اندماج العشائر البدوية بالحياة الـزراعية الـريفيـة .

ثم ان الماء عامل مهيمن ، إذا بلغت كمياته المتوفرة الدفق الأدنى للتوطين. لـكن هذا العامل لا يقوم بدوره في تيسير الإستقرار وفي خلق الحياة الزراعيـة إلا متى اقترن بعوامل أخرى ، لها أهميتها .

ومن أكبر هذه العوامل الإضافية طرق المواصلات فيما لها من امتداد وما تشقه من بلاد . فقد انشئت الأبار في أقصى الجنوب التونسـي وكان لها دفق مرتفع جدا يبلغ 190 ل/ث بالقياس إلى بئر سلطان مثلا ، وكان تركيب الماء فيها صالحا . إلا أن هذه الإمكانيات لم تـكن مجلبة للتوطين ، لانقطـاع موقعها عن المواطن المالوفة للعشائر البدوية من التوازين ، ولتعسر الطـريـق المـؤ ديـة اليهـا .

كل هذا يحمل على الإعتقاد بـان توطين العشائر البدويـة لا يـكون توطينا استقراريا ميسرا لاندماج تلك العشائر في الحياة الريفية إلا متى كان نتيجة لعوامل متظافرة ، متوحدة في الإتجاه ، متفاوتة في الأهمية ، تصادف في الوسط العشائري بيئة مؤاتية ، كوّنتها ظروف اقتصادية واجتماعية ، قد تـكون سلبية ، مثل تزايد الحاجيات وتناقص المقدرة الشرائية للانتاج الحيوانـي ، وقد تـكون إيجابية مثل تأصل التعلق بالمعرفة أو انتشار الوعـي القومـي على حساب الإنـكماش القبلي والإنعـزال الجهـوي .

ذلك التظافر بين العوامل هو الذي نعتقد أنه جعل استيطان العشائر البدوية التونسية ميسورا ، بسبب ما وجده من بيئة اقتصادية واجتماعية مؤاتية .

الخـــــاتمـة

ليس توطين العشائر البدوية غاية في ذاته ، ولا يجب أن يكون . انما الغاية الحق هي الرفع من مستوى العيش لطائفة من المواطنين رابطوا احقابا طويلة بالثغور الجنوبية لتراب الوطن فدلت مغالبتهم الطويلة لطبيعة قاسية على طاقات بشرية متجددة ، ودل صبرهم على البيئة الصحراوية في وجه الرمال العاتية ، وتعلقهم بافاقهم المألوفة ، أفاق الخصاصة والتقشف ، على قوة الوفاء وتأصل الإخلاص . إنما الغاية الاصل ان تنسجم العشائر البدوية في الحياة القومية ، فتزول عن القومية هذه الجوانب الهامشية ، وان يرتد بذلك للوطن توازنه العمراني والإجتماعي . فيعود التكامل بين المناطق الصحراوية وبين وسط البلاد وشمالها ، في نطاق اقتصاد قومي شامل ، متكل على جميع جهاته المنتجة ، موزع بينها لجميع أسباب التنمية البشرية والمالية ، على حسب طاقاتها .

ذلك ان مشكلة البداوة في جنوب البلاد التونسية ظاهرة ساطعة لما ظل قائما طيلة القرنين الماضي والحاضر من اختلال بليغ في التوازن الإقتصادي بين جهات البلاد ، ومن تصدع خطير في الجسم الإجتماعي . فقد كانت الجغرافية الإقتصادية موصومة بنوعين من الإختلال : يفصل أولهما بين السواحل الشرقية والشمالية (أو ما يسمى بالمناطق البحرية) وبين الربى والسهول العالية الغربية ، ويميز الإختلال الثاني بين المناطق الشمالية ، وبين المناطق الوسطى والجنوبية . وكان الانخرام الأخير على الخط الشمالي الجنوبي أشد في التفاوت والتناقض بين تقدم الشمال ودخوله في الإقتصاد العصري وبين تأخر الوسط والجنوب وركودهما في الإقتصاد الغذائي . ويعود هذا الإختلال إلى عوامل طبيعية متعلقة بكميات الأمطار ومواسم نزولها ، وبكثافة الغطاء النباتي وتوزيعه ، وبعمق الأديم وخصبه ، وبالكثافة العمرانية وتعدد المدن ، غير أن السياسة الإقتصادية التي سلكها البايات ثم تفننت فيها الحكومة الفرنسية قد أعانت على تفاقم الإختلال بين سهول شمالية آهلة بكبار الملاكين ما بين

تونسيين وأجانب وبين وسط وجنوب هو موطن القبائل المشكوك في ولائها فظل الشمال محل عناية السلط الفرنسية فيه تنفق معظم الرصود المالية (14) ، وقبع الوسط والجنوب في فقره ، بل أصبح يزداد فقرا عاما بعد عام ، وتوالت أمواج المهاجرين الهاربة من توالي الجدب ومن قسوة الضرائب الدولية، وتكاثر صعودها على الطرقات صوب الشمال .

ذلك أن مناطق الثروة ، إذا كانت قائمة على اختلال التوازن بينها وبين ما جاورها ، لا تلبث أن تصبح مقصد المهاجرين ومجلبة للمزيد من العاطلين ، كما تصبح مقصد الأموال واليد العاملة المختصة الفارة من مناطق الفقر ، حيث لا يجد رأس المال نشاطا مجديا ، ولا تجد الطاقة الفنية ميدان الإستعمال الدائم ولا الموارد القارة . فتزداد الجهة الفقيرة فقرا وتتفاقم الإمكانيات في الجهات المتقدمة حتى تشرق بها وتغص بالإكتظاظ العمراني ؛ ويتسارع نموها مع تزايد مشاكلها في الإسكان والتشغيل وفي التعليم والصحة ، وفي الامن ومقاومة الإجرام ؛ ويصبح النمو الإقتصادي القائم على اختلال التوازن بين جهات الوطن الواحد من جنس نمو الجسم المصاب بالسرطان .

لقد حصل توطين العشائر البدوية في وسط اقتصادي موصوم بهذا التفاوت الخطير ، والحقها الإدماج بمجتمع ريفي مصاب بالثنائية ، متعدد المشاكل ، جم المصاعب ، قلق الأوضاع . فلم يقترن ذلك التوطين بتخفيف وطأة الفقر ، ولا اسفر هذا الإدماج عن الرفع من مستوى الدخل . بل لا شك في أن تطور العشائر البدوية قدساير تطور المجتمع الريفي في طريق الفقر المتزايد أكثر من ثمانين عاما . ذلك ما دعا الى توجيه العناية ، من فجر الإستقلال ،

(16) انفقت الحكومة الفرنسية من عام 1944 الى عام 1954 نحوا من عشرين مليارا (من فرنكات عام 1954) في اشغال الماء بالمناطق الشمالية (انشاء سدود ، واقامة شبكة الصرف والتجفيف الخ...) وانفقت في نفس تلك المدة 150 مليونا من الفرنكات لانشاء الابار السطحية في الوسط والجنوب . اي بنسبة واحد الى 133 .

إلى المناطق المحرومة وسط الجمهورية وجنوبها ، وإلى التعديل بين الرصود المالية المخصصة لكل واحدة من جهات البلاد ، بغية اعادة التوازن بينها ، وإقامة النهضة الإقتصادية على تكامل المناطق المنتجة ، وتلاحق الجهات والقطاعات المتخلفة بالجهات والقطاعات التي تكون قد بلغت درجة أعلى من التطور . ولقد مرت سياسة الإصلاح الإقتصادي من عام 1956 إلى اليوم بمرحلتين اثنتين : مرحلة المبادرة والإسعاف ، ثم مرحلة التخطيط للتنمية الإجتماعية والإقتصادية المتوازنة .

وقد استفادت المناطق الصحراوية في الخمس سنوات الأولى ، قبل التخطيط ، نتائج طيبة ، خاصة في إنشاء الأبار العميقة ، وتيسير المواصلات والنقل ، واحداث « مراكز الاحياء الزراعي » حسب برامج زراعية مضبوطة، قائمة على الدراسات الطويلة للأديم والرياح وسائر ظروف الإنتاج الزراعي . وكذلك استفادت الشيء الكثير في إنشاء المدارس والمصحات والمستوصفات ومراكز الإستشفاء وفي تحسين المسكن واحداث القرى العصرية ، وتوفير مياه الشرب والنور الكهربائي . كما كان لسكان الجنوب نصيبهم العادل من الأموال البليغة التي انفقتها الحكومة في مقاومة البطالة وتحقيق التشغيل الكامل للكهول من الذكور مدة ثلاثة أعوام . فضمنت بذلك العمل والدخل القار لعشرات الآلاف من أبناء الجنوب ، وسخرت جهودهم في أشغال عمرانية تعود بالنفع على جهاتهم : مثل غرس الأشجار ، وتعبيد الطرقات وبناء المدارس والمساكن الشعبية ، واحداث « الطوابي » لحفظ الأديم ومقاومة الإنجراف ، وغيرها من الأشغال النافعة .

ولعل أبرز ما استفاد به سكان المناطق الصحراوية في هذه المرحلة الأولى كان في اجلاء الجيوش الفرنسية عن تلك المناطق ، وإعادة الطمأنينة إلى القلوب والثقة في المستقبل ، ثم تمثل في نوع آخر من تصفية رواسب الإستعمار ظهر في تأميم الشركات الاجنبية الكبرى التي كانت تستغل للثروات الزراعية

والبحرية والمنجمية (مثل شركة صفاقس قفصة المنجمية والزراعية ، وشركـة البيبان في جرجيس المنفردة باستغلال الثروة في منطقة كثيرة الأسماك...) .

ثم كانت بعد ذلك مرحلة التنمية الإقتصادية والإجتماعية الخاضعة لاحكام التخطيط ، فأصبـح تطور المناطق الصحراويـة مسايرا لتطـور سائـر مناطق الجمهورية ، متمتعا بنصيبه من وسائل التمويل وبقسطه من الإطارات الفنية في شتى ميـادين الصحة والتعليم والاحياء الزراعـي والصيد والسيـاحة والصناعات التقليدية ، وغيرهـا .

وقد مرت المرحلة الأولى من التخطيط ، إذ فرغت البلاد من المخطط التمهيدي الثلاثـي (1961 — 1964) وهـي اليوم آخـذة في انجاز المخطط الرباعـي . ولعل ابرز ما اقترنت به مرحلة المخطط التمهيدي هو مدّ أنبـوب النفط الجالب للخام الجزائري إلى السواحل التونسية الجنوبية ، عند مرفأ السخيرة في خليـج قابس ، ثم اكتشاف النفط في الصحراء التونسية ببلاد نفزاوة عنـد المكان المعروف باسم « البرمـة » . وسوف لا تظهـر النتـائـج القـارة لهـذا الإكتشاف إلا مع الزمن ، إذ من شأنه أن يدخل على اقتصاد المناطق الصحراويـة تغييرات عميقة ، سوف تنتقل بهذا الإقتصاد من المرحلة الزراعية إلى المـرحلة الصناعية ، وتمكن الجنوب التونسـي من المشاركة بصورة فعالة مجدية وعصرية في الإقتصاد العام ، وتصبـح المناطق الصحراوية قطب اشعاع بعد أن كانت مواطن ظعن وفرار وفاقة .

ولعل المخطط الرباعـي سيعين على ذلك بصورة فعالة ، إذ سيقوم هذا المخطط على مبدأ التنمية الجهوية ، الرامية إلى استغلال الطاقات والإمكانيـات الإقتصادية المعروفة لكل جهة من الجهات قصد تنميتها الذاتية أولا ثم بغيـة المساهمة في التنمية الشاملة للبلاد باعتبارها وحدة اقتصادية متـكاملة . وإذا كان المخطط التمهيدي قد صرف العناية إلى تنظيم القطاع الزراعـي بتوفير أسبـاب نهضته وبدراسة المراعـي الجنوبية دراسة شاملة ، وتنظيم أسواق المحاصيـل

الزراعية والبحرية والتقليدية في نطاق دواوين إدارية ، مثل ديوان الصيد البحري ، وديوان الصناعات التقليدية وديوان الأحياء الزراعي ، وديوان تجارة التمور وغيرها ، فان المخطط الرباعي سيولي اهتمامه القطاع الصناعي ويمهد الأسباب لتركيز صناعة كيمياوية ، وصناعة نفطية - كيماوية ، كما يواصل عنايته بالقطاعات السابقة من زراعة وصيد وصناعة تقليدية مع منح درجة من الأولوية لصناعة السياحة الخارجية .

واعتقادنا ان هذه التنمية الصناعية بمناطق الجنوب الصحراوي ، ستوفر مزيدا من الإمكانيات لنمو الزراعة ، وبالخصوص في تسميد الأرض وتخصيبها وفي استخراج المياه والحرص على الإقتصاد والجدوى في استعمالها ، كما ستوفر سوقا أوسع من الإستهلاك ، وامكانيات أوسع لتمويل المشاريع . وهكذا تقوم النهضة الإقتصادية لمناطق الجنوب على أساس التكافل بين التنمية الصناعية والتنمية الزراعية . فيرتقي الإندماج بالذين كانوا عشائر بدوية واختلطوا بالحياة الريفية في النصف الأول من هذا القرن ، إلى المستوى القومي العام وتنفرج عن اقتصادهم ازمة التبعية ، ويبلغ إلى درجة الترشد والكفاءة الإجتماعية للنهوض باعباء التطور الحق ، التطور بالإنسان رعاية لكرامته . وصونا أصوليا لحرمته .

محاولة فى الخط المغربى (*)

تأليف : أ. هوداس

تعريب : عبد المجيد التركي

[ص 85] ان قصدي من تحرير هذا الموجز القصير هو البحث عن أصل الخطّ العربي المستعمل حاليا في جهات المغرب ، وتتبّعُ نموّ الإختلافات الرئيسيّة التي تولّدت منه ، وتصنيفُها على شكل محكم .

ويقينا أن الشعوب البربريّة في شمال افريقيا كانت وقت الفتح العربي ، قد أهملت تماما استعمال لغتها القوميّة ، وأنّها لم تتبنّ — وذلك على الأقلّ في مستوى القاعدة العامّة — لغة إحدى الأمم التي احتلّت بلادها في عصور مختلفة ؛ أضف إلى ذلك أنّ البربر لم يظهروا قطّ ذوقا شديد الإرهاف لشؤون الفكر ، وأنّ ثقافتهم العقليّة كانت دائما من ذوات المستوى الأوّلي ؛ فلا نعرف لهم أي أثر أدبي طريف حرّروه بلغتهم ؛ وإن كانوا قد ألّفوا شيئا آخر سوى الأغاني والحكايات الشعبيّة ، فذكره لم يمتدّ ليصل إلينا .

(*) [• اقدمنا على تعريب هذا البحث ، لما يلاحظه الباحث من قلة في المصادر عن الخطوط العربية عامة ، والمغربية خاصة . ثم ان هذه المحاولة ـ وقد وقع عليها اختيارنا من بين المؤلفات الفرنسية القليلة ، هي أيضا ـ قد مرت على نشرها ثمانون سنة ، فاصبحت ـ لقدم عهدها ـ نادرة الوجود ، وذلك في تونس على الاقل . وشعورنا أن ما تحويه من معلومات جدير ـ وما يزال ـ بأن يُقدّم

ولـكن ، لعلّ الحوليّات المنسوبة لِـهيمبسال Hiempsal والّتي نقلها سلّوست Salluste ، كانت محرّرة بالبربرية ومخطوطة بها ، وإن كان مؤرّخُ يوغرطة Jugurtha ينصّ حرفيّا (1) على أنّها [ص 86] كانت

باللغة العربية على صفحات هذه المجلة الجامعية المفتوحة لكل الباحثين ، عسى أن تساعدهم على حل بعض المشاكل في تحقيق المخطوطات .

وقد دفعنا الى بعض التعاليق وضعناها بين معقفين [ ] والى تقديم بعض صور لخطوط مغربية نقلها لنا الشيخ محمد الشاذلي النيفر الأستاذ بكلية الشريعة وأصول الدين بالجامعة التونسية ، من مخطوطات مكتبته الخاصة ، فله منا جزيل الشكر وخالص الامتنان . ويقيننا أن هذه الاضافات من التعاليق والصور لا تمس شيئا من جوهر المقال ، وانما هي زيادة بيانات بدت لنا مفيدة ومناسبة للمقام .

ونشر هـذا البحث في **المجاميع الشرقية الجديدة** (مؤتمر فينا سبتمبر 1886)
Nouveaux Mélanges Orientaux — Congrès de Vienne (Septembre 1886).

وعنوانه بالفرنسية *Essai sur l'Ecriture Maghrébine* وهو في فصلة عثرنا عليها صدفة ، ويقع في 28 صفحة ، الواحدة ذات 31 سطرا ، وتضاف اليها ثلاث صفحات لثلاث لوحات او ست صور تمثّل نماذج من الخطوط المغربية .

والمؤلف أ ـ هوداس (O. Houdas) كان اذ نشر هذا المقال أستاذا بالمدرسة القومية للغات الشرقية الحية بباريس .

وسمي بعد ذلك مفتشا لعموم مدارس الجزائر ، وعضوا في شورى المعارف العمومية وفي اللجنة التاريخية بقسم تاريخ المغرب .

وكانت ولادته سنة 1840 وله نشاط كبير في ميدان الاستشراق الفرنسي ، فقد نشر مخطوطات عن تاريخ السودان والمغرب الأقصى والأندلس ، وترجم كتبا في الحديث والفقه بالاشتراك مع غيره من المستشرقين ، والف في النحو وكَتَب عن الخطوط والنقوش . انظر تفصيل هذه البيانات وخاصة قائمة كتب هوداس في :

معجم المطبوعات العربية والمعربة : يوسف اليـاس سركيس (1928/1346) ص 1901 ـ 1902

المستشرقون : نجيب العقيقي ـ (دار المعـارف بمصر في 3 اجـزاء 1964 ـ 1965) الجـزء الاول ص 218 و 219 وفيه تاريخ : 1916 لوفاة هوداس .]

(1) وهذا نص سلوست : « Sed qui mortales initio Africam habuerint, quique postea accesserint, aut quomodo inter se permixti sint, quanquam [ص 86] ab ea fama quæ plerosque obtinet diversum est, tamen uti ex *libris punicis*, qui regis Hiempsalis dicebantur, interpretatum nobis est, utique rem sese habere cultores ejus terræ putant, quam paucissumis dicam :

« من هم أول سكـان افريقيـا ؟ من أتى من بعد ، من الأمم ؟ كيف اختلطت هذه الأجنـاس المختلفة ؟ ان لي بهذا الصدد رأيا مخالفا لما يقبل عـادة من الآراء ، لقد ترجم لي بعض المؤلفـات الى اللغة الفنيقية ، وهي آثار تُحسب للملك هيمبسال ، وهي بالاضافـة الى ذلـك تحوي عوائد سكـان البـلاد » .

سلّوست Salluste (Caius. Sallustius. Crispus) مؤرخ لاتيني (86 ـ 34 ق م) أشهر مؤرخي الادب الرومـاني دقة وايجـاز وعمقـا ، ألف كتابـا عن حيـاة يوغرطة واشتغل بالسياسة وولي على افريقيا وحصل على ثروات فاحشة

(*Nouveau Larousse Universel* (Paris 1948) T. II 726).

هيمبسال : ملك نوميديا ، حفيد ماسنيسا . عاش في القرن الأول قبل المسيح ، قتله ابن عمـه يوغرطة (انظر **نفس المصدر** الجزء الأول ص 928 وص 1051)

باللغة الفنيقيّة ؛ إلاّ أنّه من السهل أن يقع المؤرخ في خطإ من هذا القبيل ، إذا لم يستطع أن يقرأ بنفسه النصّ الذي بين يديه ؛ ومهما كان الأمر ، فقد يكون الوثيقة الوحيدة المكتوبة بالبربرية التي ورد ذكرها في المصادر القديمة .

ولمّا حمل الفاتحون المسلمون دينهم وشرائعهم إلى سكّان المغرب ، فرضوا في الحين نفسه وجوب استعمال اللّغة العربيّة ، وذلك على الأقلّ كلغة دينيّة ؛ وإنّ البربر الذين لم يكن لهم قط في ذلك العهد ، كتابة خاصّة ، قد قبلوا الخطّ العربي بدون صعوبة ؛ وهو الملائم لعبقريّة اللّغة العربيّة أحسن من أيّ خط آخر ؛ وعندما خطّوا حروف الأبجديّة الجديدة ، لم يستطيعوا قط التفكير في تغيير الشكل منها حتّى يقرّبوه من شكل كتابتهم القديمة .

وإذ كان الدعاة المسلمون الأوّلون أكثر بأسا منهم علما ، فقد اكتفوا بتعليم المغلوبين عقيدة الإسلام المتناهية في اليسر وصِيَغ الصلوات الممعنة في الإيجاز ؛ وفيما بعد فقط ، اتخذت الدعوة طابعا أكثر تعقّدا ؛ واحتاجت الشريعة والقانون حينئذ إلى مؤوّلين أوسع دراية حتّى يُطَبَّقا بكل دقّة ؛ وبداية من أواخر القرن الأوّل للهجرة ، تأسّست بالقيروان جامعة كبيرة هُيّئت لتكوين العناصر اللازمة لتسيير التشريع الجديد على شكل منتظم ؛ وسرعان ما وفد طلبة عديدون على مدينة عقبة (2) ، حيث أخذ علماء مبرّزون قدموا من مدارس الكوفة والبصرة الكبرى ، في تعليم التوحيد وفقه الفروع [ص 87] ، أي العِلمَين الحقيقيين في نظر المسلمين الصالحين .

[(2) عقبة بن نافع بن عبد قيس الفهري ، ولد على عهد النبي ، ولكن لا تصح له صحبة ، وجهه معاوية بن أبي سفيان الى افريقية سنة 670/50 فاختط بها مدينة القيروان ، وأقام بها ثلاث سنين ، وقتل سنة 682/63 (انظر : **الاستيعاب في معرفة الأصحاب** لابن عبد البر النمري الأندلسي الجزء الثالث ص 1075 ـ 76 ـ 77 رقم 1830 (تحقيق البجاوي . نسخة في اربعة اجزاء القاهرة 1960/1360)]

واحتلّ مذهب مالك الصدارة ، خاصّة في الجامعة الجديدة ؛ وحصل أسد بن الفرات (3) أولا ، ثم سحنون (4) ثانيا ، بتـآ ليفهما ، على شهرة واسعة ؛

(3) أسد بن الفرات : قاضي القيروان في 849/204 وهو مؤلف كتاب في الفقه المالكي عنوانه : **الأسديـة** . وعن حياته انظر : أماري : **تاريخ المسلمين في صقلية** . الجزء الأول ص 254 .
Amari [Michel 1806-1889] *Storia dei Musulmani di Sicilia*. T. I. P. 254.

[نحيل لتراجم المستشرقين على كتاب نجيب العقيقي ، دون بيان الاجزاء والصفحات]

و : أ. هوداس ، ر. باسي : بعثة علمية الى تونس (الجزائر 1884) ص 116
O. Houdas et R. Basset [1855-1924] *Mission Scientifique en Tunisie* (Alger

[أبو عبد الله أسد بن الفرات : 762/145 – 828/213 . سمع بمصر عن ابن القاسم وعنه دوّن **الاسديّة** . وكانت على مذهب أهل العراق . ثم رجع للمدينة ليسمع ثـانية عن مالك ويسأله عنها ، فألفاه تُوفي ، وعنه أخذ أبـو يوسف صاحب أبي حنيفة ، موطأ مالك ، ومـات محـاصرا لسرقوسة في غزوة صقلية وهو أمير الجيش وقاضيه ، انظر : **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية** للشيخ مخلوف . (القـاهرة 1350) ص 62 رقم 37 . وتـوجد بالمكتبة الأثريـة بالقيروان قطعـة **من الاسديـة** ، وهي كتاب السرقة وقطع الطريق عن محمد بن ابان عن المغفر بن منصور عن أسد ابن الفرات عن محمد بن الحسن عن أبي يوسف عن أبي حنيفة (من رقم 1035 الى 1057) كما توجد قطعة من كتاب **المبسوط** لمحمد بن الحسن الشيباني روايـة أسد بن الفرات القيرواني (من رقم 810 الى 875) (انظر محمد البهلي النيال : **المكتبة الأثريـة بالقيروان** – (تونس 1963 . منشورات دار الثقافة) ص 37 – 38]

(4) تأكد أن **مدونـة** سحنون ما هي الا نسخة من **أسديـة** أسد بن الفرات ، الا أن صيت سحنون كمفت أبعد من صيت أسد الذي أولى أن يعرف كفاتح لصقلية . [أبو سعيد عبد السلام سحنون ابن سعيد بن حبيب التنوخي القيرواني ، أخـذ عن كثيرين منهم علي بن زيـاد وأسد بن الفرات وابن القاسم وابن وهب .

ولد في 776/160 وتوفي في 854/240 ، رحل الى المشرق في 803/188 ونسخ **الأسدية** ورحل بهـا الى ابن القـاسم فقرأها عليه ، فرجع عن مسائل كثيرة كان قد أفضى بها لأسد ، وكتب الى أسد أن يصلح كتابه على ما في كتاب سحنون ، فانف من ذلك .

تولى سحنون القضاء في 848/234 بعد أن راوده محمد بن الأغلب ، سنة كـاملة ، على ذلـك ، وتوفي وهو على القضاء وقبره بالقيروان معروف .

انظر **شجرة النور** ص 69 – 70 رقم 80)

وبالمكتبة الأثرية بالقيروان (**نفس المصدر** . ص 38 – 39 – 41) هذه المخطوطات :

كتاب **البيوع من موطأ مالك** روايـة عبد الرحمـان بن القـاسم بروايـة سحنون بآخـره نقط (رقم من 1342 الى 1353) الجزء الخامس والجزء الرابع من كتب **الحج** لأشهب بن عبد العزيز المصري رواية أبي سعيد سحنون بن سعيد (رقم من 1083 الى 1124) ، قطعة من المدونة بهـا سماع مؤرخ في 918/306 وبها تعداد كتب أشهب ، سماعات بخطوط أصحابها في آخر ورقة من كراس من جزء من **المدونة** وهو كتاب الايمان بالطلاق (رقم من 1786 الى 1787) ، **الموطـأ** رواية سحنون بن سعيد القيرواني عن عبد الرحمان بن القاسم (نسخة جيدة بدون عدد)]

وأصبحت **مدوّنة** سحنون حجّة في المغرب بأكمله إلى أنْ مكّن سيدي خليل «5» المذهب المالكي من شكل نهائي وتام (5) .

وإن أدخل يحيى بن يحيى (6) من قبل ، المذهب المالكي إلى الأندلس ، فقد ظلّت القيروان طويلا المركز الحقيقي للمالكيّة ؛ وكان أن تكوّن ، في

[(5) خليل بن اسحاق بن موسى بن شعيب الجندي ضياء الدين أبو المودة ، من كبار الأئمة المالكية ، له عدة مؤلفات في الفروع أشهرها المختصر ، توفي بمصر ودفن بالقرافة الكبرى في 1348/749 (**الديباج المذهب** لابن فرحون (الطبعة الأولى .القاهرة 1351 هـ) ص 115 – 116 ، او 667 (**نيل الابتهاج** لأحمد بابا (طبع على هامش **الديباج** . الطبعة المذكورة ص 114) او 769 (ن. م.) أو 776 (ن. م. وهو المرجع عنده) : انظر أيضا **شجرة النور** ص 223 رقم 794 .]

[راينا من المفيد ان نفصل بعض الشيء ما اورده صاحب المقال – عن قصد – غاية في الايجاز وذلك بتعريب بعض فقرات من اطروحة ر. برنشفيك . تصور هذا التحول من المصادر القيروانية الى المصادر المصرية في مدارس المغرب عامة وتونس الحفصية خاصة :

« كان الفقه الذي يشمل باوسع صورة العقيدة والشريعة معا . محل العناية الاشد
« امتدادا واتصالا لدى الطلبة الجديين . فكان يُعتمد في التدريس للمبتدئين في المذهب المالكي
« **رسالة** ابن ابي زيد القيرواني ، ثم ينتقل لدراسة هذا او ذاك من المختصرات الشرقية ، وخاصة
« **تفريع** ابن الجلاب ، **وتلقين** تلميذه عبد الوهاب او **المختصر** المتاخر لابن الحاجب ، وكان الطلبة
« الأكثر تقدما يطالعون نص **مدونة** سحنون عينه ، او كتب قيرواني آخر البراذعي ، اى **التهذيب**
« **والتمهيد** الملخصين **للمدونة** والشارحين لها ، وقد كان لهذا القرن الخامس عشر الحفصي ان يشهد
« بداية ما كان من حظ للمختصر المصري لسيدي خليل الذي كتب في القرن السابق واعد بشروحه
« لحَجْب معظم المختصرات الأخرى باستثناء المختصر الابتدائي ، **الرسالة** » الجزء الثاني ص 365)

R. Brunschvig : *La Berbérie Orientale sous les Hafsides des origines à la fin du XV^e Siècle.* T. II p. 365. (Paris 1947).

انظر ايضا المقال : **الوجهة الثقافية في تونس** لمحمد البشير النيفر (وصوابه محمد الشاذلي النيفر) **مجلة الأزهر** (القاهرة) الجزء الثالث . السنة 35 ص من 284 الى 289 . وخاصة 285

(6) يحيى بن يحيى مفتي قرطبة توفي في 840/226 وكان قد اخذ عن مالك مباشرة واول من درس مذهب استاذه في الأندلس .

[أبو محمد يحيى بن يحيى بن كثير الليثي القرطبي ، توفي في 848/234 اما الذى توفي في 840/226 فهو ابو زكرياء يحيى بن يحيى النيسابوري بن بكير التميمي من فرع العراق ، والظاهر ان صاحب المقال خلط بينهما في تحقيق سنة الوفاة (انظر **شجرة النور** ·· ص 63 ر 46 وص 58 ر 23) ، وعد الشيخ مخلوف من اساتذة يحيى الليثي ، غير مالك ، عددا كبيرا كابن وهب ، وابن القاسم والليث بن سعد ، كما عد من تلامذته ابن حبيب والعتبي وابن مزين وابن وضاح وبقي بن مخلد ، واكد ان به وبعيسى بن دينار انتشر مذهب مالك بالأندلس .

ولم يذكر أنه تولى افتاء الأندلس . وكل ما يذكره الخشني في **قضاة قرطبة وعلماء افريقية** (ط. القاهرة 1372 هـ) ص 15 . 16 ، والنبا هي في تاريخ قضاة الاندلس : **المرتبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا** (ط . ليفي بروفنسال – القاهرة 1948) ص 14 – 15 ان الامير عبد الرحمان بن الحكم ألح عليه في قضاء قرطبة فرفض رفضا باتا.

ويذهب ليفي بروفنسال في الجزء الثالث من تاريخ الاندلس ص 475 الى ان « يحيى بن يحيى الذي انتصب منتصف القرن التاسع كزعيم لمفتيي العاصمة ، اصر على رفض القضاء ، الا انه املى على الامراء اختيار قضاتهم وفرض عليهم عزلهم المتوالي »

E. Levi - Provençal : *Histoire de l'Espagne Musulmane.* T. III p. 475. Paris 1953).

ويفسر هذا ان الفتيا لم تكن آنذاك منصبا رسميا كالقضاء .

وفي المكتبة الأثرية بالقيروان (**ن. م.** رقم من 1550 الى 1600 . ص 39) قطعة يظهر أنها تفسير الموطأ ليحيى بن يحيى الليثي رواية محمد بن الوضاح الأندلسي .

هذه المدينة ، الفقهاء الأوّلون في الإسلام الذين أدخلوا نهائيا كلّ شعوب المغرب في الدّين الإسلامي .

إذن ، فمن الطبيعي جدّا ، أن نفترض أنّ العلماء الذين درسوا في القيروان ، قد نشروا خارجَها الكتابة التي استعملوها لدراساتهم الخاصّة ؛ وإنّ في هذه المدينة بالذّات ، ليجب البحث عن الأشكال الأوليّة للكتابة المستعملة في المغرب .

اللوحة 1 ـ الصورة 1 (قيرواني قديم)

وإنّ أوراق البردى الأولى التي حقّق معناها دي ساسي (7) De Sacy [ص 88] قد دلّت دلالة قاطعة على أنّ الخطّ النسخي كان مستعملا في

(7) **لمحات جديدة عن تاريخ الكتابة عند عرب الحجاز** (المجلة الاسيوية 1827)
Nouveaux aperçus sur l'histoire de l'écriture chez les Arabes du Hedjaz. (Journal Asiatique. 1827. [De Sacy 1758-1838].

دواوين الكتابة سنة 40 للهجرة ؛ ولكن لا يبدو أنّ هذا النوع من الخطّ قد تُبنّي في الجامعات قبل منتصف القرن الرّابع للهجرة أوَ ان إصلاح الوزير ابن مقلة (8) ؛ وفعلا ، فكل النسخ الخطّيّة من المصحف ، السابقة للقرن الرّابع ، مكتوبة بخطّ كوفي ، أو على الأصحّ ، بخطّ عادي سريع ، تخيّله علماء الكوفة واقتبسوه ، مباشرة ، من أحد الخطوط القديمة لجزيرة العرب . وإنّ نعت « مولّد » الذي أطلقه المؤلّفون العرب (9) على هذا الصنف الجديد من الكتابة ، يُبيّن أنّه لم يَعُد مطابقا للمثال الأصلي ، وأنّه أصبح يُعتبر منه كشكل منخرم .

ولكننا نعلم أن المصحف هو أوّل كتاب يوضع بين يدي الأطفال لتعليمهم القراءة والكتابة ؛ وإنّ هذه السنّة التي ثبتت دوما ، ليُدرك معناها في يسر ، إذا اعتبرنا الصعوبة التي ما زلنا نشعر بها إلى يومنا هذا ، عند اقتناء نصّ مكتوب غير نصّ الكتاب المقدّس ، في بلد إسلامي ؛ فلا عجب ، إن انتشر استعمال الكوفي ، واستقرّ طيلة القرون الأولى الثلاثة للهجرة ، رغم ما كان يقدّمه استعمال النسخي من فضل لا ينازع ، فضلٍ انفرد كتّاب الإدارة باستغلاله ، طيلة سنين طويلة .

---

(8) قارن ، عن ابن مقلة ، بما كتبه ابن خلكان في **الوفيات** (ط د ى سلان ج 3 267)
[أبو على محمد بن على بن الحسن بن مقلة 272/886 – 328/940]
De Slane : *Ibn Khallican's biogiaphical dictionary* T. III p. 267 [De Slane 1801-1878].
[انظر عنه : E I[1] T. II p. 430. *art* Ibn Mukla de K.V. Zetterstéen

(9) ادلر : **وصف بعض الأصناف الكوفية** . ألتونا . 1780 – ص 17
Adler : *Descriptio codicum quorumdam cuficorum* Altona MDCCLXXX. P. 17 [J. Adler 1756-1834].

انظر هذه القطعة لابن الشحنة :
« وابن مقلة هذا هو صاحب الخط الحسن المشهور ، وهو اول من نقل من الخط الكوفي المولد الى طريقة العربية الحسنة ، وكان بعده ابن البواب ، فزاد في تعريبه وبلغ الغاية به »
[على بن هلال البغدادي المعروف بابن البواب (413/1022) عالم بالخط جمع خطوط ابن مقلة في النسخ والثلث الذين قبلهما من الخط الكوفي ونقحها وصححها ووجهها .
(معجم المؤلفين) لعمر رضا كحالة . الجزء السابع ص 258 (دمشق 1378/1959)
لم نستطع التعرف على مؤلف اسمه ابن الشحنة ينسب اليه شيء عن الخط ، فعدد من يحمل هذا الاسم كثير ولم نوفق الى الاهتداء الى المعني بالامر منهم جميعا.]

وإنّ الطلبة العرب الذين لا يكتفون البتّة بمبادىء [ص 89] أوّليّة في الكتابة والقراءة ، عددهم قليل نسبيّا ؛ إلاّ أنّه من الصعب عليهم أن يقتنوا الكتب النّادرة الوجود التي يحتاجون إليها لمتابعة دروس أساتذتهم ، وذلك حتّى في المدن الكبرى التي يكمّلون فيها دراساتهم ؛ وأساتذتُهم ، أنفسهم، هم الذين يزوّدونهم بها ، اعارةً طبعا ؛ ولكي يتيسّر لجماعة عديدة من الطلبة أن يستفيدوا من النسخة الوحيدة دفعة واحدة ، يجزّأ كلّ سفر إلى عدد ما ، من الأجزاء ، تُمَثّل في مادّة التدريس تقسيما يماثل التقسيم الذي أدخلناه عن طريق الأرقام في برامجنا العصريّة ؛ ويُسَلَّم كلّ جزء ، بالتوالي ، للطّالب ، يأخذ منه عادة . نسخة ، ويحتفظ به ، ما طالت الشروح المتعلّقة بهذا القسم من الدرس .

وفي مطلع القرن الرّابع الهجري ، كان طلبة الفقه بالقيروان ما يزالون يدرسون نصوصا مكتوبة بالخط الكوفي ، ويستعملون هذا الخط عينه لأخذ بيانات ساعة درسهم ، كما يمكّن من الحكم بذلك الأنموذج الماثل بالصورة رقم 1 من اللوحة رقم 1 ؛ وإنّ المخطوط (10) الذي نقل عنه ، هذا الأنموذج هو بالتدقيق أحد أجزاء المدونة سحنون الذي استعمل في جامعة القيروان ؛وهو مكتوب على الرقّ بخط كوفي ، ويشمل 14 ورقة ، طولها 28 سم وعرضها 19 سم ؛ وعلى وجه الورقة الأولى البيانات التالية التي أنقلها سطرا بسطر ، مع التَّنَبُّه لوضع سطر فوق الكلمات التي وقعت إضافتها [ص 90]

1 الجزء الثالث من السلم من المدونة

2 (ر) رواية سحنون بن سعيد التنوخي عن عبد الرحمن (ر)

---

(10) سلمت هذا المخطوط الذي أتيت به من القيروان الى مكتبة مدرسة اللغات الشرقية [وتدعى الان المدرسة القومية للغات الشرقية الحية بباريس] ، ويوجد جزء آخر من هذا الكتاب بالجزائر حيث المكتبة والمتحف معا .

[ونظرة الى كتاب البهلى النيال عن المكتبة الأثرية بالقيروان تفيد ان هذا الجزء على هذا الشكل ، وبهذا الوصف ، غير مدرج بالقائمة ، فلعله لم يرجع بعد الىخزانته الأصل]

3 (ر» بن القسم العتقي (11) عن ملك بن انس (12) (ر)

4 (ر» .... الاصبحي رحمة الله عليه ورضوانه (ر)

5 وسمعته من أوّله إلى اخره عن ابي محمد وقابلته مع عليّ كتابه سنة اربع وثلاثين وثلث مائة

اللوحة 1 ـ الصورة 2

6 حدثني به عن عيسى بن مسكين (13) عن سحنون عن بن القسم ....

7 حسين بن سعيد نفعه الله به

[(11) أبو عبد الله عبد الرحمان بن القاسم العتقي المصري، أثبت الناس في مالك وأعلمهم باقواله، صحبه عشرين سنة ، وأخذ عنه جماعة منهم أصبغ ويحيى بن دينار والحارث بن مسكين ويحيي ابن يحيى الأندلسي وأسد بن الفرات وسحنون وابن عبد الحكم . مولده 128/745 أو 133/750 ، ووفاته بمصر 191/806
(انظر **شجرة النور** .. ص 58 رقم 24)]

[(12) مالك بن أنس (179/795)
[E.I[1]. III p. 218 à 223. *art* Malik Ibn Anas de J. Schacht].

[(13) انظر ص 11]

وقد امّحت الكلمة الأولى من السطر الرّابع ، وكلماتُ آخر السطر السّادس ، حتى عجزنا عن إقامة أصلها ، عن يقين ؛ ثم إنّه ليس لها أيّة قيمة للنتائج التي تَنْجرّ عن فحص هذا المخطوط ؛ ومن اليقين ، أن السطور 1. 2. 3. 4. 7. خطّت بيد واحدة ، وتبدو كأنها بخط ناسخ نصّ الجزء ؛ فليس إلاّ ظهر الورقة الأولى ووجه الورقة 14 بخطّ يد مغايرة ، وعصر مخالف ؛ ويلوح السطران 5. 6. ، حسب لون الحبر ، مُعَاصرين للنسخة الأصليّة ؛ ولكن من المحتمل ألاّ يكونا من نفس الناسخ .

ووقعت إضافة السطرين 5. 6. قصدَ الإحتفاظ باسم « أبو محمد » أحد أساتذة جامعة القيروان ؛ وإذ بُدّل اسم الأستاذ الذى كان ماثلا من قبل في هذا المكان ، بُدّل أيضا رقما العشرات والآحاد من التاريخ ، ولكن دون ان يُمَسّ رقم المئات الذى [ص 91] بقي على أصله تماما ؛ ثم إن رقم المئات أدرج من جديد أسفلَ وجه الورقة 14 في بيان حُرّر في هذه الكلمات :

قال خلف بن نصر قرات جميع هذا الكتاب على ابي محمد عبد الله ابن مسرور سنة سبع وثلثين وثلثماية حدثني به عيسى بن مسكين عن سحنون عن عن (كذا) بن القاسم عن ملك .

وحسب هذا البيان ، يكون خلف بن نصر (14) «أو ناصر» قد استعمل هذا الجزء سنة 337 للهجرة ، ودَرَس هذا القسم من المدوّنة قراءة على من

[(14) لا نكتب دائما الف المد في هذا المقام ، فنجد مثلا الطريقتين في الكتابة : القسم والقاسم

(14 مكرر) توجد ترجمة هذا العلم في الكتاب المعنون : **الديباج المذهب في معرفة اعيان علماء المذهب** لابراهيم بن علي بن فرحون [ط . القاهرة 1351 ص 179 ـ 180 ـ 181 ، ذكر مولده سنة 829/214 . وفي **شجرة النور** .. ص 72 73 رقم 94 ذكر ان ضريحه بنواحي صفاقس متبرك به وأن قرية مسجد عيسى بالساحل معروفة به الى هذا الوقت .

يوجد بالمكتبة الأثرية بالقيروان (م. ب. النيال . ص 34 ـ 35 ـ 39 ـ 40) كتابان بروايته : **كتاب العلم من جامع عبد الله بن وهب البصري** رواية عيسى بن مسكين عن سحنون بن سعيد عن ابن وهب (رقم من 1601 الى 1652) وكتاب **الشعر والغناء من جامع عبد الله بن وهب** رواية عيسى بن مسكين عن سحنون بن سعيد عن ابن وهب ، والنسخة لعبد الله بن مسرور ذات 22 صفحة ، سمعها من عيسى بمنزله سنة 883/270 كما ذكر ذلك في مطلعها ، ورقمها من 1817 الى 1838]

يدعى : « أبو محمد عبد الله بن مسرور » ؛ ويبدو أنه نفس « أبو محمد » المذكور وجهَ الورقة الأولى بالسطر الخامس ؛ ومن قليل الإحتمال أن يكون خلف بن نصر هذا ، الذي يكتب ثلثماية في كلمة واحدة ، هو صاحب الإضافة بالسطرين : 5. 6. حيث كُتبت هذه العبارة في كلمتين ؛ ثم إنّنا قد لا ندرك تسجيله لتاريخين مختلفين 334 و 337 ، والحال أنه كان من السهل جدّاً أن يعوّض في السطر 5 كلمة أربع بكلمة سبع ؛ فالتحريفات في السطرين 5. 6. صدرت عن أحد زملاء خلف في الدراسة ، عند درسه هذه القطعة من المدوّنة قبل ثلاث سنوات .

وكان اسم عيسى بن مسكين الذي تتلمذ عليه أبو محمد مباشرة ، يكون وحده دليلا تقريبيّا لتاريخ هذه البيانات ؛ وإذ أنّ عيسى هذا ، قد تُوفّي سنة 295 (14مكرر) ، لم يكن لتلميذه أن يدرّس بنفس الجامعة التي درّس بها هو ، اللهم إلاّ أن يكون ذلك في أواخر القرن الثالث أو أوائل القرن الرّابع (15) [ص 92] .

أمّا عن إضافات السطر السابع ، فقد مَسّت اسم النّاسخ ؛ فحرف : ل — الذي ما زال يظهر لنا في بداية هذا السطر ، وكذلك العبارة — نفعه الله به — التي تلي الإسم مباشرة ، لا يتركان أدنى شك في هذا المجال ؛ وإذ انتقل هذا الجزء من يد إلى أخرى ، فلا غرابة البتّة أن يتخيّل طالب تبديل اسم الناسخ الحقيقي بإسمه الخاص .

وتظهر هذه البيانات المختلفة أنّ تاريخ هذا المخطوط لا يتأخّر عن الثلث الأوّل من القرن الرّابع للهجرة ؛ وإذا أقمت بدقة نصّ الكلمات

[(15) عبد الله بن مسرور المعروف بابن الحجام ، ذكر عنه البهلي النيال (**المصدر المذكور** ص 34 **البيان رقم 2**) انه توفي في 295/907 ، والصواب ما تحمل عليه اشارة صاحب المقال ان ابن مسرور توفي في 346/957 حسب ما ورد في المصادر والمراجع التي ترجمت له ، أو أوردت ذكره . **طبقات علماء افريقية** . لأبي العرب . الجزء الاول ص 176 . 177 — ط. محمد بن شنب باريس 1915 — **معالم الايمان** لابن ناجي الجزء الثالث ص من 70 الى 73 . المطبعة العربية التونسية . اربعة اجزاء فى 1320 **شجرة النور** ·· رقم 171 . ص 85]

المُغطّاة بـ : أربـع وثلثين ، قد يكون المخطوط سابقا لسنة 315 ، إذ من المحتمل للصّواب ألاّ يـكون ما ذكر في السطرين : 5 — 6 من نفس السنـة ، والنسخـةَ نفسَها .

والحقيقة أنه قد تمكن منازعة هذه الدعوى المتعلقة بتاريـخ المخطوط ، وذلك بالإعتماد على لون الحبر ومظهر الـكتابة بظهر الورقة 1 ووجه الورقـة 14 ؛ وفعلا ، فممّا لا جدال فيه ، أنّ هاتين الصفحتين قد كُتِبتا في عهد متأخّر عن باقـي الجزء ؛ إلاّ أن تعليقين على الهامش وبيانين خارج السياق ،

اللوحة 2 ـ الصورة 1 (قيرواني)

في هاتين الصفحتيـن هـي — يقينـا — متـأخـرة عن النسخـة ، وقد وضعت كحاشية بالنظر إليها كأصل . وإذ اتّصل التعليقان اتّصالا دقيقا بسياق النص الذي يرافقانه ، فلا ندرك معنى لهذا العمل إلاّ إذا افترضنا أن النصّ في هاتين الصفحتين قد أعيدت كتابته في وقت متأخّر ؛ فيكون النصّ الأصلي الذي أصبـح — ولا شكّ — لا يقرأ بوضوح كبير ، قد مُحـي تماما ، ويكون

الناسخ قد حاول أن ينقله بقدر ما يستطيع من الأمانة ، مستعملا أيضا حروفا كوفيّة ؛ فصبغة الرقّ المُبْيَضّ هنا وهناك تبدو ، أيضا ، مبرّرة لهذا الإفتراض .

وقد أصْلِح ، فيما بعد الجزءَ كلّه هذا الذي عمد إلى إقامة النصّ الجديد ، على انقاض النصّ القديم [ص 93] ، مع إضافة — في ما يفصل بين السطور — بعض كلمات كانت قد أهملت ؛ وأعْجِم بعضَ الحروف بنقط ، لولاها لصعبت عند التحقيق ؛ وفي كامل هذه القطعة المقامة من جديد ، كما في الفقرات المُصلحة ، تنقّط : ف — ق — دوما — حسب الإستعمال الحالي بالمغرب ؛ وإن كان لنا أن نتّخذ من عدد نقط الحروف دليلا ذا قيمة ما ، على قدم المخطوط ، فظهر الورقة 1 ووجه الورقة 14 قد ينتميان إلى فترة أحدث بكثير من باقي الجزء الذي خلا تماما من نقط الحروف التي وضعها صاحب النسخة .

والخط العام للمخطوط هو من الكوفي العاديّ السّريع ، ذي الأشكال الكثيرة الإستقامة ؛ ولكنّ الحروف في التعاليق قد اتخذت لها ، بعد ، شكلا أقلّ صلابة ؛ فتَتُلاقي ، من بينها ، بعض الحروف التي ما زالت تسطّر ، كذلك ، بكل دقّة ، في الكتابة المغربية العصريّة ؛ ومن هنا نرى أنّ طلبة القيروان ، وإن كانوا يستعملون الحرف الكوفي في مطلع القرن الرّابع ، إلاّ أنّهم بدؤوا من ذلك العهد يلطّفون من حدةّ الأشكال ، ذات الزوايا التي تحول دون تسطيرها بسرعة ؛ وإنّ هذا التحوّل القليل الظهور ، في جزء المدوّنة ، ليظهر بوضوح في قطعة (16) اكتشفت مع السابقة في الجامع الأعظم بالقيروان .

(16) تجد هذه **القطعة** بمكتبة اللغات الشرقية [لعلها لم ترجع بعد الى المكتبة **الاصل** ، اذ لا يذكر البهلي النيال **قطعة** ، كما وصفها صاحب المقال (**انظر المكتبة** .. ص من 37 الى 41) . وبمكتبة المدرسة القومية للغات الشرقية الحية عدد من المخطوطات يقرب من الألف ، وعنها ثبت مع وصف مقتضب في كراس مخطوط ، حرره بعض المستشرقين ، ويعد الآن أحمد بيوض المحافظ بالمكتبة القومية بباريس فهرسا لها ، نتمنى ان يظهر قريبا .]

وتحوي هذه القطعة ، المخطوطة أيضا على الرقّ ، 7 أوراق مقياسها من 21 إلى 23 سم طولا ، ومن 14 إلى 15 سم عرضا ؛ وهو بقايا جزء تضمّن مجموعة من البيانات المتعلّقة بفقه النوازل التي تبنّاها بعض الأئمة المالكيّة في الحُبُس والعُمْرَى ؛ وعنوان كلّ واحدة من هذه [ص 94] البيانات بخطّ كوفيّ عاديّ سريع ؛ إلاّ أن البيانات عينَها ، بخط مغربي حقيقي ، لا يبتعد ، إلاّ قليلا ، عن المثال المستعمل حاليا ، وإن كانت آثار الصلابة التي تَسِم الكتابة الكوفيّة القديمة ، ما زالت ماثلة ؛ ونقط الحروف نادرة بقدر ملحوظ ؛ إلاّ أنّك تقف منها على ما يكفي لجعل قراءة النصّ سهلة نسبيّا ، وتنقّط : ف ـ ق حيثما وُجدا حسب الإستعمال المغربي .

ولم يوضع أي تاريخ على هذه القطعة ؛ ولا تجيز لنا البيانات التي يقدّمها النصّ ، أن ندقّق ، في شيء كبير من التدقيق ، العهد الذي خطّ فيه ؛ وعلى كلّ ، فبما أنّ الأمر يتعلّق بمجموعة من الملاحظات ، لا بنصّ متّصل ، وأن جميع الأعلام (17) الذين ذكرت نوازلهم ، تتلمذوا مباشرة ، على أئمة تُوُفّوا ، جميعا ، أثناء القرن الثالث للهجرة ، أُقَدّر أن هذه القطعة من القرن الرّابع ، أو على أبعد حدّ ، من بداية الخامس ؛ وفعلا ، فقد يكون من قليل الإحتمال ألاّ نقف على رأي إمام ما ، عاش متأخّرا عن القرن الرّابع ، حول موضوع له من القيمة ما للعُمْرَى والحُبُس ، إن كانت هذه للبيانات قد كتبت في فترة أكثر تأخّرا ؛ وبالإضافة إلى ذلك ، يجيزلون الحبر ، ومظهر الرقّ ، أن نُرجع عمليّة التخطيط إلى عهد قديم .

(17) الاعلام المذكورون هم : ابن القاسم [انظر عنه ص 4]
ابن وهب [أبو محمد عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي ـ (742/125 ـ 812/197) صحب مالك عشرين سنة ، وروى عنه فيمن روى سحنون (**شجرة النور** .. رقم 25 ص 58 . 59) أصبغ [أبو عبد الله أصبغ بن الفرج بن سعيد بن نافع المصري ـ (بعد سنة 767/150 ـ 839/225) سمع ابن القاسم واشهب وابن وهب وكان كاتبا لابن وهب ، وممن روى عنه ، البخاري وابن وضاح ومحمد بن اسد الخشني ، وتفقه به ابن المواز وابن حبيب وابن مزين ، من تآليفه كتاب سماعه من ابن القاسم (**شجرة النور** .. رقم 58 ص 66)] ، اشهب [ابو عمر اشهب بن عبد العزيز بن داود القيسي العامري المصري (757/140 ـ 819/204) : انتهت اليه رئاسة مصر بعد موت ابن القاسم ، وممن روى عنهم الليث ومالك ، وبه تفقه ، وممن اخذ عنه سحنون .]

ومهما يكن من رأي، عن التاريخ الدّقيق لهذه القطعة، فيقينا، أنّه يقدّم علامة، لا لُبْس فيها، عن التحويل المباشر، من الخطّ الكوفي إلى الخطوط المغربية؛ (اللوحة I — الصورة 2)؛ ويرى ابن خلدون (18) أنّ هذا الشّكل الأوّل من كتابة المغرب كان قد [ص 95] انتهى إلى كماله، على يد الأندلسيّين، لمّا قدموا، ملتجئين، على إفريقية، مطرودين من بلادهم؛ ولا يبدو لي هذا الرأي مركّزا، لأنّ المغاربة يميّزون، في جلاء، عن خطّهم القومي، خطّ الأندلسيّين الذي يسمّونه خطّا أندلسيّا؛ ولا حجّة جدّية، البتة، تحملنا على أن نجعل الواحد مشتقّا مباشرة من الآخر؛ فهما ينحدران، فقط، عن مثال مشترك أي الكوفي، ويدينان لهذا الإشتراك، في الأصل، في التشابه القائم بينهما.

وإنّ الإختلاف الملاحظ بين أشكال المغربي وأشكال النسخي ليس عظيم الإعتبار؛ إلاّ أن ما يقيم فارقا عميقا، بين هاتين الأبجديتين، هي القيمة العدديّة المختلفة المنسوبة لبعض الحروف في كليهما؛ وهكذا: س الذي يساوي: 300 في الأبجدية المغربيّة لا يساوي إلاّ: 60 في أبجديّة النسخي؛ وإنّ: ش الذي يساوي: 1000 في الأولى أصبح لا يساوي إلاّ: 300 في الثانية الخ.... ثم إن الترتيب الأبجدي ليس واحدا في كلا المثالين من الكتابة؛ وقد لا نقدر أن نقبل أنّ المغاربة بدّلوا دون ضرورة، قيمة الحروف العدديّة، في الأبجديّة النسخيّة؛ ونجد أنفسنا، بصورة طبيعية، تماما، محمولين على الظن أنّ القيمة الجديدة التي أعطوها إيّاها، استعاروها من قيمة حروف الأبجديّة الكوفيّة؛ وإذا قُبل هذا الإفتراض الذي يصعب تبريره بصورة قاطعة، قد نستطيع أن نفسّر بغير ما فسّر به المؤرّخون العرب، في بعض مزاعمهم، عن الكتابة.

(18) **المقدمة**: ترجمة دي سلان في الجزء العشرين من **بيانات ومقتطفات من مخطوطات المكتبة الأمبريالية** (باريس 1865) ص 401
Prolégomènes. Trad de De Slane dans le T. XX des *Notices et extraits des Manuscrits de la Bibliothèque Impériale.* Paris MDCCCLXV. p. 401.

وإذا ، وقد وافق بالتدقيق ترتيبُ الحروف المنسوب لِمُرَامر (19) ، ترتيبَ أبجديّة النسخي ، فقد يحقّ لنا أن نعتبر الإصلاح الذي دخل جزيرة العرب على يديه لا ، أيضا ، كتغيير المسند ، ولكن حقيقة كإحلال النسخي [ص 96] محلّ الكوفي ؛ ثم إنّه يبدو أنّ الكتّاب العرب أوّلوا سيّء التأويل اسم « الجزم » الذي ألصق بالكتابة الجديدة ؛ فمؤلف القاموس يقول في فصل : « جزم » :

اللوحة 2 ــ الصورة 2 (اندلسي)

والجزم في الخطّ تسوية الحروف والقلم لا حرف له .

[(19) ينسب حاجي خليفة في **كشف الظنون** : الجزء الأول عمود 708 (ط 1941/1360) حديثا الى ابن عباس ، ان اول من وضع الخط العربي ثلاثة رجال من بولان قبيلة من طي نزلوا مدينة الأنبار ، فاولهم مرار [مرامر] وهو وضع الصور ، وثانيهم اسلم ، فهو وصل وفصل ، وثالثهم عامر فوضع الاعجام ..]

وإذا كان المعنى الأصلي لصيغة : « جزم » القطعَ والفصلَ ، لا ندرك ، جيّدا ، كيف تولّد ، عنه ، معنى الإشتقاق الذي يلصقه بها صاحب القاموس ؛ ولنا تقريب ، أكثر احتمالا للصحّة ، يمكن القيام به ، بين اسم الكتابة وبين اسم الآلة التي وجب الخطّ بها ؛ وتدلّ كلمة « جزم » على قلم مستوي القطّ ؛ ونعلم أن الكتابة الكوفيّة تخطّ بقلم ذي حدّ ؛ وأمّا النسخي ، فلا يخطّ إلاّ بقصبة في طرفها شق مستقيم قد بري من الجانبين ، فأصبح ذا شوكتين حادّتين . فأحسب ، والحال هذه ، أنّ الأقرب إلى القياس، اعتبار كلمة الكتابة : « جزم » مشتقّة من اسم القلم الذي صَلُح لرسمها ، ورفض التفسير الذي قدّمه الفيروز أبادي (20) .

وما زالت هاتان الطريقتان ، لبري القلم ، مستعملتين في يومنا هذا ؛ ففي المغرب ، حيث الكتابة كوفية مع تغيير طفيف فقط ، تُبرى القصبة لتَمكّن من حدّ ؛ وأمّا في المشرق ، حيث عمّ النسخي عموما كاملا ، فللْقلم منقار منبطح ومبري من الجانبين ؛

وإنّ الفكرة التي قَبِلها رينان (21) عن الأصل المزدوج لِلْكتابة العربيّة ، مع قرابة ، على درجة أكثر بعدا في مجموع العائلة السامية ؛ قد تَلْقى تأييدا جديدا [ص 97] إذا حدث — حسب افتراضي — أن كانت القِيم العدديّة للحروف ، في الأبجديتين الكوفيّة والنسخيّة ، مختلفةً من الواحدة إلى الأخرى ؛ ذلك أنّه تجب ، حقا ، الملاحظة أن الخلط وإن أمكن — على أقصى احتمال — بين مجموع الحروف : « صعفص » (22) وبين مجموع :

[(20) الفيروز ابادي (729/1329) انظر عنه مقال بروكلمان في الجزء الثاني ص 119 — 120 من الطبعة الفرنسية الاولى لدائرة المعارف الاسلامية]

(21) رينان : **تاريخ اللغات السامية العام وجهازها المقارن** . (باريس 1878) ص 353 .
Renan : *Histoire générale et système comparé des langues sémitiques.* Paris 1878 p. 353 [Renan 1823-1892].

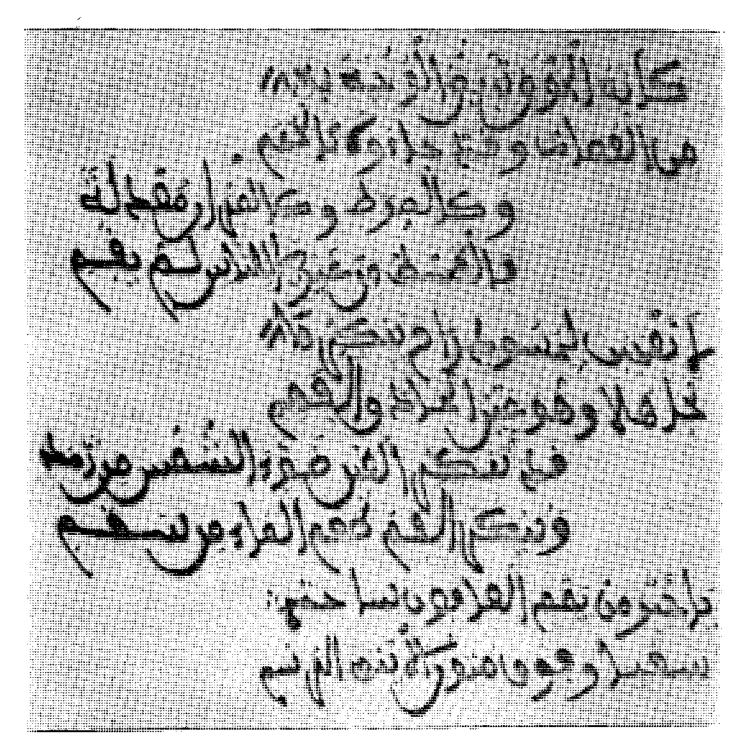
[(22) انظر ما ذكره حاجي خليفة (ن. م. الجزء الاول عمود 708) عن سعفص كاحد المخترعين الستة للكتابة العربية ، حسب بعض المزاعم .]

« صعفض » ، لفقدان النقط ، فمن المستحيل قطعا أن تَيَسّر — دون سابق نيّة — تبديلُ ضظغ بـ : ظغش ؛ وإذا لم يكن للمغاربة كتابة خاصة ، حين الفتح العربي ، لا نستطيع الزّعمَ أنّهم اقتبسوا القيم الجديدة المعطاة لبعض الحروف ، عن أبجديّة أخرى ، غير الأبجديّة الكوفيّة ؛ وهذا الإختلاف الهام بين جهازَي كتابة العرب ، القديمَين ، لا يجيز أن نجعل أحدهما يتولّد عن الآخر ، مباشرة .

اللوحة 3 ـ الصورة 1 (مغربي)

وقد أزال إصلاح الوزير ابن مقلة استعمال الكوفي من المشرق نهائيا ؛ إلاّ أنّ كلاّ من المغرب والأندلس لم يتبنّ النسخي ؛ ويجب أن نفترض — بديهة — أن لمسلمي المغرب ، ابتداءً من ذلك العهد ، حروفا سريعة وعادية، ذات استعمال عام في المناطق التي كانوا يحتلّونها ، لكي ندرك كيف أنّهم لم يروا ، قط ، فائدة في قبول إصلاح الكتابة الجديد ؛ ولم يكن العلماء

المسلمون الذين كانوا — في أغلبيتهم — يقومون برحلات للمشرق ، لتكميل دراساتهم ، ليتوانوا في أخذ الكتابة الجديدة عنه ، لو لم يكونوا ، بعدُ ، يملكون جهازا قد اكتمل ، حتى لبّى كل حاجياتهم ؛ ولم يكن — يقينا — لهذا النوع من الخصومة القائمة بين مسلمي المشرق وبين مسلمي المغرب ، ما يكفي — وحده — من التأثير ، حتى يقع رفض المزايا ، غير المنازع فيها ،التي كانت للنسخي على الكوفي .



اللوحة 3 ـ الصورة 2 (سوداني)

وإنّ الصعوبة الماديّة — خاصة — في الحصول اليسير على الخيزران الصلب الغليظ ، الضروري للتأنّق في خط النسخي ، لم تؤثر [ص 98] هي أيضا في تبنّي الخط المغربي ؛ فقد أكّدت فقط إبراز الفرق بين النسخي

وبين الكوفي ؛ فالقصبة « (arundo donax) » ، المستعملة في المغرب ، لا يمكن أن تُبْرى على نفس الشكل وقصبَ المشرق الغليظ الصلب ؛ والقشرة الرقيقة التي تغطّي خارج الخيزران ، لا تلتحم بالصلب الدّاخلي ؛ فلا نصل إلى إكساب منقار هذه الأقلام الصلابة اللازمة ، حتى تَثْبُت لضغط اليد على الورق ، إلاّ بالإحتفاظ بطبقة كثيفة وكافية من الصلب ؛ فيَظل ، إذن ، طرف هذه الأقلام ، دوما ، عديم الحدّ ، ويستحيل تمكينه من هذا الشق المستقيم الواضح الثابت اللازم للحصول على خطّ ، ذي أطراف متساوية ، يتمثل في عَرضه الدقيقُ الرقيقُ أحيانا ، وأحيانا أخرى المليءُ البارزُ حقّا .

وحتى عن نقط الحروف التي ما تسلّمها المغاربة من الكوفي ، فقد غيّروا ، تغييرا طفيفا ، الإستعمال الذي كان قد استقرّ في المشرق ، وبسّطوا تنقيط : ف — ق ، وأزالوا — دوما تقريبا — نقط الحروف النّهائيّة التي كان لها شكل خصّصها ، حتّى ميّزها عن شكل الحروف الأخرى من الهجاء ؛ وكأنّهم بصنيعهم هذا ، رجعوا — سليقة — إلى الجهاز الكوفي الممَثّل الوحيد ، في نظرهم ، للمثال الأهلي من الكتابة العربيّة .

واكتفى المغاربة ، في البداية ، بتلطيف أشكال الكوفي الحادّة والمزوّاة دون أن يضيفوا إليه أكثر من نقط الحروف التي تُكْسِبه كلّ ما تَستطيع الكتابة العربيّة من دقّة ؛ وفيما بعد ، زادوا في التأنّق ، عند تسيطر بعض الحروف ، وخفّفوا أشكال البعض الآخر المثقّلة ؛ ولكن ، لم يزدهر ، قط ، فنّ الكتابة عندهم ؛ وإذا كان البرابرة المسلمون يعيشون — إلاّ أقلّهم — [ص 99] عيشة بداوة ، أو نصف بداوة ، فلم يعرفوا ، قط ، الترّف ؛ ولم يتعاطوا كل الفنون — ومن ضمنها الكتابة — إلاّ لحاجاتهم الأشد عجلة ؛ ولولا أن قدم الأندلسيون الذين أخرجوا من إسبانيا ، لما كنّا لنَجد لدى سكّان المغرب ، انتاج صناعتهم القليل الذي يكتسي طابعا فنيّا ؛ فكلّ المخطوطات الجميلة المحفوظة في خزائن المساجد ، قد حملت إليها من المشرق،

أو هي – على الأقل – من صنع المشارقة ؛ ونسخ القرآن الرّائعة التي خبّأها بعض المفتيين ، بكل حرص تَضَمَّن غيرتهم عليها ، في كنز مساجدهم ، هي من أصل فارسي أو شامي أو مصري ؛ فلا واحدة منها من عمل مسلم مغربيّ ، أمين لدينه . وإنّ تأثير الأندلسيين في فنون المغرب ، قد بعث ابن خلدون على افتراض أنّ الكتابة المغربيّة الحاليّة قد أخذت أشكالها النهائية عن الخط الأندلسي (23) ؛ إلاّ أنّ هذا الإفتراض لا يبدو لي ممكن القبول ؛

وبصدفة ، كفت غرابتها لِلَفت الإنتباه ، قد وافق انتشار الحرف المغربي ، في العالم الإسلامي ، موافقة دقيقة ، انتشارَ مذهب مالك ؛ فحيثما قُبل هذا المذهب ، في الأندلس وفي المغرب وفي السودان الغربيّ ، كان الخطّ المغربيّ وحيد الإستعمال ؛ ويبدو أن هذا التآلف وقع حتّى في فرنسا ، حيث كان مختصر سيدي خليل (24) ، وهو التقنين الأتم والأوسع انتشارا في فقه فروع مذهب مالك ، أولَ كتاب بالذات طبع في المطبعة القومية بالخط المغربي . [ص 100] .

ومن بين اختلافات الجهاز المغربي ، لا يعرف إلاّ واحد ، هو للأندلسيين باسم خاص في المغرب : فيسمى « خطا أندلسيّا » أو « أندلسيًّا » بتعبير أبسط ؛ وإنّ هذه التسمية لتبيّن أنّ الشعوب المغربيّة تعتبر كتابتها لا كشكل من الأندلسي متغيّر ، ولكن حقّا كشكل متميّز عنه مطلقا ؛ فهيئة الأندلسي الشديدة التناسق ، وأشكاله العارية من الزخرف والمستديرة ، لم تكن قطّ

[(23) ورد هذا الراى في **المقدمة** (ط. القاهرة – المطبعة البهية المصرية بميدان الأزهر دون تاريخ – ص 295) وهذه بعض مقتطفات مما قال ابن خلدون : « فغلب خطهم على الخط الافريقي وعفي عليه ونسي خط القيروان والمهدية بنسيان عوائدهما وصنائعهما ، وصارت خطوط اهل افريقية ، كلها ، على الرسم الاندلسي ، بتونس وما اليها (··) وبقي منه رسم ببلاد الجريد الذين لم يخالطوا كتاب الأندلس ، ولا تمرسوا بجوارهم (...) فصار خط اهل افريقية من احسن خطوط اهل الأندلس (...) وحصل في دولة بني مرين من بعد ذلك بالمغرب الاقصى ، لون من الخط الأندلسي لقرب جوارهم وسقوط من خرج الى فاس قريبا واستعمالهم اياهم سائر الدولة » .]

(24) في 1855 [انظر عنه ص 2 مكرر]

لتناسب مزاج شعوب المغرب ، وقد كان لها ، دوما ، قليل من الذوق للتناسق والتــوازن .



الحوفي في الفرائض

خط تونسي بتاريخ 798 هـ . مخطوط من مكتبة الشيخ محمد الشاذلي النيفر

ولا يراعي المغربي أيّة قاعدة في كل الفنون اليدوية ؛ فلا يتصوّر قط — مقدّما — للشيء الذي يريد صنعه ، نوعا من النموذج المثالي ، يحاول أن يقترب منه ؛ وهو — ولا شك — يعرف أي شكل عام ، يتحتم عليه اعطاؤه إيّاه ، حتى يجعله يستجيب لغايته المقبلة ، إلاّ أنّه يستسلم ، في الجزئيات ، لايحاء الساعة ؛ لذا ، فالصانع المغربي عاجز عن القيام بعملين متماثلين تماثلا كاملا ؛ والتوازن معدوم لديه ؛ فيعتبر ، في احتقار ، كلّ انتاج متناسق ومتوازن من الصناعة الأوربية ؛ وعند ما يتعلق الأمر بتنقيص شيء ، لا يجد عبارة أشدّ حدّة من أن يقول في لهجته : « هذا متاع فبركة » . أي هو من صنع الآلة الميكانيكية ؛ وباعتبار هذه النزعة ، ندرك أنّ المغاربة لم يكيّفوا ، قطّ ، كتابتهم على منوال كتابة الأندلسيين ، ونفهم سرّ فوضى الشكل الكبرى التي تسود اختلافات كتابة المغرب .

وإن طريقة التدريس المؤسفة المستعملة في الأندلس ، كما في المغرب ، أسهمت ، بقسط وافر ، في إفساد الأمثلة الأوّليّة للكتابة ، وفي [ص 101] تعسير وضع تصنيف لها ؛ وما زال اليومَ حقيقة ، ما كان يقوله ابن خلدون قبل خمسة قرون ؛ يقول مؤرخ البربر : « وليس الشأن في تعليم الخطّ بالأندلس والمغرب ، كذلك ، في تعلّم كلّ حرف بانفراده ، على قوانين يلقيها المعلّم للمتعلّم ، وإنّما بمحاكاة الخطّ من كتابة الكلمات جملة ؛ ويكون ذلك من المتعلّم ومطالعة المعلّم له ، إلى أن يحصل له الإجادة ويتمكّن في بنانه الملكة . فيسمى مجيدا » (25) .

(25) **المقدمة** : ترجمة دي سلان في الجزء العشرين من : **بيانات ومقتطفات من مخطوطات المكتبة الامبريالية** . (باريس 1865) ص 392 —

Prolégomènes. Trad de De Slane dans le tome XX *des Notices et Extraits Des Manuscrits de la Bibliothèque Impériale.* (Paris 1865). p. 392.

[تاريخ ابن خلدون . المجلد الأول . (الطبعة الثانية » بيروت 1961) ص 745 لم نقف على هذه القطعة الا في هذه الطبعة ، بعد ان فتشنا طويلا فيما يوجد ، في مكتبات تونس من المخطوط والمطبوع]

الحـوفي في الفرائض (تونسي)

وما تغيّرت هذه الطريقة في العمل ؛ فبدلا من اتّباع المشرق ، أي التعوّد ، أوّلا ، على رسم الحروف المنفردة ، حسب نُسَب معيّنة ، يحاول الطالب المغربي ، لأوّل وهلة ، أن ينقل ، جملةً ، نصّا مّا ، اتخذه كمثال ؛ وينجح نجاحا ، قريبا من الحسن ، في نقل هيئته العامّة ؛ إلاّ أنّه يدخل عليه من التغييرات الجزئيّة ، ما يمنع اعتبار أي حرف كتبه ، صورة أمينة للحرف الذي حرص على نسخه ؛ فلا قوانين مقرّرة لما يناسب كلّ حرف من شكل، حسب نوع الكتابة المستعمل ، بل خلط بين الأشكال المختلفة ، إلى حدّ أنّنا لا نعرف حقّا ، كيف نصنّف هذه الكتابة المزيجة .

ويُختَار المثالُ أيضا ، دون أدنى تمييز ؛ فأحيانا ، ينساق الطالب في اختياره مهتديا بإعجابه بمؤلف الكتاب المنسوخ (26) [ص 102] ؛ وأحيانا ، يندفع ، تماما ، مع الصدف؛ وإذ كانت المخطوطات تتضمّن ، نادرا جدّا ، بيان الجهة التي نسخت فيها ، يحدث غالبا أن يكيّف طالب من فاس ، مثلا ، كتابته على نسخة حُرّرت بالقيروان ، دون أن يقع ذلك بخلده ، أو معكس ، أن يقلّد طالب من القيروان مخطوطا من فاس ؛ والحقيقة أنّ المثال المغربي يظلّ ، دائما ، معروفا ببعض الخصائص العامّة ، إلاّ أن ما يميّز كلّ اختلاف عن الآخر أصبحت ملاحظته جدّ عسيرة .

وقد تبنّى ، أيضا ، الزّنوج المسلمون ، في السودان الغربي ، الأبجدية المغربيّة ؛ إلاّ أنّهم لم يأخذوها عن المغرب الأقصى ، كما قد نُغرى بظن ذلك ؛ وهذا نستنتجه بوضوح من بعض كلمات فاه بها مؤلفُ تكملة

(26) « كما يقتفي لهذا العهد خط ولي او عالم تبركا ويتبع رسمه خطأ او صوابا »
[**المقدمة** (ط القاهرة) ص 294]

Ibn Khaldoun. *Loc. cit.* p. 397.

الديباج ، أحمد بابا (27) ؛ ولمّا حمل هذا أسيرا إلى المغرب الأقصى على عهد السلطان أبي العبّاس أحمد المنصور (28) ، كان جوابه لِمَن حدّثه عن أحد سلاطين المغرب الأقصى ، أنّ الناس في تنبكتو لا يعرفون من الملوك المسلمين إلاّ ملك تونس (29) ؛ إذن فمن البلاد التونسية ، أي القيروان — ولا شك — تكون الكتابة المغربيّة قد حُملت إلى كامل السودان الغربي ، حين حمل إليه التشريع المالكي ؛ ولكن ، ما كانت الكتابة العربيّة ، لا في السودان ولا في المغرب ، محورَ ثقافة نامية .

وللقيام بتصنيف ، لمختلف أنواع الكتابة المغربيّة ، يتحتم علينا أن نميّز بين الأشكال المُعتَنَى بها من الآثار المخطوطة ، وبين [ص 103] ما كتب على عجل ، لحاجي المراسلة اليومي ؛ وجهل الناسخ في هذا الإستعمال الأخير للكتابة ، وعمله ، حسب هواه ، اتّحدا ، إلى حدّ إزالة حتى أدنى آثار اتحاد شكلي ولو ظاهري ؛ وغالبا ما يكاد الشكل الأصلي للحروف يتبين ، وتُلْقَى نقطُ الحروف صدفةً ، حيثما حلّت ؛ وقلّما تحترم قواعد الإملاء ، حتى لتحتّم قراءة هذه النصوص عملية استقراء حقيقيّة ؛ ولولا صيغ التسليم ، ذات المعنى اليسير تبيُّنه ، التي تسمح بملاحظة الأشكال الخاصّة لما يستعمله المؤلف من الحروف ، لصعب تماما ما استقراء عدد عديد

[(27) ابو العباس احمد بابا بن احمد بن احمد بن عمر اقيت التنبكتي الصنهاجي 963/1555 — 1032/1622 وقع في الاسر في 1002/1593 اثر غزو سلطان فاس قبائل من اهل السودان منها قبيلة تنبكتو ، وحمل الى مراكش مع اهل بيته ، واجتمع به علماؤها واخذوا عنه بعد ان عرفوا قدره وعلمه ، وله مؤلفات عديدة في الفقه المالكي من شروح وحواش ، وله في تراجم المالكية : **نيل الابتهاج بتطريز الديباج (او الذيل او تكملة الديباج)** ، كما في النص هنا) واختصاره : **كفاية المحتاج لمعرفة ما ليس في الديباج** ، ترجم فيه لنفسه (انظر **شجرة النور** .. ص 298 . 299 . رقم 1157)]

[(28) ابو العباس احمد بن محمد المنصور السعدى من آل زيدان ، ويعرف بالذهبي وهو رابع سلاطين الدولة السعدية في المغرب الاقصى (959/1594 — 1012/1603) **الاعلام للزركلي** ط . 2 ج 1 ص 224 — 25

(29) قارن بمقال لشربونو في المجلة الآسيوية (جانفي 1853) ص 93.

cf. un article de Cherbonneau [1813-1882] dans le *Journal Asiatique* (Janvier 1853). p. 93.

من الوثائق ؛ وإنّ أقصى ما يصل إليه ، في بعض الحالات ، الكتّاب الأهليّون، ألأكثر براعة هو اكتشاف المعنى العام لهذه التحارير ؛ ولكن قد لا يتمكّن



شرح مختصر خليل لاحمد حاولو
خط تونسي 1039 هـ . مخطوط من مكتبة الشيخ محمد الشاذلي النيفر

احد منهم من تقديم قراءة دقيقة لكلّ كلمة . ويجب القول إنّ عدم مبالاة من يكتبون هذه الرّسائل يصل إلى حدّ ، أنّ الكثير منهم يصبحون غير

قــادرين على قــراءة كــتابتهم الخــاصّة ، إذا مــرّ بعض الوقت على زمــن تخطيطهم لهــا .

وحتّى لو تركنا جانبا – إلى حين – هذه الأنواع من النصوص ، فمـا زال تحقيق اختلافات الـكتابة المغربيّة يمثّل صعوبات كبرى ؛ فلم يقـدّم أحد من المؤلفين الذين عالجوا هذه القضيّة معلومات دقيقة ومفصّلة عن عدد اختلافات الـكتابة المغربيّة أو العلامات التـي تطبـع كلّ واحدة منها ؛ فهربان Herbin (30) لا يتحدث إلاّ عن مثال واحد ؛ ويلاحظ براسنيي (31) Bresnier وجود اختلافات متعدّدة ، إلاّ أنّه لا يذكر [ص 103] لا عددها ولا طابعها ؛ وانفرد بهان (32) Pihan بتقديم تقسيم للمثال المغربـي إلى اختلافين : خطّ الجزائر ، وخطّ المغرب الأقصى ، إلاّ أنّه لم يذكر كيف تميّز الواحد عن الآخر ؛

وقد لا نقدر أن نقيم ، اليوم ، تقسيما محكما لاختلافات الـكتابة المغربيّة ، إذا لم نرجع حتى أصل هذه الإختلافات التـي ما حدثت إلاّ حول عدد قليـل من النقط ، يسهل تعيينها ؛ وبدون أدنى شك ، يقدر كلّ إنسان ، يعـرف الـكتابة ، أن يخلق اختلافا في الخطّ ؛ إلاّ أنّ هذا الشـكل الجديد لا يثبت ولا ينتشر إلا على شرط أن يقبله مركز ثقافيّ كبير ؛ وهناك فقط ، يتبنّاه أساتذة يروونه لتلامذتهم الوافدين من كل الجهات ، فيحملونه ، فيما بعد ، إلى

---

(30) هربان : **محاولة في الخط المغربي** . ادرجه اثر ما كتبه عن **نمو مبـادىء اللغة العربيـة** . باريس الشهر الثامن (20 او 21 افريل الى 19 او 20 ماي) من السنة 11 اي 1802

Herbin [1783-1806] : *Essai de Calligraphie Orientale*, à la suite de ses *Développements des Principes de la Langue Arabe*. (Paris. Floréal an XI).

(31) براسنيي : **درس تطبيقي ونظري في اللغة العربية** (الجزائر 1855)

Bresnier [1814-1869] : *Cours pratique et théorique de langue arabe* (Alger 1855).

(32) بهان : **بيــان عن مختلف انــواع الكتابــة القديمــة والحديثة عند العرب والفرس والترك** (بــاريس 1856)

Pihan : *Notice sur les divers genres d'écriture ancienne et moderne des Arabes, des Persans et des Turcs.* (Paris 1856).

بلادهم الأصليّة حيث يرجعون لمباشرة التدريس ، إلاّ أقلّهم ؛ وكانت هذه المراكز الثقافيّة أي مقرّ الجامعات الكبرى ، ضئيلة العدد دائما في الأمبراطورية العربيّة في المغرب ، حتى في أعظم عهود الحضارة الإسلامية إزدهارا ؛ فما أمكن ، قطّ ، أن نعدّ منها أكثر من أربعة خطوط كان لها الأثر الكبير : **القيروان – قرطبة – فاس – تنبكتو** ؛ وفعلا فإذا بحثنا بإمعان ، أمكن أن نحصر ، في هذا العدد الإختلافات الرئيسية للكتابة المغربيّة ؛ ويظهر أن الأسماء : **قيرواني – قرطبي – فاسي – تنبكتي** ، معنيّة ، تماما ، للدلالة عنها ؛ وبما أنّ العرف اللغوي قد رضي ، بعدُ ، باستعمال تسمية : **الأندلسي** ، وأن ليس لدينا إلاّ معلومات ضئيلة عن تأثير **تونبكتو** الثقافي ، أقترح التسميات التالية : **قيرواني– أندلسي – فاسي – سوداني** [ص 105].

وحذاء هذا التصنيف لكتابة المخطوطات المهذّبة ، لا مانع من أن نستخرج لها تصنيفا ثانيا يحوي ، فقط ، الإختلافات الحاليّة من الكتابة السريعة المهملة في الرّسائل العائليّة ؛ وقد تركّزت اختلافات هذه السلسلة الثانيّة ، حول عدد كبير من النقط ، حيثما قامت مدارس ثانوية ذات أهميّة ما ، كما في **تونس** (33) ، **وقسنطينة والجزائر العاصمة وتلمسان ومراكش** (34) وكما ، أخيرا ، في كلّ الزوايا ذات الحظّ من الشهرة المحليّة ؛ وقد يستحيل تحديد الطابع الثانوي لهذه الإختلافات المتنوّعة التي هي ، بالإضافة إلى ذلك ، مختلطة مع بعضها بعض ، عند الإنتساب إلى مناطق جدّ قريبة ، الواحدة من الأخرى ؛ وأظنّ أنّه يكفي أن تصنّفها حسب جهات كبيرة ، فنطلق عليها اسم كلّ واحدة من هذه الجهات : **تونسيّة – جزائرية – مغربيّة – سودانيّة** .

(33) حلت جامعة جامع الزيتونة بتونس محل جامعة القيروان منذ عهد استقرار الدولة الحفصية

(34) في النص الفرنسي : [à Maroc].

وقبل أن نبحث كلّ واحد من هذه الأصناف على حدة ، سأحاول أن أقرّ العلامات التي تطبع الكتابة المغربية بطابع عام ؛ ويقينا أن طبيعة السطر

برنامج الشيخ عظوم
خط تونسي 1287 هـ . مخطوط في مكتبة الشيخ محمد الشاذلي النيفر

هو الطابع الأكثر شمولا للأمثلة المغربيّة كلّها ؛ فحواشي السطر المغربي هي ، على حدّ قولنا ، مدعوكة عوض أن تكون ذات جوانب حادّة وجليّة ،

كجوانب النسخي . ونجد بين هذين السطرين فرقا هو ، نفسه ، ما نحققه في كتابتنا ، إذا استعملنا في الحالة الأولى ، قلما مثلوم الحدّ أو ريشة إوزّ بُريت بريا غير دقيق ، وفي الحالة الثانية ، ريشة حديدية دقيقة وجديدة ؛ ثم إنّ عرض الخطّ المغربي ، دون أن يكون تماما ، ذا شكل موحّد ، لا يمثّل ذلك التسلسل من الأسطر المليئة التي تدقّ على شكل أسطر أخرى رقيقة حقيقية ؛ فيكسب كلّ ذلك الخط النسخي طابع المتانة الشديدة . [ص 106] .

وقلّما تأتي السطور العموديّة من : ا — ل — ط — ظ مستقيمة ؛ وتتّخذ لها ، في غالب الأحيان ، شكلا منحنيا ، وتحمل في طرفها الأعلى شيئا كالنقطة الغليظة ؛ ومأتى هذه الخاصية الأخيرة التي تلاقيها ، في بداية كلّ الخطوط المستقيمة ، هي قلّة مائعيّة الحبر الذي يستعمله المغاربة ، وأيضا الصعوبة التي يشعرون بها في أن تأخذ أقلامهم الخشنة من الورق ؛ فكأنّ الكاتب مضطرّ ، بوجه ما ، إلى أن ينقّط بالقلم ، قبل الشروع في رسم الحروف ؛ وقد أكسبت المغاربةَ ، هذه الصعوبةُ المزدوجةُ المتمثّلة في الحبر والقلم ، عادة ، هي ألا يخطّوا ، دون توقّف ، إلاّ سطرا أو سطرين على أكثر تقدير ، في المرّة الواحدة ؛ ونتيجة لهذه العادة العامة ، كانت عملية الربط بين الحروف المكونة للمجموع قريبة من السيئة دائما ؛ فتارة تفصل الحروف بياضاتٌ ، وتارة يعلو سطرَ الربط الحرف الذي يجب أن يتصل به ؛ وقد لا نستطيع أن نفهم أشكال بعض الحروف ومن بينها : ع — غ وسط المجموع — إلاّ إذا اعتبرنا هذه الطريقة الغريبة التي كانت — ولا شك — مستعملة في الكوفي .

ولقفلات : ص — ض — ط — ظ ، شكل اهليلجي يميّزها دائما عن قفلات النسخي التي تبدو صادرة عن مثلث ، قائم الزاوية ، معتمدا على قاعدته ، وقد اتخذت أعالي زواياه شكلا مستديرا ؛ ولا يخطّ أبدا في

الفارسية لابن قنفذ القسنطيني

خط قسنطيني 959 هـ . مخطوط من مكتبة الاسكريال

الكتابة المغربيّة السُّنَينة العموديّة التي تنهي : ص – ض وسط الكلمة [أو في أوّلها] .

وتكاد تتخذ أواخر الحروف دائما امتدادا مبالغا فيه ، وخاصة في : س . ش . ص . ض . ل . م . ن ؛ وقلّما توضع النقط على الحروف النهائية : ف . ق . ي [ص 107] ؛ وكثيرا ما تكرّرت إزالة نقط : ة وكادت تتحتّم في نهاية السجعة في النثر المقفّى ؛ وعلى العكس من ذلك ، احتفظ **الأندلسي** بكل نقط الحروف ؛

والربط بين ما انقطع من الحروف قليل ، نوعا ما ، في الخطّ المغربي ؛ وقلّما يجري ، في استقرار ، في نفس الكتابة ؛ ثم إنّه يخضع لبعض التحديدات تحترم بأمانة كافية ؛ فيمكن أن يربط : د – ذ بالحروف : ه – ة – ي ولكن ، يجب لهذا ، أن يربط : د – ذ بالحرف السابق لهما ؛ ويحدث العكس في : ر – ز الذين لا يجب أن يربطا إلاّ متى انفصلا ، هما بالذات ، عن الحرف السابق ؛ إلاّ أننا نجد أحيانا : ر – ز ، وقد ظهرا شاذّين عن هذه القاعدة ، ولكن إنْ هو إلاّ شذوذ ظاهري ؛ ثم إنّه لا يحدث ، إلاّ إذا كان ر – ز على الحجم التالي : ـر ؛ وفي هذه الحالة ، وإذ امتدّ السطر النهائي أكثر من المقدار ، في كتابة سريعة ، واذ ارتبط بالحرف الموالي ، قد ظن بعض النساخ أنّ في هذا ربطا حقيقيا ، واستعملوه ، فيما بعد ، خطأ ؛ ويربط : و – أيضا بالحروف : أ – ه – ة – ي ، إذا ما انقطع ، هو بالذات ، عن الحرف السابق ؛ إلاّ أنّ هذا الربط قليل الإستعمال ؛ وأخيرا فسُنينات الحروف : ب – ت – ث – ن – ي – تختلط غالبا برأس : ر – ز – أو : ن – الذي يليها ؛

وما كان أبدا شكل حرف طابعا لإختلاف في الكتابة المغربيّة ؛ فتعترضك في صفحة حرّرتها يدٌ واحدة حتّى ثلاثة أو أربعة أشكال مختلفة الحرف واحد ؛ ومعرفة هذه الأشكال المختلفة مفيدة لقراءة المخطوطات

المغربيّة ، إلاّ أنّها ضئيلة الأهميّة [ص 108] بالنسبة إلى إدراج كتابة في إحدى القائمات المذكورة أعلاه ؛ وبدون أن أدْخل في تفاصيل هذه التغيّرات التي هي معروفة ، أذكّر فقط بأنّ بعض الحروف احتفظت ، بأمانة ،

كتاب الشفاء لعياض خط مغربي 816 هـ . مخطوط من مكتبة الشيخ محمد الشاذلي النيفر

بالشكل الكوفي — ک — في آخر الكلمة مثلا — وأنّ معظم الحروف الأخرى قد ضعف الفرق بينها وبين الكوفي حتّى إنّ المشارقة أنفسهم لا يميّزون دائما الكوفي عن المغربي ؛ وهكذا فغالبا ما أعلن الغزيري Casiri تحارير كوفية ، مخطوطات ، هي — كما لاحظه قينقوس Gayangos صوابا — مكتوبة بالخط المغربي الخالص .

وخاصّية المثال الذي سميته : **قيروانيا** (اللوحة رقم 2 — الصورة عدد 1) غلاظة سطر تذكّر قليلا بغلاظة النسخي ؛ وتظهر الحروف القصيرة والقريبة بعضها من بعض على حظ كبير من التناسق أو تكاد ؛ فليست لها ملامح **الفاسي** الشديدة التضادّ ولا أشكال **السوداني** الجلفة ؛ فقد حافظت على نوع من الصلابة في السياق ، تدفع إلى الخلط بينها وبين الكوفي القبيح . وذلك خاصّة في النسخ القديمة ؛ وعلى العكس من ذلك ، في النسخ العصريّة ، فالمظهر العام هو مظهر النسخي الذي لا يتميّز عنه دائما من أوّل نظرة ؛ ثم إن النقط الموضوعة على كلّ الحروف النهائيّة تمثّل بيانا يمنع من الخلط بين **القيرواني** وبين **الفاسي** ؛

أما **الأندلسي** «اللوحة 2 — الصورة 2» ، فقد زال استعماله ، منذ أمد ، طويل ؛ وهو من بين أنواع المغربي كلّها ، أسهلها في التعرّف ؛ والسطر العمودي هو عامة ، أدق من السطر الأفقي ؛ وتتجمع الأحرف القصيرة والمستديرة على شكل جد كثيف وتكوّن مجموعا يذكّر شكله ، من بعيد ، شكل خطنا الفرنسي : الروند (35) الصغير ؛ والنقط [ص 109] موضوعة أماكنها ، بكلّ دقّة ؛ وبما أن الأسطر غالبا ما تأتي جدّ متقاربة ، فياء آخر الكلمة توضع نقطه فوق جزئه النهائي ، بدلا من أن توضع تحته ، حسب

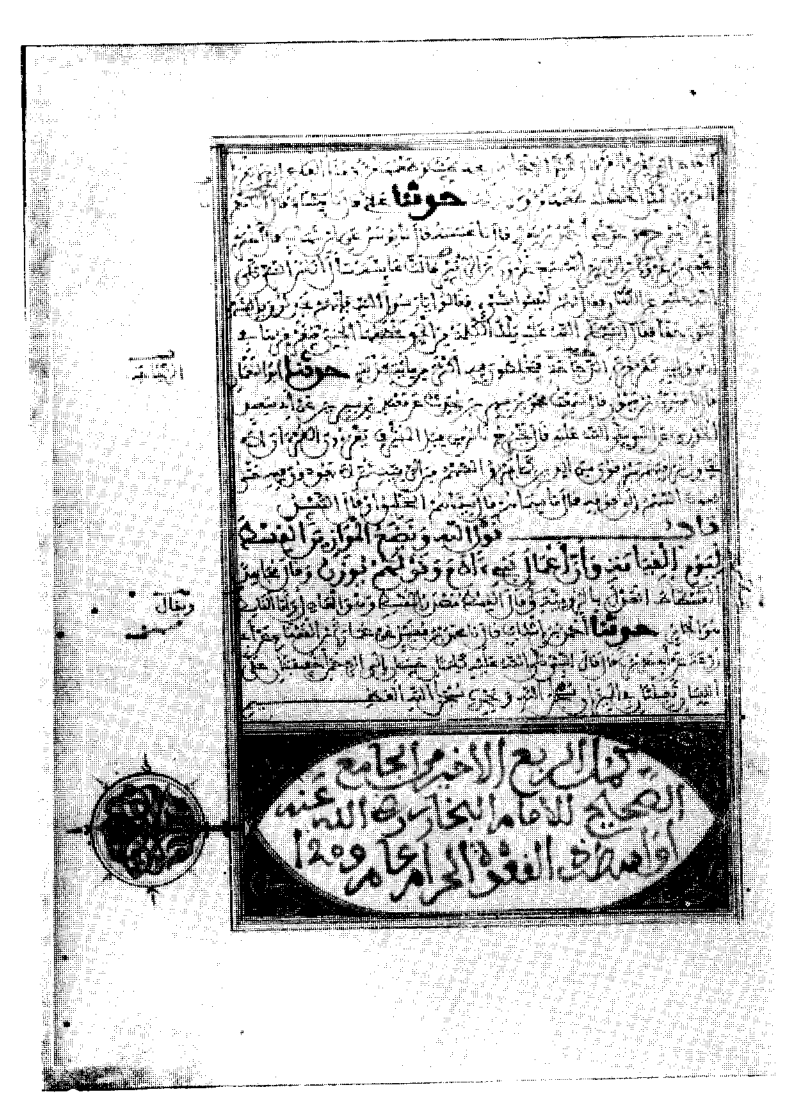
[Casiri 1710-1791

[Pascal de Gayangos 1809-1897

] (35) مكـــرر

] (35) كتابة عمودية ذات حروف قصيرة ومستديرة . النص الفرنسي : Notre petite ronde]

الإستعمال العاديّ ؛ وتجمّع الكلمات هنا أكثر التحاما منه في القيروانـي والفاسـي ؛ ولا تجد فيه لا البياض ولا تداخل الحروف بعضها في بعض حتى ليغطى الواحد قسما من الجزء الملاصق له ، ممّا يدلّ على عادة تسيطر كـل


كمل الربع الأخير من الجامع
الصحيح للامام البخاري رضي الله عنه
أواسط ذي القعدة الحرام عام 1209

الجزء الرابع من صحيح البخاري

خط فاسي 1209 هـ . مخطوط من مكتبة الشيخ محمد الشاذلي النيفر

حرف على حدة ؛ وإذ كان ، دوما ، للأندلسيين حضارة أشدّ خصبا من حضارة المغاربة ، كان لهم أيضا أدوات أكثر إتقانا ، مكنتهم من تسيطر حروف كتابتهم ، بأقلّ تردّد وتوقّف .

وللفاسي (اللوحة 3 — الصورة 1) من الأناقة حظ كبير أو يكاد ، بفضل طول الأسطر العموديّة الذي كاد يبلغ حدّ الشطط ، والتباعد بين الأحرف التي تمتدّ أشكالها بنوع من الوفرة ؛ والأسطر التي اتّحد حجمها ورق مظهرها قليلا ، تندفع في كثير من الجرأة وتبدو ، لأوّل نظرة ، على تناسق كبير ؛ إلاّ أننا ، إذا فحصنا بإمعان هذه الأسطر ، تبيّنّا أن النزر القليل منها يتّبع دائرة متصلة ؛ فكأنّها خطّت بتقطع ، بدلا من أن تكتب دفعة واحدة ؛ وإذا أخذنا كل مجموع من الحروف على حدة ، كان له مظهر التشويه والتقلّب ، إلاّ أنّ الجميع يحتفظ ، على كلّ ، بسياق شديد التناسق ؛ وتكاد الأشكال النهائية تكتسب دوما امتدادا مشطّا وتختلط مجاميع الحروف ، حتى تبدو متداخلة بعضها في بعض ؛ وكثيرا ما تنعدم النقط ، في الحروف النهائيّة .

ويعرّف **السوداني** (اللوحة 3 — الصورة 2) شكلُه الجلفُ ، في يسر ؛ وأشكالُ الحروف الثقيلةُ [ص 110] هي نهاية في عدم التناسق ؛ والأسطر كثيفة أحيانا ، ودقيقة أحيانا أخرى ؛ وترتفع الأسطر العموديّة إلى علوّ كبير لا تناسب بينه وبين غلظة الكتابة وشكل القفلات ؛ وانحدار الكتابة العامّ قويّ البروز ، ويتّجه نحو الشّمال ؛ ولولا هذا الإنحدار ، لكان المظهر العامّ مظهر كوفيّ جلف خطّته يد غير ثابتة ؛

وكلّ هذه البيانات غامضة قليلا ، إلاّ أنّه من المستحيل أن نضفي عليها دقّة أكبر ، لأنّ أشكال حرف ما ، ليست قطّ — كما رأينا أعلاه — خاصّة بنوع أو آخر من الكتابة ؛ إلاّ أننا نصل بيسر كبير إلى التمييز بين **الأندلسي** وبين **السّوداني** ؛ وليس إلاّ بين **القيرواني** وبين **الفاسي** أن نتردّد غالبا في

رسالة الباجي الاندلسي الى الراهب من افرنسة

خط اندلسي 875 (؟) هـ . حسب بيان على هامش النص مخطوط من مكتبة الاسكريال

الحكم ؛ ولكن تجب ، فعلا ، الملاحظة أن تسمية هذين الكتابتين لا تستلزم مطلقا أنّهما خطتا في هذه أو تلك ، من المدينتين التين تدينان لهما بالتسمية .

وإنّ ما نشعر به من حرج في تصنيف الكتابة المهذّبة المحكم ، يكاد يستحيل التغلّب عليه . إذا دار الحديث حول الحروف التي خطت بكل عجلة ؛ ورغم أنّ الإختلافين : **التونسي والسوداني** هما أحسن تميّزا ، فما زال من المستحيل أن نفرّق بينهما ، بأوجه دقيقة ؛

وإنّ المثال **التونسي** ليتخذ له ، أكثر فأكثر ، ملامح النسخي في تونس العاصمة ، وفي شمال المملكة ؛ وقد نظنّ غالبا أنّ لنا نسخيّا فاسدا ، لولا نقط : ف — ق ؛ وتتكون الحروف من أسطر مليئة ومكتنزة ، تتتابع بانتظام دون أن تتجاوز الحدّ إلى فراغ ما بين السطرين ؛ وإنّ ما كان من ثقل التأثير التركي الطويل المدى ، قد أكسب [ص 111] شؤون تونس العاصمة دورا أكثر شرقيّة ؛ وحلّت الكتابة النسخيّة محلّ الخطّ **القيرواني** في قسم كبير من أشكاله .

والكتابة **الجزائرية** بعيدة عن التوحّد في كامل البلاد الجزائريّة ؛ ومن وجهة النظر هذه ، فقد خضعت « عمالة قسنطينة » للتأثير التونسي مع الإحتفاظ في كتابتها بأكثر شبه **بالقيرواني** ؛ وتقابل أسطرَه الغليظةَ وأشكالَه القصيرة خفّةُ كتابات غرب المغرب وسرعتُها ، وفي الجزائر العاصمة بالذات استعمل الخطّ **الأندلسي** أحيانا كمثال لأهلها الذين انحدر الكثير منهم من أصل أندلسي ؛ إلاّ أنّهم لم يقلّدوا **الأندلسي** تقليدا أعمى ؛ ولمِثالهم الأكثر انتشارا ، حظّ وافر من حدّة **الفاسي** ؛ وفي عمالة « وهران » ، نشعر شعورا أدقّ بجوار المغرب الأقصى ؛ وليس من اليسير أن نقرّر إن كانت هذه الكتابة **مغربيّة** أو **وهرانيّة** ؛ ويذهب أهالي : « عمالة وهران » المتعلّمون ، كلّهم تقريبا ، إلى فاس للدّراسة ، ويرجعون منها بنوع الكتابة المتخذ في جامعة هذه المدينة ؛ إلاّ أن السطر ، بصفة عامة ، أغلظ في تلمسان ووهران منه في المغرب.

وفي المغرب الأقصى بقي الخطّ **الفاسي** كما هو تقريبا ؛ ولقد فقد، فقط، قليلا من أشكاله المتحرّرة، وكسب أكثر بساطة لمّا اقتبس من **الاندلسي** رتابة تناسق الحروف .

وقد احتفظت كتابة السودان من الخط **السوداني** بثقله وجلافته ؛ وإذ كاد السودانيّون ينعزلون تماما عن المغرب لحاجز بلاد الطوارق، ذلك الشعب الذي احتفظ بكتابته القومية — كما يعلم — فما غيّروا شيئا في الخطوط الكبرى، من الكتابة العربيّة التي تبنّوها، باديء ذي بدء .

وفي كامل جنوب المغرب فللسكّان الذين تبدوْا تماما، كتابة أخذت في الحين نفسه من مثال السوداني والأشكال المستعملة في الجهة الشماليّة من القارّة الإفريقيّة التي يجاورونها ؛ وما زال مظهر الصلابة في هذا الصنف الثانوي من الإختلافات يذكّر بالكوفي .

نقد الكتب

ورقـــات

عن الحضارة العربيـة بافريقيا التونسيـة

تاليف : حسن حسني عبد الوهاب
طبع مكتبة المنار - تونس سنة 1965
472 صحيفة 1/8 كبير (القسم الاول)

سبق لنا أن زعمنا منذ زمن غير بعيد (1) أنّ كتاب « بساط العقيق » الذي ألّفه شيخنا الأستاذ ح . ح . عبد الوهاب منذ نصف قرن لم يزل مرجعا أساسيّا وتصويرا كافيا لحضارة القيروان وأنّ ما نشر في الموضوع من بعد لم يزد عليه شيئا يذكر . غير أن الشيخ الأستاذ ما فتىء منذ ذلك العهد يبحث عن تاريخ تونس وحضارتها ويجمع لكتابه الكبير فيها وثائق وموادّ قضى العمر في التنقيب عليها بين الكتب المطبوعة والمخطوطة والنقائش والآثار والتحف والآنية والصور والنقود وما إلى ذلك . وكان بين الفيئة والأخرى يصدر للناس غررا من اكتشافاته (2) تزيد القرّاء بتونس والشرق والغرب إشتياقا إلى

(1) « حوليات الجامعة التونسية » عدد 2 ص 239.

(2) دراسات للمؤلف نشرت مفردة أو على المجلات التونسية والأجنبية بالعربية والفرنسية منها ما ضمه كتاب « الورقات » هذا .

ما وراء ذلك من ذخائر هـي موضوع كتابه الـكبير « كتاب العمر » المنتظر . ثم رأى — جزاه الله — ان يجيب إلى رغبة أصدقائه وتلاميذه فأخرج من ذلك الـكتاب فصولا اقتبسها من مقدّمات بعض أبوابه نشر القسم الأوّل منهـا ووعد بقسمها الثانـي إلى حيـن .

وظهر الـكتاب بعنوانه المتواضع « ورقات » إلاّ أنّ قارئه لا يلبث ان يتبيـّن اتّساع هذه الدراسات وعمقها . فهـي وإن حرّرت في مواضيـع معيّنة فإنها تفيض عن نطاق عناوينها الضيـّق فتتناول جلّ مظاهر الحضارة والعمران.

وأوّل ما يشعـر به الإنسان وهو يقـرأ هذا الـكتـاب انّ الميدان ميدانـه والموضوع موضوعه وأنه يتنقـّل بين تلك الأبواب المختلفة الأغراض كـأنّـه عليم بها جميعا متخصّص في كلّ من فنونها لا يعسر عليه فهم جزئياتهـا ولا الإلمام بـكلّيـّاتها بل ولا ينفر ممّا قد لا يـكون من خصوص مطالعاته وأبحاثـه ولا يترك بابا أو بحثا لآخر فضّله عليه لميل في نفسه أو هواية . ورأينا آنّ السر في ذلك يرجع إلى ما يمكن اعتباره خصائص الإنشاء والتأليف عند ح.ح. عبد الوهّاب من حيث المادّة والطريقة واللّغة والأسلوب .

فالمادّة غزيرة ثمينة بـكر عادة . يقف القارىء في جلّها على اكتشاف جديد أو تحقيق وإثبات ورفع لبس مع فتح الآفاق البعيدة . والطريقة يـأنس إليها الباحث المتضلّع في العلم كما يألفها الريّض الضيـّق العطن لأنها تقصد دائما إلى استيعاب الموضوع والإحاطة به بالرّجوع إلى أصوله وأوائله وبدايته وتتبّع تطوّره ومراحله إلى الانتهاء إلى نهايته . فلا يشعر عندها القارىء بغرابة الموضوع عنه . واللّغة سهلة واضحة قريبة والأسلوب مطبوع لا يعتريهمـا غموض ولا تـكلـّف ولا تعقيد . فهما لغة النثر العلمـي وأسلوبه .

فالصفة الأساسيّـة في تـآليف الشيـخ الأستـاذ هـي — عنـدي — هذه الصبغة العلميّة في المعنى والمبنى . وبها نالت أبحاثه حظوتها الـكبرى عند القرّاء

والباحثين بأروبّا خاصّة . إلاّ أنّ قرّاء العربيّة من مجدّدين أو متشبّثين بالقديم لم يعدموا فيها — مع ذلك — ما يصبو إليه العربيّ عادة من الصبغة الأدبيّة في التأليف . فتنوّع الموضوعات والانتقال فيها من الرصين الجدّي إلى النادرة والقصّة المرفّهة عن القارىء وكذلك إيراد أخبار الرجال وأقوالهم المأثورة ونتف من أشعارهم هو كنه الأدب عند العرب تتميّز به مؤلّفاتهم من مؤلّفات الغرب وتكتسي به صبغة خاصّة بها لا تنفي عنها طابعها العلمي ولا تجرّدها من حلاوة المتعة . والأدب عندهم كما علمت فائدة ومتعة وأخذ من كلّ شيء بطرف .

وسيعرض النقد يوما إلى تآليف الأستاذ ح.ح. عبد الوهاب بالتحليل والتعليل ولا مناص من الانكباب على هذه النزعة عنده والخاصيّة بالنظر والتدبّر . ولعلّ المقام يسمح لنا هنا أن نذكر أنّ عميد الأدب والنقد في البلاد العربيّة الأستاذ الدكتور طه حسين لما أهدي اليه كتاب مؤلّفنا « المنتخب المدرسي من الأدب التونسي » من عشرين سنة خلت قرأه في ليلته — وهو يعدّ 150 صحيفة — ثم أصبح يحدّث عنه . وامتزاج العلم بالأدب عند العرب سنّة معروفة تجدها في أمثال كتاب الحيوان ومروج الذهب وعيون الأخبار ونفح الطيب وغيرها من كتب الجاحظ والمسعودي وابن قتيبة والمقري ومن لفّ لفّهم .

فبهاتين الميزتين الظاهرتين في تآليف ح.ح. عبد الوهاب وبالرغم من تكوّنه العلميّ الأدبيّ من غير معلّم وبغير كلّيّة — إذ هو نسيج وحده — استطاع فرض اسمه في حقل أدباء العرب وعلماء الغرب فهو الشيخ الأستاذ بأصحّ معنى اللّفظتين .

والكتاب لهذه الأسباب كلّها . لكونه جمع فصولا في شتّى مظاهر الحضارة ولاتّصافه بصفات كتب الأدب ينبو عن التحليل . فالناقد له لا يسعه

إلاّ الوقوف منه أحد موقفين فإمّا أن يتعسّفه فيقصد — جريا على عاة الناقدين للكتب — إلى تحليله وعند ذلك ليس له إلاّ أن يستعرض فهرسه كلّه بلا استثناء — وهو طويل — وأن يعلّق على كلّ عنوان من عناوينه فيقع في أتفه أنواع النقد أو بالأحرى في لا نقد . وإمّا أن يتناول الكتاب بجملته معرضا عن التحليل فيعرّف بنوع محتواه — أو أنواعه — بدون طمع في الاستيعاب والضبط ثم يستخرج خصائصه ومن ذلك يستنبط اتّجاهات المؤلّف في الكتاب خاصّة ثم في إنتاجه كلّه عامّة فيحاول وصفه ووضعه في منزلته من طبقات الكتّاب والمؤلّفين . وهو ما آثرناه هنا .

على أنّ هذه الفصول المتنوّعة ومشاربها المختلفة لعلّ صاحبها جمعها حول نقط مركزيّة أربع يستطيع الإنسان ربطها بها إلاّ أنّه ربط واه متكلّف لا يثبت عند الرجوع إلى تفاصيل المضمون . فالنقطة الأولى هي « قصّة الثقافة التونسية » في نظرة شاملة تنيرها من نشأتها إلى عهد النضج والاكتمال : من بني زيري من صنهاجة . والنقطة الثانية « بيت الحكمة التونسي » موضوع طريف خطير الشأن يكشف للعلم خبايا من التاريخ كان قد ضمّها النسيان أحقابا . والثالثة في « مآثر بني الأغلب » والأخيرة في « النقود التونسيّة » .

وهذه المحاور الأربعة ليست إطارات للبحث إنّما هي كما حدّدناها مجرّد نقط نسج المؤلّف حولها ما شاءت له علومه الفيّاضة ان ينسج . فلا يظنّ القارىء أن كلّ ما جاء فيها ينحصر في مضمون عناوينها .

قصّة الثقافة التونسيّة ؟ بعد نظرة خاطفة شاملة لها في جميع عصور تاريخ تونس (ص.ص 23 — 36) ينفتح الكتاب على بحث طويل ممتع في تأسيس القيروان ! (ص.ص 39 — 62) وهنا يترك المؤلّف موضوعه — وهو في الظاهر قصّة الثقافة لأنّه سيعود إليها بعد الحديث عن القيروان (من ص 64 إلى ص 266) — ليبرز في ما نعتقد انه مظهره الأساسيّ كعالم وهو التاريخ بل

نوع خاصّ أو قل لون خاصّ من التاريخ هو بعد البحث والكشف وفوق البحث والكشف إرادة الفهم لا الاقتصار على مجرّد المعرفة . فإذا ما عثر على الحادث أو الأثر فهو يريد الوقوف على سببه ومغزاه وصلته بغيره ثم ربطه بحياة الناس ونواياهم ممّا يتّصل لا بالتاريخ المجرّد بل بما يسمّى بفلسفة التاريخ ولذا فإنه لا يقنع أبدا بالظاهر يقف عنده بل حيث نرى غيره من المؤرّخين يتوقّف أو يعثر أو ييأس أو يمرّ بالصمت فهو يقف ويسأل التاريخ والآثار أو يتساءل فيبحث ويتعنّت حتى يصل إلى الدليل القطعي أو إن أعوزه الدليل يبدي الافتراض (3) الذي تدعّمه القرائن والقياس والرجوع إلى سنن البشر وقواعد العمران في تبحّر من العلم عجيب . فمفهوم التاريخ عنده إذن ليس مجرّد تسجيل ما تجود به الكتب والآثار بل هو إدراج كلّ ذلك في عمليّة تصوير حياة الناس في تلك العصور ثم إن ضنّت المصادر بما لديها أو بما يطلبه منها فهو يستنطقها ويفحص ما عندها ويتفقّه فيه لا أنّه يقتصر على ما تمليه عليه شأن موقف جلّ المؤرّخين منها . ونتبيّن ذلك في اهتمامه الخاصّ ببدايات الأمور وأوائلها وظهورها إلى الوجود لأنّ في ذلك وفي ذلك فقط الوقوفَ على معناها ومغزاها إذ هناك سبب وجودها أي العلّة أو الضرورة الداعية إلى وجودها . وهو ما أردنا — في شيء من الإطالة — أن نرى فيه الفرق الحقيقي بين التأريخ للحوادث أي مجرّد تسجيلها وبين فهم تلك الحوادث أي كشف أسرارها وردّها إلى نواميسها المسيّرة لها وهذا ما نعتقد أنه مفهوم التاريخ الصحيح . ثم إذا تمّ له ذلك فتطوّر الحادث أو النظام أو المؤسّسة يبدو له وللقارىء جليّا طبيعيّا يسهل الإلمام به فيتتبّعه إلى تقصّيه ، وهي طريقة نراه يتوخّاها في جميع النقط التي عرض إليها بالبحث كتأسيس القيروان نظر فيه إلى ما قبل القيروان (ص.ص 39 — 43) وإلى أسباب إختيار موقعها من أرض إفريقية ثم إلى تطوّراتها في جميع الميادين

(3) مثلا ص ص 62 ـ 64 في « الوساطة بين عرب الفتح والشعوب الاخرى » وسبب سكوت المؤرخين عن بيت الحكمة وعلمائه (ص 195)

حتى إكتمالها (ص.ص 43 — 62) . وكقصّة الثقافة بتونس كيف بدأت وعلى أيدي من دخلت ثم أسباب ظهورها في ألوان خاصّة بها ثم من الذي تضلّع بها (ص.ص 23 — 266) وكبيت الحكمة (ص.ص 192 — 266) والبحث فيه آية النبوغ في جمع الموادّ والأدلّة واستنطاق التاريخ بفضلها والتغلّب على الصعاب لإبراز هذه المأثرة العظيمة من مآثر الأغالبة وبني عبيد من بعدهم أمام أعيننا حيّة ناطقة بعد أن جعلها الدهر نسيا منسيّا .

فلعلّ من خصائص المؤلف كمؤرّخ إذن تصدّيه إلى المواطن الصعاب الغامضة المعضلة يقرع أبوابها محبّة في الكشف والاختراع وابتهاجا عند الفوز حيث أحجم الناس وخابوا . وإذا ما عرض إلى العلوم والفنون وانتشار العربيّة والإسلام بإفريقية باحثا عن بداياتها ثم مسايرا لها في تطوّرها فأهمّ ما يعتني به مؤلّف « الورقات » رجال تلك الحركات وأعلامها الذين ساهموا في إيجادها ونموّها . وهنا نصل إلى ما يبدو لنا الغرض الأساسيّ من الكتاب بل وكذلك من الكتاب الكبير « كتاب العمر » حسب ما نعلمه عنه وهو معرفة الرجال الذين أنجبتهم تربة تونس فنبغوا في جميع أصناف العلم والفنّ وكوّنوا هذا الوطن وصاروا مفخرة له . فتراجم الرجال بعد العثور على أسمائهم أساس بحث المؤلّف . لكنّ ما رأينا من طريقته ومفهومه للتاريخ والعلم جعله يضع هؤلاء الرجال في ميادينهم فاشتغل إذن بهذه الميادين واستقصاها في أبحاث ممتعة ثريّة شملت ألوانا عديدة من ألوان العلم والأدب والفنّ والحضارة . وكلّ من هذه الأبحاث قد يقوم بذاته مقام الكتاب المفرد المستوعب لموضوعه في دقّة من البحث وشمول في النظر وتحقيق يطمئنّ له القارىء ويرضاه . فهي تكشف لنا عن مجاهل التاريخ حينا كبعثه لبيت الحكمة مثلا وتثبت حقيقة مطموسة حينا آخر كإبرازه مآثر الأغالبة ومجدهم وقد تناساه التاريخ وأعان بنو عبيد على تقبيره (4) وكإنقاذه بعض رجالات

(4) انظر خاصة ص ص 222 — 230 و 353 — 394 وفصول تأسيس القيروان (43 — 62) والنقود التونسية (397 — 466) وغيرهما .

تونس العظام من النسيان وتحقيقه نقطا غامضة من تاريخ الحضارة والعمران أهملها المؤرخون أو أحجموا عن الخوض فيها كعمليّة تعريب إفريقية وإسلامها من بداية أمرها (5) وكقصّة الكتب ومكتبات إفريقية منذ تكوينها إلى نقل جلّها إلى مصر وتلاشي ما بقي منها بين البلاد (6) ودخول صناعة الكاغذ من إفريقية إلى أروبّا (7)...

فتلك هي صفات المؤرّخ الأصيل : مهما كان موضوع بحثه محدودا فلن يستطيع تناوله إلاّ إذا ألمّ بما يحيط بذلك الموضوع في الزمان وفي المكان والنوع لربط الأمور بأشباهها وإنارة البعض منها بالبعض الآخر. فدراسة الحضارة والعمران في تونس الإسلاميّة دعت المؤلّف إلى التبحّر في تاريخ تونس منذ الإسلام وقبل الإسلام وإلى التضلّع في شتّى ميادين العرفان كاللّغة والأدب والفقه والآثار والنقود وغير ذلك ممّا هو الشرط الأساسي في اكتمال صفات المؤرّخ. فكتاب « الورقات » جاء كالصورة المصغّرة لحركة مؤلّفه العلميّة فاتّصف بالصفات التي نعتقد أنها صفاته الأساسيّة : علم واسع يشمل جلّ ميادين العرفان ويعتمد جميع أنواع الأصول والوثائق ويتوخّى التثبّت والتحقيق مع الاندفاع أحيانا إلى الحدس والتخمين وقد يبدو مصيبا في ذلك غالبا وهو مع ذلك لا يهمل جانب النقد فقد يعترف بنقص المادّة أو غموض المسألة أو عدم الاطمئنان التامّ إلى نتيجة فيفضّل إرجاء حلّ مشكلة إلى أن تسمح الظروف أو يدعو الباحثين الشبّان إلى مواصلة الاعتناء بها. وينظر في آراء المؤرخين القدماء والمتأخرين محبّذا أو مفنّدا ومعدّلا متمّما لما عندهم.

(5) انظر مثلا ص 141 وما بعدها.

(6) ص ص 325 – 350.

(7) ص ص 207 – 209

وكما أنّ كتاب « الورقات » اتّصف بخصال مؤلّفه كعالم مؤرّخ فلا مناص له من أن يحمل في صفاته وفي طريقته ونوعه ضعف هذا النوع ونقصه . فالكتاب كما رأينا يحتوي على نظرات شاملة تؤلّف بين الجزئيّات وتحيي المراحل التاريخيّة فتبرز المشاكل واضحة خاضعة إلى نواميس قارّة . إلاّ أنّ النظرة الشاملة لا يكون معها الاستقصاء فالمسائل العلميّة والحوادث التاريخيّة والمظاهر الحضاريّة المقصودة لا يمكن ان تتمتّع ببحث متعمّق مستأصل . والتراجم لا تزيد عادة على ما يسمّى « بعلم الرجال » لا تحلّل خصائصهم ولا تدرس اتّجاهاتهم ونزعاتهم بتفصيل مؤلّفاتهم وتحليلها واستخراج عناصرها التي بها تُضمّ إلى مذاهب ومدارس تعرف بها . ذلك أنّ الموضوع وإن كانت له وحدة تجمعه وهو العمران والحضارة في جميع مظاهرها فلا يكون عملا مخصّصا في كلّ من هذه المظاهر . هو إذن عيب هذا النوع من الكتب ونقصه ولا تبعة في ذلك على المؤلّف فيه لكن إن سمحنا لأنفسنا بالتقدّم في البحث خطوة قلنا إن هذا النقص المتّصل بالنوع ضرورة كأنّه استفحل في كتاب « الورقات » لأن مؤلّفه لم يقتصر على حدود النوع فيبقى في نطاق الدراسة العامّة لا يخرج بها إلى عمل الاختصاص — وعند ذلك لا لوم ما دام « النقص » طبيعة ذلك النوع وسمته — بل هو في كلّ من هذه المسائل يروم الاستقصاء ورأينا استعصاء الاستقصاء في مثل هذا المقام ويبغي منزلة التخصّص في جميع الميادين حيث لا مجال للتخصّص في زماننا إلاّ في بعضها لا في جميعها لاتّساع أرجاء العرفان . رأى اتساع الموضوع وآنس من نفسه مقدرة جبّارة على مجابهته وجمع له مادّة يعسر على الرجل الواحد جمع مثلها في حياته وشغف بالعلم والبحث وحبّ الوطن فأقدم في حماس وغيرة وتفان على عمل يفوق مجهود الواحد الفرد . لكنّنا سبق أن رأينا أنّ واحدا من أبناء هذا الوطن لم يواصل العمل الذي شرع فيه المؤلّف منذ نصف قرن فلعلّ ذلك ممّا دعاه إلى طرق جميع هذه الأبواب خشية منه على تلف ما وفّق إلى إنقاذه من غائلة النسيان فاضطلع بذلك في مقدرة تجعل منه

الأستاذ الفذّ والإمام المتتبع في كلّ ميدان تناوله بالدرس. لكنّ التضلّع قد يعوزه تمام التفرّغ.

ولنأخذ لذلك مثلا ترجمة القزّاز. فهو أحد أيمّة اللّغة والأدب وهو ممّن كان له الأثر العميق في بث علوم العربيّة بإفريقية فالمقام وموضوع الكتاب وباب انتشار الثقافة منه خاصّة ممّا يوجب الحديث عنه في هذا الكتاب وفعلا فقد تكرّر ذكر القزاز والتنويه به وجاءت ترجمته مطوّلة في عشر صفحات (174 — 184) (8) وهو بحث له من السعة والتعمق والقيمة ما يضيق عنه كتاب « ورقات » جاءت في موضوع الحضارة عامّة أي في كتاب لا يقبل الاستقصاء في كلّ مادّة.

يقرّر أستاذنا الجليل أن القزّاز ولد سنة 345 (ص 174) و « أقام مدّة ليست بالقصيرة في مصر كان خلالها يخدم بعلمه وقلمه الأمراء الفاطميين ولا سيّما الأمير العزيز بن المعزّ لدين الله » . وأنه ألّف كتابه الكبير بطلب من العزيز هذا (ص 175) . كلّ ذلك نقلا عن ابن خلّكان عن المسبّحي. ثم يقول : ويظهر أن القزّاز فارق مصر بعد وفاة مخدومه العزيز بالله — سنة 387 — وعاد إلى بلده ومسقط رأسه القيروان واستقرّ به إلى آخر حياته... » (ص 175). ويذكر له من المؤلّفات كتبا عديدة من بينها « الجامع » (ص 180) وكتاب « الحروف » (ص 181) ويرجّح أن القزّاز مات عن سبعين عاما لا عن تسعين (ص 179).

ولو أن أستاذنا الجليل لم يطمئنّ كلّ الاطمئنان إلى ما جاء في وفيات الأعيان — على أنّ ابن خلكان ثقة عادة عليه يعوّل جميع الباحثين — ووجد من الوقت والتفرّغ ما يسمح له بمقارنته بغيره من المصادر لذهب به الرأي إلى أنّ القزّاز ولد حوالي سنة 325 لا سنة 345 وأنّ إقامته بمصر كانت قصيرة

(8) جاء الحديث عنه ايضا (ص ص 102 — 103) في باب العناية بالتعليم.

وأنّه ألّف كتابه الكبير بالقيروان لا بمصر ألّفه للمعزّ لدين الله الفاطمي لا للعزيز . وأن هذا الكتاب هو كتاب « الجامع » وأنّ القزّاز لم يؤلّف كتابا آخر اسمه « كتاب الحروف » بل هو كتاب واحد إسمه « الجامع » وموضوعه في الحروف فعرف أحيانا بكتاب « الجامع في الحروف » فكان يقال : « كتابه الجامع » أو « كتابه في الحروف » . والتبس الأمر على بعض المؤلفين فاعتبر الكتاب كتابين . وأنّ القزّاز مات عن تسعين عاما . ولعلّ النظر في المصادر ممّا يؤيّد هذا الرأي . فلنتقدّم إلى فضيلته بهذه المحاولة في تحقيق ما كان هو فاتح الباب فيه :

تعتمد المصادر كلّها على « أنموذج » ابن رشيق بلا شكّ . وهو كتاب مفقود استعمله الأدباء والمؤرّخون للأدب يقتبس منه كلّ ما أراد وقد ينشأ عن الاقتباس خطأ في التأويل وغلط في النقل . ومعروف أنّ جلّ المؤرّخين العرب وعلماء التراجم عندهم ينقل المتأخّر منهم عن المتقدّم بلا نقد عادة . فالقاعدة إذن عند استعمالنا النصوص القديمة أن نرجّح الأسبق لأنّه أقرب إلى الأصل ولم يكثر تداول ما يرويه بين الأيدي قبل وصوله إليه فيؤمن فيه لهذا السبب عبث التحريف والتصحيف ولأنّ ما عند المتأخّر إنّما هو عادة ما جاء عند المتقدّم بشيء من المسخ كبير أو صغير . ومن أقدم من ترجم للقزّاز ياقوت (المتوفى سنة 626) والقفطي (سنة 646) وابن خلّكان (سنة 681) وابن فضل الله العمري (سنة 748) والصفدي (سنة 764) .

أوّل ما نلاحظ أنّ واحدا من هؤلاء لم يذكر للقزّاز كتابا اسمه كتاب الحروف (9) . نلاحظ ثانيا أنّ ابن خلّكان وحده ينسب إلى العزيز فكرة كتاب « الجامع » فتقدّم بها إلى القزّاز يطلب منه التأليف على مقتضاها . بينما يسكت ياقوت عن اسم الأمير . أمّا القفطي والعمري فيذكران المعزّ .

(9) يذكره له ابن خير في الفهرسة ص 363 بقوله : « ... وكتاب الحروف في النحو من تأليفه أيضا » ولا يذكر له « الجامع » .

يكرّر ذلك العمري مرّتين في ترجمته بينما يذكر القفطي من التفاصيل ما لا مجال للشك بعده في أنّ الكتاب ألّف للمعزّ بالقيروان سنة 361 قبيل ارتحال الخليفة إلى مصر .

ونترك الاحتجاج بالعمري لأنّه متأخّر عن ابن خلّكان ناقل عن غيره أحيانا — على أنّنا نرجّح أنه كان يملك « الأنموذج » — وقد يتّهمه الإنسان بتفضيل العبارة المزوّقة على التحقيق والتثبّت . فهو يقول في القزّاز : « فاضل عزّ بالمعزّ... وألّف له كتبا ما سبق إلى طريقها.... وأجازه المعزّ مرّة ثلاثمائة ألف درهم على كتاب في النحو نحو ألف ورقة وأجرى عليه كلّ هلال بدرة للنفقة... » وهي قرائن نعلمها في تأليف « الجامع » فلا ريب في أنّ هذا الكتاب هو كتاب « الجامع » وإن لم يسمّه العمري .

ونبقى أمام نصّي القفطي وابن خلّكان . والقفطي أسبق من ابن خلّكان . وقصّة تأليف كتاب « الجامع » بطلب من المعزّ يرويها القفطي (10) في تفاصيل دقيقة بينما هي خالية من الضبط عند ابن خلّكان : فالقفطي يذكر اسم المعزّ بقوله : « معدّ أبو تميم المدعو بالمعزّ المتولي على افريقية » ويذكر اسم عامله الذي أمره بتقديم طلبه إلى القزّاز في تأليف الكتاب وهو « عسلوج ابن الحسن الدنهاجي » والسنة التي كان فيها هذا الطلب وتاريخ الانتهاء من تأليف الكتاب فيقول : « وفي سنة 361 أمر معدّ أبو تميم المدعو بالمعزّ المتولي على افريقية عسلوج بن الحسن الدنهاجي العامل أن يأمر القزّاز النحوي هذا بأن يؤلّف كتابا يجمع فيه سائر الحروف التي... » إلى أن يقول : « ...فلمّا كان يوم الثلاثاء لثماني عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان من السنة المقدّم ذكرها دخل محمد بن جعفر النحوي القزّاز هذا بالكتاب الذي أمر بتأليفه على يد عسلوج فوقف عليه المعزّ وأعجبه وقال للمصنّف.... » الخ.... (11).

---

(10) كتاب « انباه الرواة » ج 3 ص ص 84 وما بعدها.

(11) المصدر السابق

أمّا ابن خلـّكان فزيادة على تأخّره على القفطـي فإنّ سنده في قصّة طلب العزيز الفاطمـي بمصر من القزّاز تأليف كتابه لا يطمئنّ معه الناقد إلى صحّة الخبر حتى يفضّله على غيره وإن انفرد هو بذكر السند . فهو لم يسمّ في روايته صاحب الخبر بل يقول (12) : « وقال غيره » [أي غير الصيرفي الراوي لما سبق في سياق الحديث] ثم يـأتـي بخبر طلب العزيز صاحب مصر إلى القزّاز بأن يؤلـّف له كتابا في اللّغة . وعبارة « وقال غيره » هذه في عرف العلماء وابن خلـّكان أيضا ضعيفـة . ثم هو يختم أخبـاره عن هذا الـكتـاب بقولـه : « ذكر ذلك كلّه الأميـر المختـار المعـروف بالمسبحـي في تاريخـه الـكبير » . وظاهر ما في هذا الخبر بسنده من الهلهلة بالنسبة إلى دقّة خبـر القفطـي . وإن لم يأت بسند .

وإنما أطلنا في إثبات هذه النقطة من ظروف تأليف كتاب « الجامع » للقزّاز لأنّنا نستنتج من ذلك نتائج أخرى هامّة : منها أن القزّاز عاش تسعين سنة (90) لا سبعين (70) — والخلط بين العددين كما ذكرناه مرّات كثير في العربيّة — فعبارة ابن خلـكان : « وكانت وفاته بالحضرة [القيروان] سنة 412 وقد قارب السبعين » ينبغـي أن نقرأها هكذا : « وقد قارب التسعين » فيـكون القزّاز قد ولد حوالي سنة 325 لا سنة 345 . ذلك لأنّه إذا ما ثبت أنّ كتابـه الـكبير قد ألـّفه سنة 361 — وقد ثبت في ما نعتقد أنّنا بيـّنّاه هنا — فلا يعقل أن يـكون القزّاز إذّاك ابن ستّ عشرة سنة فقط . فلا يتقدّم الخليفة بطلب كهذا إلى مراهق ومن أين له أن يعرفه على هذه السنّ ؟ . ثم إننا نعلم اعتناء المعزّ الفاطمـي بالعلم والعلمـاء والأدب والأدبـاء بإفريقيـة كعنايتـه بـابن هـانـي وأملـه — الخائب — مفـاخرة الشرق بـه . فذلك أقـرب أن يـكون منه لا من العزيز بعده.

---

(12) « وفيات الاعيان » ج 6 ص ص 9 — 11 .

والتبس الأمر على المؤرخين أصحاب هذه الترجمة — وهم من الشرق طبعا — لأنّ الشرق عندهم موطن الإلهام وهو أجدر من القيروان بأن يبرز فيه نوابغ الفكر وتظهر فيه درر التآليف .

وبعد فإنّنا نرجو ألاّ يرى شيخنا الأبرّ في هذه المحاولة لتحقيق نقطة من العلم إلاّ ثمرة ممّا غرس . فتآليفه منجم للبحث وبحر يغوص فيه طلاّب اللآلي وطريقة مثلى نروم النسج على منوالها والسير في ضوئها . وأين لنا هذا إن لم يكن منه ذاك ؟

ثم أفلا نكون قد شاركنا بنصيب متواضع في الصرح الذي يريد تشييده قبل كلّ شيء ؟ فمغزى كتابه « الورقات » بل مرمى تأليفه الكبير « كتاب العمر » ليس إلاّ إعلاء مجد تونس بإبراز معالمها وأعلامها بعد إحقاق الحقّ . أفلا يرضيه أن نكون قد حاولنا إثبات « تونسيّة » كتاب « الجامع (13) » في موطن تأليفه وشخص طالب تأليفه وفي تقصير مدّة غربة مؤلّفه عن الوطن — بعد إحقاق الحقّ ؟

ذلك أنّ كتاب « الورقات » يطفح كلّه — من وراء ما حاولنا إبرازه من خصائصه العلميّة — بحبّ لهذا الوطن لم يضر صبغته العلميّة بل كان المؤلّف يعتمد هذه الصبغة العلميّة لتركيز ما يستخرجه من مفاخر وطنه ومآثر أبنائه فيبتهج ابتهاج من خدم العلم والوطن . فلئن كان الكتاب كتاب علم فان موضوعه يوافق هواية وشغفا في نفس مؤلّفه وفعلا فإنّه قضى عمره في البحث والتنقيب بشغف وحماس وسرور على درر ثمينة أراد نظمها عقدا فاخرا تتحلّى به تونس مدى العصور ويكون كنزا لأبنائها الباحثين ينهلون من معينه ويسيرون في ضوئه لمواصلة عمل طالما دعاهم إلى الاضطلاع به وقد شرع لهم فيه سويّ السبيل .

الشاذلي بويحيى

---

(13) عسانا نوفق يوما الى تفصيل الحديث في هذا المعجم الفذ وغيره من تآليف القزاز .

دائرة المعـارف الاسلاميـة

الطبعـة الجديـدة ـ بـاريس ـ لايدن

Encyclopédie de l'Islam.
Nouvelle édition. Paris. Leiden.

تمّ الجزء الثانـي (1) من هذا المشروع الجليـل مشروع إعـادة « دائـرة المعارف الإسلاميّة » . ومعروف أنّ الطبعة الأولى — على كبير قيمتها — صارت لا تفـي بحاجة الباحثين في الشؤون العربيّة والإسلامية لتقدّم علـم الاستشراق خطوات شاسعة في هذا الباب الخاصّ من ميدانه العامّ .

في سنة 1954 ظهرت الـكرّاسة الأولى من الجزء الأوّل بإدارة أعلام من المستشرقين تحت إشراف الاتحاد المجمعـي الدولي . وتوالى بروز كراريسها بلا انقطاع في اللّغتين الفرنسية والأنـكليزية إلى الآ ن حيث ظهرت الـكراستان عدد 41 وعدد 42 (2) وبهما يبتدىء الجزء الثالث بحرف H .

والهيئة الجديدة المشرفة الآن على إدارة تحرير « دائرة المعارف الإسلاميّة » تتركّب من الأساتذة ليويس B. Lewis من جامعة « لندن » وبـلاّ Ch. Pellat مـن جامعـة « باريس » وشاخـت J. Schacht مـن جـامعـة « لايدن » وهم ممّن عرفهم الشرق الإسلامـيّ — وتونس خاصّة — بمؤلّفاتهم

(1) من حرف C الى حرف G . وقد احتوى الاول على الحـرفين A و B

(2) في سفر واحد .

ومحاضراتهم ومشاركتهم في شتى المؤتمرات العلميّة وتكوينهم لطلبة من الشرق والغرب صار الكثير منهم من رجال العلم والتعليم في أوطانهم . ويشاركهم في تحرير فصول « دائرة المعارف » علماء من كبار المستشرقين وبعض الشرقيين حيانا ممّن توافق طرق بحثهم المنهاج المتبع في هذه الموسوعة العلميّة .

وهذه الطبعة الجديدة لا تعرض إعراضا تامّا عن فصول الطبعة القديمة بل هي تثبت ما لم يزل صالحا منها إمّا بايراده بنصّه وإمّا بزيادة ما قد يحتاج اليه من تصويب وتنقيح وتعديل . لكن أكثر الفصول جديدة لضرورة لحاق الموسوعة بما وصل اليه علم الاستشراق الآن وهو كما أسلفنا سبب إعادة تأليفها .

فمتابعتها منهج الطبعة الأولى المشهورة بقيمتها وإشراف من ذكرنا من جلّة العلماء على إدارتها والتحري الكبير في اختيار المحرّرين وقبول فصولهم وإعادة النظر فيها عند الحاجة ينبىء عن جدّ هذا العمل الكبير ويضمن له قيمة يطمئنّ إليها الباحث .

ثم إن النظر في فصولها يشهد بذلك . فلقد اتّسع ميدانها عمّا كانت عليه الطبعة الأولى اتّساعا عظيما فأضيفت فصول جديدة كثيرة جدّا إلى فصول الطبعة الأولى القليلة وزيدت زيادات هامّة لبعض ما أثبت من الفصول القديمة واتّجه الاعتناء خاصّة إلى التحرّي والتثبّت والوقوف عند الدقائق من ناحية ومن ناحية أخرى إلى توسيع سلسلة المصادر والمراجع لكلّ فصل ممّا يكسب الموسوعة الصبغة العلميّة الصحيحة .

ثم هي تتحلى بصور تزيد الفصول قيمة ووضوحا وبخرائط أنيقة بيّنة قد يودّ القارىء لو كثر عددها وعدد تخطيطات المدن وغيرها من الآثار . كما قد يؤسف لعدم ترجمة بعض المصطلحات بقيت في لغتها الشرقيّة وقد لا

يفهمها قارىء الفصل فهما مضبوطا إن كان يجهل تلك اللّغة (3) . ثمّ إن الخطّ في كتـابتها جاء دقيق الحـروف جدّا عسير القراءة مضنيـا عند طـول المطالعـة .

عرض لبعض فصول « دائرة المعارف الإسلاميّة » :

فصاحة (ج 2 ص.ص 843 – 846 . تحريـر فون قرينبـاوم G. E. Von Grünebaum من جـامعة « كليفورنيا » بالولايات المتحدة) : بعد تحديد كلمة فصاحة بالرجوع إلى معناها في اللّغة وهو صفاء الشّـيء وخلوصه ممّا يشوبـه يقسم صاحب الفصل الفصاحة إلى ثلاثة أنواع وهـي : فصاحة المفرد أي اللّفظة إذا سهل النطـق بهـا وسلمت من العجمـة والغرابـة وشذوذ الـوزن . وفصاحة الـكلام أي الجملة إذا كانت صحيحة التركيب سالمة من التنافر والغموض أو الإغراب . وفصاحة المتـكلّم أي من توفّرت في أسلوبه شروط فصاحـة اللفظ والجملـة .

ثم يدرس المسألة باستعراض نظريات الأيمـّة . ومن تحليل هذه النظريـّات يتبيـّن مذاهبهم في التمييـز بيـن البلاغـة والفصاحـة – أو الخلط بينهمـا عند بعضهم – وفي تحديد مدلول الفصاحة ووصفها وذكر شروطها . كلّ ذلك بالرجوع إلى نصوص كثيرة من مؤلـّفاتهم والإشارة إلى مواطن تلك النصوص إشارة مضبوطة ضافية لا بالاقتصار على تسمية الـكتاب بل بذكر الصحيفة أو الصفحات منه فيستخلص زبدتها ويدمجها في بسط مسألة الفصيـح . إلاّ أنّ اعتناء الـكاتب بهذه المؤلـّفات يتتبـّعها في نزاهة علميـّة كبيرة جعله يستعرض نظريـّات هؤلاء الأيمـّة واحدة بعد أخرى عوض استعمالها في نطاق بحث

---

(3) مـن ذلك مثـلا كلمات تركية عديدة في القسم المتعلق بالمملكة العثمانية من فصل « غـلام » (ج 2 ص ١١١١ وما بعدها)

شـامـل للموضوع يركّبـه هو في تخطيط منسجم من عنـده تدخل خلالـه تلك الآراء .

ولعلّه لم يوفّ النوع الثالث من أنواع الفصاحة — فصاحة المتكلّم — حقّه من البحث إذ اقتصر قبيل نهاية الفصل على الإشارة إلى أنّ بعض الأيمّة يرى تفاوتا في فصاحة الكلمات فمنها الفصيح ومنها الأفصح وكذلك في المتكلّمين ومن ذلك أنّ النبي أفصح الناس . ولعلّه كان يحسن التعرّض إلى فصاحة الرجال والقبائل وتمييزها لا من حيث الفصيح والأفصح فحسب بل وكذلك من حيث الفصيح وغير الفصيح أي المتروك من اللّهجات لهجات القبائل وعيوب النطق وغير ذلك ممّا يعين على تمييز الفصيح وفهم معنى الفصاحة ومدلولها .

(ملاحظة : نقترح كلمة emphase لترجمة فخامة عوض كلمة dignité هنا . ص 844) .

غـزل (ج 2 ص.ص 1051 — 1057 . تحرير ر. بلاشير R. Blachère من جامعة « باريس ») (4) .

فصل خطير القيمة لشخصيّة محرّره وتضلّعه في الأدب العربيّ عامّة وبالأخصّ في القديم « الكلاسيكي » منه واتّباعه في أبحاثه كلّها منهجا نقديّا لا يقبل النظريّات التقليديّة قديمة كانت أو حديثة عربيّة أو استشراقيّة قبولا مسلّما بل يرجع لتعديلها أو دحضها أو إثباتها إلى طريقة تتمثّل إجمالا في أمرين أساسيّين : في النقد الخارجي أي النظر في الأسانيد وسبرها بالقرائن التاريخيّة والأدلّة العقليّة وفي النقد الداخلي بفحص النصوص أي بفحص الأدب ذاته اعتمادا في فهمه على اللّغة خاصّة — أي بطريقة فيلولوجيّة أكثر

(4) يتمادى الفصل الى ص 1060 بدراسة الغزل فى آداب اسلامية بغير اللغة العربية حررها غير الاستاذ بلاشير من العلماء . ولا نعرض اليها هنا

منها أدبيّة . وبعبارة أخرى فهو يفضّل تصديق النصّ المدعّم بقرائنه على مماشاة ما يسمّى بالمذاهب أو الآراء في تاريخ الأدب .

ولا يخفى ما في ذلك من تجديد لفهم الأدب — وجلّ النظريّات في الأدب العربيّ تحتاج إلى إعادة النظر فيها — وما في ذلك أيضا من إثارة مشاكل قد لا يوافق جميع الناس على ما يذهب اليه الأستاذ بلاشير في حلّها إلاّ أنها توجب التقدير بما لها من متانة البحث ومن التحرّي قبل البتّ .

يتبيّن كلّ ذلك منذ بداية الفصل في بحث ضاف مدقّق غرضه الوقوف على أصل كلمة « غزل » في اللّغة وما في ذلك الأصل اللّغويّ من صلة بالمعنى الذي انتهت اليه الكلمة للدلالة على نوع من الأدب الوجدانيّ موضوعه الحبّ . ثم متى ثبت استعمالها بهذا المعنى واستقرّ . واستعراض عدّة صيغ صرفيّة مشتقّة من مادّة غزل . وأخيرا ما يتّصل بهذا المعنى من ألفاظ أخرى كالتشبيب والنسيب وما يتفرّع عنهما مع النظر في وجه استعمالها جميعا لهذا المعنى ولمعان مجاورة .

ثم يأتي النظر في تاريخ الغزل في الأدب العربي وتطوّره . وأوّل مشكل هو مشكل بدايته متى كانت وأين كانت من جزيرة العرب وعلى أية صورة . فيرجّح من بين الافتراضات تلقيح غناء بدائيّ بدويّ بمذاهب غنائيّة حضريّة أهمّ مصدر لها بلاط المناذرة بالحيرة مع إمكانيّة تأثير بعض القرى الحجازيّة كمكّة والطائف وتيماء . ومن هذه الصلة بين الغزل وحياة العرب الرحّل نشأت معاني الغزل التي صارت له سنّة تحتذى .

وفي القرن الأوّل بينما يتمادى شعراء الشام والعراق على طريقة قريبة من الطريقة التقليديّة القديمة تحدث البيئة الحجازيّة الجديدة وحياة الترف بمدنها خاصّة ميلا إلى اللّهو والتصابي يتغنّى به شعراء الحجاز ويلحّنه المغنّون .

ولا يخفى ما في دراسة هذا التراث الأدبي من العسر لما اعتراه من تغيير وزيادات وتلف وخلط في النسبة قبل تدوينه .

غير أنّ غزل شعراء الحجاز له مميّزات خاصّة يعرف بها رغم بقاء الصلة بينه وبين غزل شعراء البادية بل من مزيجهما في الأغراض والمعاني ينشأ هذا الغزل « الحجازي » حيث تبرز للعاشق ولمحبوبته صورة هي في الجملة تلك التي يصوّرها لنا شعر عمر بن أبي ربيعة ومن حذى حذوه من شعراء الغزل الإباحيّ .

إلاّ أنّ اتخاذ الأستاذ بلاشير شعر عمر بن أبي ربيعة غالبا مثالا يعتمده لاستنباط صورة الغزل الإباحيّ في معانيه العامّة قد يبدو فيه بعض التضييق لمجال الموضوع : ذلك أنّ عمر بن أبي ربيعة وإن كان زعيم الإباحيين بلا منازع فهو يمتاز فيما نعتقد عن جميعهم بأن جعل نفسه موضوع التغزّل . فلقد انفرد من بين شعراء الغزل بجعل المرأة عاشقة له هائمة بحبّه مطواعا ممتثلة إلى أوامره راغبة ساعية للقائه متحيّرة على سلامته متحيّلة لخلاصه من أهلها وأعدائه ممّا يميّز غزله عن غزل أترابه فلا يجعله صورة لهم — وإن كانوا متأثّرين به ساعين في اقتفاء آثاره . وقد لاحظ النقّاد هذا ومن قبلهم أتراب عمر ومعاصروه واستغربوا طريقته في موقفه من النساء ممّا يدلّ على أنها شاذّة عن طريقة غيره من شعراء الغزل منذ عصره .

فلنذكر من ذلك نصّا لابن رشيق — وإن طال بعض الطول — (5) :

« وسمع ابن أبي عتيق قول بن أبي ربيعة المخزومي :

بَيْنَمَا يَنْعَتْنَنِي أبْصَرْنَنِي

دُونَ قَيْدِ المِيلِ يَعْدُو بِي الأغَرْ

(5) العمدة ج 2 ص 124 . وجاء هذا النص في ذكر عيوب النسيب.

قَـالَـتِ الـكُبْـرَى أتَعـرِفْـنَ الفَـتَـى
قَـالَـتِ الـوُسْطَـى نَعَـمْ هَـذَا عُـمَـرْ
قَـالَـتِ الصُغْـرَى وَقَـدْ تَـيَّـمْـتُـهَا
قَـدْ عَـرَفْنَـاهُ وَهَـلْ يَـخْفَـى الْقَـمَـرْ

فقال له : أنت لم تنسب بهن وإنّما نسبت بنفسك . وإنّما كان ينبغـي لك أن تقـول : « قالت لي فقلت لها فوضعتُ خدّي فوطِئتْ عليه » .

وكذلك قال له كثيّر لما سمع قوله :

قَـالَـتْ لَـهَـا أخْتُهَـا تُعَـاتِـبُهَا
لاَ تُفْسِدِنَّ الطَّـوَافَ فِـي عُـمَـرِ
قُـومِـي تَصَدّيْ لَـهُ لأُبْـصِـرَهُ
ثُمَّ اغْمِـزِيهِ يَا أُخْتِ فِـي خَفَرِ
قَـالَـتْ لَـهَـا قَدْ غَمَزْتُهُ فَـأَبَى
ثُـمَّ اسْبَـطَرّتْ تَشْتَدُّ فِـي أَثَرِي

أهكذا يقال للمرأة ؟ إنّما توصف بأنها مطلوبة ممتنعة .

قال بعضهم ــ أظنّه عبد الكريم ــ (6) : العادة عند العرب أنّ الشاعر هو المتغزّل المتماوت وعادة العجم ان يجعلوا المرأة هي الطالبة والراغبة المخاطبة . وهذا دليل كرم النحيزة في العرب وغيرتها على الحرم » . (انتهى كلام ابن رشيق) .

ثم إنّ الغزل الحجازيّ في نظريّة الأستاذ بلاشير إنّما هو غزل الإباحيّين مع حصر مدى كلمة الإباحيّة في نطاق لا يتعدّى حدود الأخلاق . فيذهب

(6) هو عبد الكريم النهشلي.

به هذا الرأي حتما إلى الشكّ — بعد فحص ما لدينا من المعطيات — في أنّ ما يسمّى بالغزل العذري هو كما يدّعونه غزل حجازي ظهر ونما في بادية الحجاز في القرن الأوّل . بل يرجّح أنّ علماء العراق وشعراءه بعد القرن الأوّل نسجوا حول نواة قد تكون حقيقة حجازيّة عذريّة قديمة بأن زادوها صبغة « كرتوازيّة » أي صبغة — هي عراقيّة الأصل — تتّسم بأسمى شعور التقدير والإخلاص والتقديس للمرأة (وهو ما يطلق عليه في العربيّة عبارة الحبّ العذري) فأضيفت هذه الأشعار الموضوعة إلى أخرى قديمة وربطوا ذلك كلّه بالقصص الغرامي — الحقيقي منه والخيالي — فنشأ عن ذلك لجميل بن معمر وأمثاله صورة أبطال غراميّين هي الصورة المعروفة للشعراء العشاق في الأدب العربي . ومفهوم هذه النظريّة أن الغزل العذريّ متأخّر في الزمان عن الغزل الإباحيّ الحجازيّ وأنّه إذن غير حجازيّ صرف .

وظاهر ما في هذه النظريّة من الجدّة بل ومن الثورة في رفضها ما هو متعارف من أنّ الغزل العذريّ — مع ما فيه من زيادات الرواة والقصّاص — إنّما هو غزل حجازيّ نما في القرن الأوّل في بادية الحجاز قوامه عفّة العاشق وهيامه بحبّ امرأة جعل منها المثل الأعلى للجمال والكمال فخضع إليها خضوع العابد للمعبود ممّا سيبقى في الأدب العربيّ سنةً يحتذيها الغزل المصطنع في عصور بني العبّاس وفي الأندلس ومنه قد يكون تسرُّب النزعة « الكرتوازية » إلى أروبّا القرون الوسطى ومنه أيضا يأخذ الصوفيّة معاني العشق الإلاهيّ وأسلوب نظمه في أشعارهم . على أنّ هذه النظريّة التقليديّة في الغزل العُذريّ لم ترض النقّاد من قبل كلّ الرضى ولا تعليل أنصارها إيّاها بمرضيّ تمام المرضاة فتعليلها بالحرمان في بادية الحجاز لا يكفي وحده ولا يصحّ بل يجدر النظر في أسباب أخرى قد يكون من بينها أثر البيئة الحجازيّة البدويّة التي تجمع إلى رقّة القوم ألمَ الفراق الناشيء عن حياة الترحال . ومعروف ما « للفراق » أو « الغياب » من أثر في تذكية الحساسيّة وإيقاد

الخيال فيدفع ذلك بالشاعر إلى الهيام من ناحية ومن ناحية أخرى إلى مبـالغـة عواطف التعلّق والعفاف والمثل العليا لأنه مخلص لا لشخص حقيقـيّ يـراه دائما بما فيه من نقائص وعيوب بل إلى خيال تكسوه تأمّلاته الباطنيّة جميع صفـات الـكمـــال .

ليس هذا إلاّ مجرّد افتراض كما أنّ نظريّة الأستاذ بلاشير ناتجة عن الافتراض ولا يسع الباحث في هذا الموضوع إلاّ الافتراض ما لم تتـوفّـر — على حدّ شرط الأستاذ بلاشير — دراسات مفردة لشتّى مشاكل الغـزل العذري وهو — على حدّ قوله أيضا — مشكلة المشاكل في الغزل .

ويرى الأستاذ بلاشير أنّ الغزل المتّسم بالرّوح « الـكرتوازي » — أي العذري — يتمثّل بصورة كاملة من حيث المعنى واللّفظ في شعر العبّاس بن الأحنف — العراقـيّ المسكن وهو من شعراء القرن الثانـي — بعد أن اكتسى بشـيء منه بعض غزل بشار بن برد — وهو مثله عراقـيّ — : فهو إذن من أثر الحياة في مدن العراق حيث الظرف والظرفاء .

أمّا الغزل المنسوب إلى أبـي نواس فالى التأثيرات العربيّة فيه تنضاف تأثيرات أعجميّة مع نظرة خاصة إلى الحياة عند طبقة من أهل بغداد أعرضت عن الأوهام « العذريّة » وأقبلت على اللّذّات حيثمـا وجدت ففشا الغـزل في الإماء والغلمان في غير ما تعفّف .

أمّا القرن الثالث ففيه تـكتمل نظريّة « المثل الأعلى الـكرتوازي » فتتبلور في مؤلّفات كـكتاب « الموشّـي » للوشّاء وكتاب « الزهرة » لمحمد بن داود الأنطاكـي بينما يعود الغزل نسيبا تستهلّ به القصائد وتطغى عليه الصناعـة . وكذلك الأمر في القرن الرابـع مع شـيء من التعلّق بالطريقة « الحجازيـة » أحيانا وبالطريقة النواسيّة أحيانا أخرى مع إسراف في الإباحيّة عند أمثال ابن الحجّـــاج .

وبعد استعراض سريع لمظاهر الغزل في الأقطار العربيّة الإسلاميّة بعد تلك العصور والإشارة إلى ظهور الموشّحات والزجل يرى الأستاذ بلاشير أنّ الشعر العربيّ المعاصر بفضل تأثّره بمذاهب أروبيّة من الشعر الوجدانيّ كأنّه يبحث عن سبيل لتجديد الغزل لم يحن أوان دراستها بعد .

الشاذلي بويحيى

في النحو العربي : نقد وتوجيه

تأليف مهدي المخزومي
333 صفحة ـ منشورات المكتبة العصرية صيدا بيروت 1964

نعرف مهدي المخزومي من خلال كتابه « مدرسة الكوفة » (1) وقد حاول فيه أن يضبط منهج نحاة الكوفة في دراستهم للّغة والنحو والخصائص التي تتجلى فيها طرافتهم ، وقد لمح المخزومي في هذا الكتاب إلى المواضيع التي يمكن أن تقع إعادة النظر فيها لتجديد النحو العربي باستغلال بعض النظريات الكوفيّة التي لم يكتب لها أن تؤثر في أمهات كتب النحو العربيّة ؛ وها هو اليوم يعود إلى هذا الموضوع في كتاب غايته أن يضع فيه المبادىء التي يراها كفيلة بتغيير ملامح النحو العربي ومضاعفة جدواه ، وان ينبه فيه إلى مواضيع لم تلاق عند النحاة القدامى ما هي جديرة به من العناية .

وقد صدّر الكتاب الأستاذ مصطفى السقا عميد كلّية الآداب بجامعة الرياض ، فنوّه بمجهود المؤلف وسعيه إلى « تخليص النحو العربي من الشوائب التي علقت به من جرّاء اختلاطه بمباحث المنطق والفلسفة والنظريات غير الأصلية في المباحث اللّغوية » (2) .

---

(1) بغداد 1955.

(2) ص 10.

وافتتح مهدي المخزومي كتابه بمقدّمة استعرض فيها بـايجاز مراحل تاريـخ النحو العربـي ، كما ذكّر ببعض المحاولات التي وقعت « لتيسير النحو» في عصرنا هذا معتبرا انها لم تصحح وضعا ، ولم تجدد منهجا ولم تأت بجديد إلاّ إصلاحا في المظهر وأناقة في الإخراج » (3) ثم بيّن المبادىء التي حاول أن يلتزمها في دراسته هذه والغاية التـي يهدف اليها كتابه .

فقد حاول — حسب تعبيره — أن يحدد « موضوع الدرس النحوي » وأن يعيد « إلى النحو ما فقده وما اقتطع منه من دراسة أدوات التعبير التـي أكان النحاة قد اسقطوها من حسابهم » (4) ويرى المخزومـي أن « الدرس النحوي — كما ينبغـي أن يـكون — إنّما يعالج موضوعين مهمين لا ينبغـي أن يفرّط الدارسون في واحد منهما لأنهما معا يمثلان وحدة دراسية لا تجزئة فيها » (5) . هذان الموضوعان هما :

1 — « الجملة من حيث تأليفها ونظامها ومن حيث طبيعتها ومن حيث أجزاؤها ومن حيث ما يطرأ على أجزائها في أثناء التأليف من تقديم وتـأخيـر ومن إظهـار وإضمـار » .

2 — « ما يعرض للجملة من معان عامة تؤديها أدوات التعبير التـي تستخدم لهذا الغرض كالتوكيد وأدواته والنهـي وأدواته والإستفهام وأدواته إلى غير ذلك من المعانـي العامة التـي يعبّر عنها بالأدوات والتـي تمليها على المتـكلّمين مقتضيات الخطاب ومناسبات القول » (6) .

وهكـذا يمكن أن نقسم المواضيـع التـي تناولها المؤلف إلى قسمين كبيرين خـُصّص القسم الأول لنقد نظريات النحاة العرب واقتراح التحويرات التـي

(3) ص 15

(4) ص 16

(5) ص 17.

(6) ص 17/18.

يراها مهدي المخزومـي ضرورية ومن تلك المواضيـع الجملة والإعراب والفعل بمختلف أنواعه والتنازع والإشتغال ، وخـُصّص القسم الثّانـي لاستعراض ما أشار اليه المؤلّف في المقدّمة من اساليب التعبير .

وأهم ما يسترعـي الإنتباه في القسم الأول ما أبداه المؤلف من آراء في كيفية تجديد النحو العربـي ومن ذلك اقتراحه تقسيم الجمل على أساس جديد هو معنى المسند إليه وما يعبّر عنه من تجدّد أو ثبوت فالجملة الفعلية هـي « التـي يدلّ فيها المسند على التجدد أو التـي يتصف فيها المسند إليه بالمسنـد إتصافا متجددا... أما الجملة الإسمية فهـي التـي يدلّ فيها المسند على الدوام والثبوت أو التـي يتصف فيها المسند إليه بالمسند إتصافا ثابتا غير متجدد » (7) .

وعلى هذا الأساس ليست الجملة الفعلية هـي التـي تضمنت فعلا ماضيا أو مضارعا فحسب بل هـي كذلك الجملة المتضمنة لاسم فاعل أو لإسم مفعول لأن كليهما فعل دائم « يتضمن معنى الفعل ويستعمل استعماله » (8).ثم انه لا يميّز في الجملة الفعلية بين الفاعل ونائب الفاعل لأنه لا يرى فرقا بين وظيفـة الإسم في جملتين من نوع : « تـكسر الزجـاج » و « كـُسّر الزجاج » فعلاقة الزجاج بانـكسر وكـُسّر واحدة لذا يجدر أن نطلق على الإثنين مصطلحـا واحدا هو كلمة « فاعل » باعتباره مسندا اليه أي موضوع الحديث (9) .

ومن المواضيـع التـي يتناولها المؤلف بالدرس موضوع الإعراب الذي شغل بال النحاة وطغى على دراساتهم إلى أن أصبـح أساس كل المؤلفات النحوية وغايتها ، ويتجه في تناوله هذا الموضوع اتجاها يرمي إلى غايتين : أولاهما هي إرجاع الإعراب إلى حدوده الطبيعية ، واعـْتباره مجرد مظهر ينبغي ألاينحصر إهتمام

---

(7) ص 41/42.

(8) ص 117 ومن الملاحظ هنا ان المؤلف يعتمد في ذلـك لا على الاستعمال فحسب بل كذلـك على آراء النحاة القدامى وخاصة نحاة البصرة . انظر من ص 116 الى ص 119.

(9) ص 47.

النحاة فيه، وثانيتهما هـي تجريده من نظرية العامل، واعتبار علاماته دلالات على معانٍ وخاصّة بالنسبة إلى الإسم، وهو بالإعتماد على ذلك يقرّ الآراء التـي كان ابراهيم مصطفى قد أبداها في كتابه احياء النحو (10) فيعتبر أن « الضمـّة علم الإسناد دالّة على أن الـكلمة مسند اليه أو تابع للمسند اليه» (11) وان «الخفض علم الإضافـة والـكسرة تدلّ على أن ما لحقتـه مضـاف إليـه أو تابـع للمضاف اليه » (12) وان الفتحة « ليست... علما لشـيء خاص ولـكنها علم كون الـكلمة خارجة عن نطاق الإسناد أو الإضافة » (13) .

وليس اعتبار الحركات دلالات على معان بالأمر الجديد فهو رأي جل النحاة القدامى، لـكن الجديد هو أن يُقيد كل نوع من أنواع الحركات بمعنـى تقييدا متصلّبا، وهو موقف قابل للنقاش لأنّ الواقع كثيرا ما يناقضـه، ولم يخف ذلك عن المخزومـي فأخذ يبحث عن تعليلات للمظاهر اللغوية التـي لا تؤيّـد نظريته فاعتبر أولا أن تغيّر الحركات في الفعل لا تدلّ على تغير المعانـي وان الفعل ينبغـي أن يعتبر مبنيا، والتجأ ثانيا إلى تعليـل لا يخلو من تـكـلـف لنصب المسند اليه بعد إنّ وأخواتها، ولعلّ أهمّ مظاهر الضعف في نظريته هو أن الفتحة لا ينطبق عليها ما ينطبق على الضمّة والـكسرة فليست هـي علامة لمعانٍ مضبوطة ممـا يجعل الإنسان يتساءل عن قيمة التمييز بين الحركات على أساس اختصاصها بمعان محدودة؛ فاذا كانت مزية هذه النظرية انها تمكن من التخلي عن نظرية العامل فانـّها لا يمكن القول بها إلا إذا غضضنا النظر عن عدّة مظاهر، ولعلّ تفسير الإعراب لا يـكون إلا باعتبار عناصر عديـدة منهـا ارتبـاط الحركـات

(10) القـاهـرة 1937.

(11) ص 70.

(12) ص 76. ويرى المخزومي ـ حلا لمشكل الحروف ـ ان حروف الجر يمكن ان تعتبر واسطة للاضافة

(13) ص 81 . او اسماء وافعال كانت تدل على معان مستقلة ـ فافرغها الاستعمال من معـانيها (ص 79)

بالمعانـي أحيانا ومنها مفعول بعض الألفاظ في الفاظ أخرى . ومنها مقتضيات صوتية تتجلى في انسجام حركات أواخر الألفاظ في بعض التراكيب .

معنى ذلك انه لا يمكن تفسير ما يطرأ على أواخر الألفاظ من تغيير في الحركات بالرجوع إلى المعنى في جميـع الحالات لأنّ تقيّـد نوع ما من المعانـي بحركة معيّـنة ليس تقيّـدا تاما ، فلامناص من أن نبحث عن تفسير ذلك في مظاهر أخرى ومنها تأثير بعض الألفاظ في الفاظ أخرى أي ما يسميه النحاة العوامـل اللفظية ولـكن ينبغـي أن نجرد هذه العوامـل من القوة السحريـة التـي اسندها النحاة اليها كما ينبغـي ألا نذهب في البحث عنها إلى ما ذهب اليه القدماء من تأويل وتقدير وافتراض ، وألا ننظر اليها نظرتنا إلى العلّـة الفلسفية التـي لا بد أن تتقدم معلولها ولا بد للمعلول منها ، فاذا تقيدنا بالواقع لتحديد العوامل اللفظيـة أمكن الغاء مسألتـي الإشتغال والتنازع من الدراسة النحوية باعتبار كليهما غير ذي موضوع ولا حاجة لنا به ، والتخلي عن هاتين المسألتين من الأمور التـي يقترحها مهدي المخزومـي في كتابه (14) .

ومن المواضيـع التـي يعيد المخزومـي فيها النظر الأفعال التـي يفصلهـا النحاة العرب عن غيرها باعتبارها عوامل من نوع خاص وهـي كان وأخواتها وأفعال المقاربة والشروع فينتقد منهج النحاة في دراستها ، ويعتبر انه ينبغـي ألا نعتبر بما بينها من تشابه ظاهر يتلخص في احتياجها إلى اسم مرفوع وآخر منصوب ، فيقترح أن نخرج منها « ليس » باعتبارها أداة نفي لا فعلا و«صار» لانها تدخل على ما ليس أصله مبتدأ وخبرا وان نميـّز في سائرها بين ثلاثة أنواع :

1 ــ قسم « يدل على الـكينونة العامة وهو « كان » وينبغـي أن يلحق بها استقرّ وحصل ووُجد وحدث » .

(14) من ص 161 الى ص 175.

2 — قسم « يدل على الكينونة الخاصّة وهو أصبح وأمسى واضحى وظل وبات لأن أصبح تدل على الوجود في الصباح وامسى تدل على الوجود في المساء.... وينبغي أن يلحق بهذه الأفعال الدّالة على الكينونة الخاصّة فعل آخر لا أدري لماذا أهملوه مع أنه لا يختلف عنها دلالة ولا إستعمالا وذلك هو «غدا» فهو يدل على الوجود في الغداة وهو لا يكتفي بالمرفوع .... » .

3 — قسم « يدل على الكينونة المستمرّة وهو ما زال وما انفك وما برح وما فتىء وينبغي أن يكون منها استمر وما دام وما وُجد وما استقر وما حصل لأنهن وأمثالهن مما يدل على الوجود المستمرّ » (15) .

ويعتبر المؤلف أن الأسماء المنصوبة التي لا يتم معنى هذه الأفعال بدونها ينبغي أن تعتبر أحوالا كما أقره الكوفيون لأنها تبين « هيئة خاصّة للموجودات المتحدث عنها » (16) .

أما أفعال المقاربة والشروع فيعتبر المخزومي أن الحاقها بكان وأخواتها « خلط » (17) وان الجملة التي تأتي بعدها فعلية « تتألف من فعل وفاعل يتأخر الفاعل فيها عن الفعل في موضع ويتقدم على الفعل في موضع آخر » (17) فلا موجب أن نعتبرها خبرا لتلك الأفعال ، ولا يخفى ما في هذه النظرة من تبسط وتوضيح قائمين على التزام الواقع والإقتصار على ما يتلفظ به المتكلم بدون احتياج إلى تقديرات وتأويلات .

وقد حاول المؤلف في ما اعتبرناه قسما ثانيا لكتابه أن يتناول دراسة « ما يعرض للجملة من معان » وغايته من ذلك أن يبين بأن هذا الموضوع تشمله الدراسة النحوية إذ لا فرق بين « الدرس النحوي ودراسة المعاني ، لن يكون

---

(15) ص 180.

(16) ص 182.

(17) ص 189.

هناك من فرق ما دام موضوع الدراستين هو الجملة » (18) وقد خصص عدّة فصول لذلك درس فيها أسلوب التوكيد (19) وأسلوب النفـي (20) وأسلـوب الإستفهـام (21) وأسلـوب الجـواب (22) وأسلـوب الشرط (23) وأسلـوب النداء (24) وفائدة هذه الفصول انها تجمع ما كان متفرّقا في كتب النحو من ملاحظات وإشارات وتلميحات تتعلّق بالاساليب المذكورة وانها تربط بين الوسائل اللفظية والمعانـي وتؤكد على أهميّة الربط بين دراسة الجملة وبين المقام الذي يجد المتـكلم فيه نفسه .

ويمكن أن نقول اجمالا ان هذا الـكتاب محاولة مفيدة لإعادة النظر في مواضيـع نحوية عديدة ؛ ومهما كان موقفنا إزاء بعض الأراء الواردة فيه فانه لا بد من تقدير مجهود المؤلف حق قدره ،ويتجلى ذلك المجهود في تقديم حلول لا تخلو من طرافة لبعض المسائل التي لم يعد موقف قدماء النحاة منها يرضينا ، كما يتجلى في الجرأة التـي اتسمت بها مواقف المؤلف إذ لم يتردد في مناقشة آراء أصبحت بمقتضى العادة وبمقتضى تناقل الأجيال العديدة لها ــ بدون التساؤل عن قيمتها ــ من قبيل الآراء المقدسة التـي لا تقبل النقاش .

عبد القادر المهيرى

(18) ص 228.
(19) من ص 234 الى ص 245.
(20) من ص 246 الى ص 263.
(21) من صد 264 الى ص 276.
(22) من ص 277 الى ص 283.
(23) من ص 284 الى ص 300.
(24) من ص 301 الى ص 311.

ابنيــة الصرف فى كتــاب سيبويــه

تأليف : الدكتورة خديجة الحديثي
576 **صفحة ـ مكتبــة النهضة ببغداد**
1385/1965

لقد كان سيبويه مرجع علماء الصرف والنحو واللغة وموضع عنايتهم في كل عصر، عكفوا عليه درسا وشرحا وتعليقا لا ليستمدوا منه المعلومات والآراء فحسب بل وكذلك ليوضحوا ما جاء منه مستغلقا وليقربوا معانيه إلى الأذهان خاصّة ان اللغة التي كتب فيها تختلف شيئا ما عن اللغة الإصطلاحية التي استعملها النحاة فيما بعد، وما زال هذا الكتاب يسترعي انتباه الدارسين فما زالوا يجدون فيه مجالا للبحث والتعليق وكتاب « ابنية الصرف في كتاب سيبويه » دليل على ذلك، فقد أرادت المؤلفة أن تفرد دراسة لناحية من نواحي تصنيف زعيم النحاة هي كل ما يتعلق بالصرف، وقد عللت قيامها بهذا العمل قائلة ان « مسائل النحو والصرف لم تكن مقسمة أو مبوبة فيه على النحو الذي نراه في كتب المتأخرين، فكثيرا ما تتصل البحوث النحوية والصرفية وتشتبك بغيرها من موضوعات تتعلّق باللهجات العربية أو القراءات المختلفة. وبذلك لا يخرج القارىء من الكتاب بفكرة نحوية بحتة أو صرفية خالصة إلا إذا ركز إهتمامه وجمع المادة التي يبحث عنها فيه » (1) .

(1) ص 16.

وقد ترجمت المؤلفة في بداية كتابها لسيبويه جامعة الروايات التـي توجد منثورة في المراجع القديمة ، ثم تحدثت عن « الـكتاب » من حيث نسبته وموضوعاته ومصطلحاته والمنهج المتوخـي فيه والمخطوطات التـي حفظت وشروحه ، وقسمت دراستها بعد ذلك إلى ثلاثة أبواب خصصت الباب الأول للميزان الصرفي وصيغه المتنوعة وحروفه المختلفة من أصلية وزائدة وما يطرأ عليه من اعلال وابدال (2) وتناولت في الباب الثانـي أبنية الأسماء ، فتحدثت عن المجرد بأنواعه ، ثم فصلت القول في الزيادة من حيث حروفها ومواطنها في الثلاثـي والرباعـي والخماسـي ثم تناولت بالدّرس الأسماء التـي تدخل في نطاق الدراسة الصرفية من مصادر قياسية وسماعية واسم فـاعل واسم مفعول وصيغ مبـالغة واسماء مـكان وزمان وجموع تـكسير وأبنية تصغيـر (3).... أما البـاب الثـالث فموضوعـه أبنيـة الأفعال المجرّدة منها والمزيدة ، والمتعدية ، واللازمة والمبنـي للمجهول (4) .

وأضافت المؤلفة إلى دراستها هذه ملحقا ضمنته شرح الألفاظ الغريبـة التـي لا تخلو منها كل دراسة خاصّة بابنية الـكلام (5) .

ومن الملاحظ ان هذه الدراسة ليست سوى جمع لمعلومات متفرقة ولـكنها رغم ذلك مفيدة باعتبارها أداة عمل يرجع اليها الدارس الذي لا يتسنى له أن يتوغل في المصنفات القديمة وممـا يزيد في فائدتها أن المؤلفة لم تقتصر في كثير من الأحيان على كتاب سيبويه بل حاولت أن تستغل ما ورد في تصانيف النحاة الآخرين وان تقارن بينها وبين ما أتـي به رئيس نحاة البصرة .

عبد القادر المهيري

---

(2) من ص 85 الى ص 130.

(3) من ص 131 الى ص 374.

(4) من ص 375 الى ص 422.

(5) من ص 444 الى ص 530.

ابـو العتاهيـة : اشعـاره واخبـاره

طبعة محققـة على مخطوطتين
ونصوص لـم تنشر من قبـل ، عني
بتحقيقهـا الـدكتور شكـري فيصل
مطبعـة جامعة دمشق 1384 هـ/1965 م
(38 ص + 721 ص)

أبو العتاهية من أخصب الشعراء قريحة وأوفرهم انتاجا شهد له بذلك القدماء شهادة اجماع فقال ابن قتيبة : « كان أحد المطبوعين وممن يكاد يكون كلامه كلّه شعرا » «1» وقال ابن المعتزّ : « وأشعار أبـي العتاهية كثيرة جدّا إلاّ أنـّها مشهورة موجودة » (2) .

ولـكن لم يصل إلينامن هذه الثروة الشعرية العظيمة إلاّ القليل . فلم يَبلغنا من غزله ومديحه وهجائه وعتابه إلاّ مقطوعات قليلة وأبيات متفرّقة أثبتتهـا كتب اللغة والأدب والتاريـخ . وإن وصل إلينا قسم وافر من زهدياته فلاعتناء الفقيـه المحدّث الأندلسي أبـي عمـر يـوسف بن عبد البـرّ النمري (368 — 463 هـ) (3) بجمعها « لما فيها من موعظة وتذكرة » (4)

(1) **الشعر والشعراء** (ط دار الثقافة ـ بيروت سنة 1964) ص 675

(2) **طبقات الشعراء** (ط دار المعارف) ص 234 ـ انظر أيضا : **الفهرست** لابن النديم (ط الاستقامة بالقاهرة) ص 233 **والاغاني** (ط دار الكتب) ج 4 ص 2 ـ **ومروج الذهب** (ط السعادة 1958) ج III ص 327

(3) انظر بركلمان **تاريخ الأدب العربي** الملحق I ص 628

(4) انظر مقدمة ابن عبد البر لزهديات ابي العتاهية ص 26

ويرجع فضل الأسبقية في نشر أشعار أبـي العتاهية إلى الأب ليوس شيخو اليسوعـي . فقد جمـع ما عثر عليـه منها في كتاب سمـّاه الأنوار الزاهيـة في ديوان أبـي العتاهية (5) أثبت في القسم الأوّل منه الزهديـات نقلا عن ابن عبد البرّ النمـري (6) مع اضافة بعض الأبيات القليلـة الواردة في نفس الغرض روايـة عن كتب الأدب كالأغانـي أو العقد الفريد ، وضمـّن القسـم الثانـي منه مقطوعات « من المديـح والعتـاب والأوصـاف والهجـاء والأمثـال والرثاء » (7) نقـلا عن « مشاهير الأدبـاء كالأصفهانـي والمبـرّد والمسعـودي والماورديّ والغزالي وغيرهم » حسب لفظ النـاشـر (8) .

وبـَقيت هذه النشرة على ما فيها من تحريف (9) وعلى ما ينقصها من دقـّة في تعيين المصادر والإحالة عليها (10) مرجع الباحثين الوحيد «11» إلى أن أصدر أخيرا الدكتور شكري فيصل كتابا ضخم الحجم وافر المادة جمـع فيه أشعار أبـي العتاهية وأخباره فسمـّاه : أبو العتاهية : أشعاره وأخباره .

(5) ظهرت الطبعـة الأولى منـه في بيروت سنة 1886 ـ وأعيد طبعه بين سنة 1886 وسنة 1929 عـدة مـرات .

(6) ذكـر الأب شيخو في مقدمة **الأنـوار الزاهية** (الطبعة الرابعة سنة 1914 ص 3) أنـه اعتمد نسختين مخطوطتين ولم يعينهما تعيينا دقيقا ولكننا نجد في مقدمة الجزء العاشر من **الـروائع** (وهذا الجزء من تأليف الأب شيخو) ما نصه : « ومن [ديـوان أبي العتاهية صنعة النمري] عدة نسخ في القاهرة ودمشق والاستانة وفي مكتبتنا الشرقية وعنه اخذنـا طبعتنـا البيروتية ويظهر لنا وقد تأملنا حاشية التحقيق أن احدى النسختين المعتمدتين نسخة الظاهرية لانقطاع كل اشارة الى « نسخة ثانية » في هامش القصائد الواقعة بين روي النون والهاء وهو موضوع الانخرام في نسخة الظاهرية ، أما النسخة الثانية فالمرجح أنها نسخة المكتبة الشرقية .

(7) تعمد الناشر اهمال المقطوعات الغزلية لاعتباره الغزل منافيا لمكارم الاخلاق (انظر ص 3)

(8) انظر غـلاف **الانـوار الزاهية**

(9) يظهر أن بعض ذلك التحريف كان متعمدا (انظر شكري فيصل المقدمة ص 11 ـ 14)

(10) يقتصر الأب شيخو على ذكر اختلاف الرواية قائلا : وفي رواية ، وفي نسخـة وروي لـه ... وما شاكل ذلك من التعبير المبهم

(11) نشرت دار صـادر سنة 1964 ديـوان أبي العتاهية ولكن هذه النشرة من صنف النشرات التجارية التي لا يعول عليها .

ويحتـوي هذا الـكتاب على :

1) مقدمة للناشر تعرّض فيها إلى البواعث التي حملته على نشر أشعار أبـي العتاهية وقدّم فيها تقديما سريعا المخطوطتيْن المعتمدتيْن ثمّ نقد الأنوار الزاهيـة وختم مقدّمته موضّحا بعض المناهج التـي انتهجها في عمله .

2) مقدّمة ابن عبد البرّ لزهديات أبـي العتاهية .

3) الزهديات : وقد اعتمد الدكتور شكري فيصل في تحقيقه لنصّها على مخطوطتين يظهر أنّه لا يعرف سواهما :

1) مخطوطة المكتبة الظاهرية بدمشق وقد وصفها الناشر بأنها حديثة الخطّ رديئة الشكل في نحو 100 ورقة و10 ورقات تنخرم في آخرها في رويّ النون وتلتئم في رويّ الهاء .

2) مخطوطة توبنجن (وهـي المخطوطة التـي كانت في برلين) وهـي أقدم النسختين نسخت عام 603 هـ وهـي تامّة وتمتاز أيضا بروايتها أرجوزة أبـي العتاهية رواية لا نظير لها في غيرها من المصادر سعة إحاطة والمام .

واعتمد الناشر الأنوار الزاهية أصلا ثالثا للتحقيق لا ثقة منه به ولكن اعتبارا منه أنّ هذه النشرة « دخلت ميدان الدراسة الأدبية نظر فيها وأشير إليها وعلّق عليها وأحيل على صفحاتها » (12) .

ويحتـوي هذا القسم الأوّل من أشعـار أبـي العتـاهية عـلى 454 قصيدة ومقطوعة وعلى الارجوزة وعدد أبياتها في هذه النشرة 320 بيتا .

---

(12) مقدمة الناشر ص 10 ولكن المتأمل في حاشية التحقيق يلاحظ ان الدكتور شكري فيصل قد استفاد في تحقيقه من هذا الأصل الثالث . ولا غرابة في ذلك وقد بينا أن الأب شيخو قد اعتمد الى جانب نسخة الظاهرية نسخة لم يعتمدها الدكتور شكري فيصل . انظر على سبيل المثال هامش تحقيق البيت 5 من القصيدة 26 ص 32 والبيتين 6 و 7 من القصيدة 28 ص 33 والبيت 9 من القصيدة 52 ص 56 والابيات 10 ـ 11 ـ 12 من القصيدة 59 ص 62 ـ 63 والبيت 9 من القصيدة 173 ص 178 والبيت 5 من القصيدة 201 ص 195 .... الخ

4) تكملة الديوان : وقد جمع الناشر في هذا القسم ما عثر عليه في كتب الأدب من أشعار تنسب إلى أبي العتاهية ، فأورد له في هذه التكملة 301 مقطوعة في أغراض شتى (13) .

5) المستدرك : ذكر فيه المحقق ما لم يهتد إليه من تخريجات أو ملاحظات أو زيادات إلاّ بعد فراغه من عمله .

6) قائمة مصادر التحقيق .

هذه أقسام كتاب الدكتور شكري فيصل وصفناها وصفا سريعا وذكرنا ما جاء فيها وقد يتساءل القارىء : هذه أشعار أبي العتاهية فأين أخباره ؟ عن هذا السؤال يجيب الناشر في مقدمته فيقول :

« إنـي صدرت في نشر هذا الديوان في الزهديات وفي الأغراض الأخرى عن وجهة جديدة قديمة كان يأخذ بها مؤلفونا القدامى وجامعو الشعر في العهود الأولى ثمّ انصرف عنها من جاء بعدهم أو كثير منهم حين صنعوا بعض الدواوين : أردت بهذه الوجهة الربط بين أشعار الشاعر وأخباره [.........] وعلى ذلك ما يرى القارىء من عناية بذكر ما يتصل بالقطعة من خبر ضئيل أو جليل وقد تتبّعت هذه الأخبار في مصادرها وحرصت في مرات كثيرة على إيرادها في أكثر من رواية [......] . أفعليّ إذا من حرج بعد هذا إن عدلت عن تسمية هذا الكتاب بديوان أبي العتاهية إلى تسميته الأخرى : أبو العتاهية : أخباره وأشعاره » (14) .

---

(13) لم يسلك الناشر في ترتيب هذه الأشعار مسلك الأب شيخو من جمعها حسب الاغراض التي تناولتها وانما رتبها على اساس من الروي تبعا لتسلسل حروف الألفبَاء ليغنيه ذلك عن صنع فهرس القوافي (انظر : المقدمة ص 16) .

(14) المقدمة ص 16 ـ 18 من هذه الأخبار ما لم يسبق أن نشر ففي نشره فائدة لا تنكر ولكن الكثير منها مأخوذ عن كتب مطبوعة طبعات حسنة ومتداولة كثيرا . فما فائدة نشرها من جديد ؟ ثم ان الناشر لم يجمع هذه الاخبار في قسم خاص ولم يرتبها وانما اوردها في هامش التحقيق فجاءت مبعثرة في الكتاب واختلط الطريف منها بالمعروف المشهور فلا يمكن للدارس أن يستفيد منها الا بعد بحث طويل خاصة والكتاب خال من الفهارس .

تلك خطّة الدكتور شكري فيصل في نشره لديوان أبـي العتاهيـة ونحن إذ نقدّر المجهود الذي بذله في جمع هذه الأشعار والأخبار وتحقيـق نصوصهـا حقّ قدره لا يسعنـا إلاّ أن نستغرب بعض مناهجـه في ميدانـيْ البحث والنشـر وما اتصفت به من ارتجال وتعمّدته من اهمال .

فمن ذلك طريقته في البحث عن مخطوطات ديوان أبـي العتاهية فقـد حدّثنا عن ذلك في مقدمته فقال :

« وبدأت أسأل عن مخطوطات الديوان لتـكون سبيلي إلى نشرة أمثل وما كنت أعرف من هذه المخطوطات إلاّ تلك التـي في الظاهرية صنعـَها ابن عبد البـرّ النمري فمضيت أنظر فيها [......] وحين كنت في ألمانيا [......] كان من بعض همّـي أن أطّلع على مخطوطات برلين... وكانت هذه المخطوطات قد نقلت سنـيّ الحرب إلى مناطق جبليّـة بعيدة... فلمـّا أظلّ الناسَ السلمُ لم تُعـَد المخطوطات إلى برلين بحكم هذا النظام الثلاثـي فيها وإنّـما عادوا ببعضها إلى مكتبة الجامعة في « توبنجن » وببعضها الآخر إلى « ماربورغ » . وفي « توبنجن » كان عظم إقامتـي في المانيا فأتاح لي ذلك أن أقضـي الأشهر الأربعة الأولى بين هذه المخطوطات ما كان منها مفهرسا في فهرس « آلـورد » وما لم يـكن ، وكان من سعادتـي أن عثرت على نسخة من ديوان أبـي العتاهية .

وعلى ذلك فقد توافر لي نسختان مخطوطتان من الديوان : الأولى هـذه التـي في دمشق ، والثانية من يدري من أين ولـكنها هذه التـي ساقتها أقـدار لتـكون في « توبجن » (15) .

فإنّ كلّ من سبق له أن درس أبا العتاهية لا يمكـنه إلاّ أن يستغرب هذا الحديث وأن يتساءل ما ضرّ المحقّق لو صرّح بأن آلوارد قد نصّ على وجود

(15) المقدمة ص 7 ـ 8

مخطوط ديوان أبي العتاهية ضمن مخطوطات برلين (16) ؟ وأن يتساءل أيضا أكان الدكتور شكري فيصل يجهل كل الأبحاث التي تناولت مخطوطات ديوان أبي العتاهية بالدراسة . فإن كان يجهل أن ريشر والزبيدي قد درسا الموضوع فهل كان يجهل أيضا أن بروكلمان قد تعرّض إلى ذلك (17)

ولو رجع الناشرُ إلى هذه المراجع ولو نظر في فهارس المخطوطات لعلم أنّ نسخ ديوان أبي العتاهية (صنعة ابن عبد البرّ) كثيرة موجودة ولتمكّن من جمعها ودراستها دراسة علمية لتمييز الأصل منها عن الفرع وتحديد كيفيّة تفرّعها ولخرج من طور التعجّب الساذج إلى طور البحث العلميّ المركّز (18) .

وقد أثار استغرابنا أيضا أن يخلو كتاب جُمع فيه ذلك القدر العظيم من أشعار أبي العتاهية وأخباره ، أشعار جاءت في أغراض عديدة وأخبار تناولت مشاكل مختلفة واعتمدت أسانيد متباينة من فهارس تعين الباحث وتجعل من الكتاب مرجعا يسهل استعماله وتتيسّر الإستفادة منه .

وخلاصة القول أنّ قيمة هذه النشرة تتمثل في استنادها نسخة حسنة (مخطوط توبنجن) وفي كثرة ما جمعه الناشر من أشعار وأخبار ، ولكن عدم اعتمادها على دراسة لتاريخ ديوان أبي العتاهية ومخطوطاته وخلوّها من الفهارس يقعدان بها عن بلوغ مستوى النشرات العلمية .

محمد عبد السلام

---

(16) الوارد : فهرس المخطوطات العربية بمكتبة برلين الملكية ج 4 ص 558 – 559 : المخطوط عدد 7543

(17) بروكلمان : **تاريخ الادب العربي** الملحق 1 ص 119 = الترجمة العربية (لعبد الحليم النجار) ج 2 ص 36 وقد اعتمد بروكلمان دراسة ريشر ,362 ر 28 .W. Z. K. M) اما الدكتور علي الزبيدي فقد أثار المشكلة في اطروحته عن أبي العتاهية . والاطروحة لم تنشر بعد .

(18) ومن الملاحظ في هذا الصدد ان الناشر لم يعرّف بجامع الديوان ولم يتساءل عن المصادر التي عنها أخذ ما اختاره من الزهديات – ولا تخفى أهمية هذا الموضوع على الباحثين .

ابن الابـــار فى ثلاثـــة كتب

تحقيــق : صالح الاشتــر ـ عبد الله
أنيــس الطبــاع ـ حسين مؤنس .

لقد صدرت من سنة 1961 إلى سنة 1963 ثلاثة كتب عن أبـي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبـي بـكر القضاعـي المعروف بابن الأبار (1199/559 — 1260/658) وهـي حسب تاريـخ صدورها :

— 1 — كتاب إعتاب الـكـتاب نشره وحققه صالح الأشتر أستاذ الأدب العربي بجامعة دمشق — مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، المطبعة الهاشمية 1380 هـ 1961 م — مجلد واحد . 326 ص .

ولقد أقدم الدكتور الأشتر على عمله هذا بباريس وذلك للحصول على الدكتورا الثانوية من دكتورا الدولة . فهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

(أ) مقدمة المحقق (38 ص) خصصها لحيـاة ابن الأبـار وعصره وآثاره المطبوعـة ثم وصف كـتاب اعتـاب الـكـتاب وتحليله وأخيـرا دراسة النسخ المخطوطة والتعريف بها .

(ب) متنُ إعتاب الـكتاب (224 ص) الذي يحوي 75 ترجمة لمختلف الـكتاب من المشرق والمغـرب .

(ت) الفهـارس وعددها ثمـانية .

إن الدراسة التـي خص بها الدكتور الأشتر هذا الـكتاب تعتبر دراسة مستفيضة تستحق الشـكر والثناء لما وفرته من فائدة ولما أتت به من تحقيق وتدقيق علميين إذ أنها شملت كل نواحـي هذا الـكتاب القيم الذي أصبـح في متناول الجميـع لا سيما بعدما قوم الدكتور الأشتر نصه وزوده بحواشٍ على غاية من الفائدة . فـكادت دراسته أن تـكون كاملة شاملة لولا بعض الهنات ؛ منها ما يقوله الدكتور الأشتر في شأن مؤلفات ابن الأبار ونَخُصُّ بالذكر منها كتاب التـكملة لـكتاب الصلة (ص 21) « والـكتاب مطبوع بكامله . نشر القسم الـكبير منه كوديرا من حرف (ج) إلى نهاية الـكتاب . في مجلدين في مدريد خـلال عامـي 1881 – 1889 » إن ما يذكره المحقق صحيـح في جله لـكن عمل كوديرا لم يشمل حرف (ج) إلى النهاية بل إلى حرف (م) وعدا بعض الحروف بيـن العين والـلام . ولقد قام المستشرقان الإسبانيّـان A. Alarcon و G. Palencia (1) بنشر ما تبقى من الحروف وذلك بمدريد سنة 1915 .

أما في شأن إعتاب الـكتاب فيقول المحقق (ص 23) « أما الـكتاب السادس والأخير فهو (إعتاب الـكتاب) الذي نحققه وينشره اليوم مجمع اللغة العربيـة بدمشق لأول مرة » . وذلك ليس صحيحا لأن أول من قام بنشر قسم منه هو السيد سقر وذلك سنة 1947 اعتمادا على مخطوط المـكتبة التيمورية بالقاهرة . ويذكر المحقق (ص 32) وجود أربـع نسخ من مخطوط كتاب إعتاب الـكتاب (القاهرة – الاسكوريال – الرباط . ونسخة مكـتبة خاصة بالمغرب) لـكنه لا يشير إلى وجود نسخة أخرى أشار إليها الدكتور عبد الله الطباع (2) معتمدا في ذلك على المستشرق ليفـي بروفنسال . لـكننا نعتقد أن هذه النسخة غير موجودة رغم رأي السيد الطباع فيها .

---

(1) انظـر
M. Alarcon y C. A. G. Palencia : Apendice a la edicìon Codera de la Técmila de Aben-al-Abbar en miscelenea de estudios y textos Arabes. Madrid 1965.

(2) عبد الله الطباع . كتاب الحلة السيراء – دار النشر للجامعيين – بيروت 1962 ص 105.

ويبدو لنا أن المهم في هذا العرض يتعلق بما نرجو إبداءه من آراء في متن إعتاب الكتاب لأن المحقق يقول (ص 36 — 37) « ولما كان ابن الأبار في غالب الأحيان حريصا على ذكر مصادره التي استقى منها فقد رحنا نسعى وراء ما وصل إلينا من تلك المصادر لنقارن بها النصوص التي نحققها حتى إذا لم يذكر ابن الأبار مصدرا ما اضطررنا إلى العودة إلى كتب الأدب والتاريخ في الشرق والغرب العربيين لنتقصى فيها المواطن التي نقل منها ابن الأبار أو اختصر ما نقله على أن نثبت في الحواشي من اختلاف الروايات ما يبدو لنا نافعا ومعينا على زيادة نصوص ابن الأبار وضوحا وإبانة » .

ولا شك أن المحقق قد بذل الجهد في سبيل ذلك ووفق في غالب الأحيان في بحثه لكنه ترك بعض المصادر الهامة التي استقى منها ابن الأبار منها الأجزاء المخطوطة من الذخيرة وخاصة الجزء الثالث الذي توجد منه نسخ كثيرة بأوربا (باريس ومدريد وغوطا وكُوبنْهَاغن وغيرها في البلاد العربية) (3) . ولهذا المصدر الثانوي أهمية كبرى فضلا عن الأخرى التي سيأتي ذكرها لا سيما وأنها طبعت قبل أن ينشر أعتاب الكتاب .

فلقد جاء في المتن (ص 201) في ترجمة محمد بن سعيد التاكرتي ابو عامر « فاستقر في بلنسية وأميرها حينئذ مظفر ومبارك صاحبه . وكانا من عبيد العامرية » ولقد جاء في أغلب نسخ الذخيرة « فاستقر في بلنسية وأميراها مظفر ومبارك المذكوران في أول هذا القسم » . وجاء كذلك في نسخ الذخيرة « فخرا حسبما شرحته للفم واليدين وفرق بينهما من أعفى الفرقدين » . ولم يذكر الدكتور الأشتر هذا السقط من كتاب إعتاب الكتاب (ص 202) . وجاء في نفس الصفحة من متن الكتاب « من تلك الطائفة العبدي المجابيب إلى عبد العزيز وهو الملقب بالمنصور فنهل أبو عامر في دولته وعل ونهض بأعباء

(3) Brockelmann, GAL, I p. 414-415 ; S I p. 579.

مملـكته واستقل » . وجاء في نسخ الذخيرة « من هؤلاء العبدى المجابيب إلى عبد العزيز بن عبد الرحمن المتلقب بالمنصور فنهل أبو عامر في دولته وعلا ونهض بأعباء مملـكته واستقل » . ونجد في نفس الصفحة « تطأطأ لخطبك . وأسمع المراجعة عنه » . وذلك ما يخالف نص الذخيرة « تطأطأها تخطئك وأسمع المراجعة » .

ولقد زهد المحقق أيضا في مصدر آخر هام وهو المغرب في حلى المغرب لابن سعيد المغربـي (4) . فلقد جاء في إعتاب الـكتاب « فلما وردت على المنصور أقامته وأقعدته وكاد يمزق من أهابه فضلا عن ثيابه واستحضر أبـا عامر التاكرنـي فقال له » . وجاء في المغرب . « فأخرجت المنصور وأقامتـه وأقعدته وأحضر أبا عامر فـكتب عنه » . ويجدر بنا أن نلاحظ أن ابن التاكرنـي قد ذكر كما ذكر نص الذخيرة الذي يتحدث عنه وذلك فيما كتبه دوزي (5) وفي نفح الطيب للمقري (6) . ولم يذكر المحقق مرجعا منها ولا لمّح إلى ما جاء فيها من مختلف الروايات .

ولقد وقع نفس الأمر في بعض التراجم الأخرى نـكتفـي منها بما جاء في شأن أبـي محمد بن عبد البر . فلقد جاء في متن اعتاب الـكتاب (ص 221) « وغـَص ّ أبو الوليد بن زيدون بمقدمه فجهد ــ زعموا ــ كل جهد في إراقة دمه ، ولما رأى أبو محمد... الخ » . وجاء في أغلب نسخ الذخيرة « فـكان غص أبو الوليد بن زيدون بمقدمه فجهد زعموا كل جهد في إراقة دمه ولهما في ذلك خبر سارت به الركائب وسَمَرٌ تهادته المشارق والمغارب ولما رأى أبو محمد... الخ » .

(4) المغـرب في حلى المغرب لابن سعيد المغـربي ــ نشر وتحقيق شوقي ضيف ــ القـاهرة 1953 ج/1 ص 332.

(5) Dozy - Scriptum Arabicum Loci. 1863. 3/258.

(6) المقري ــ نفح الطيب (طبعة اوبار) ج/2 ص 511.

وجاء في نفس الصفحة « والتمس على الخلاص » بينما جاء في الذخيرة « وابتغى إلى الخلاص » . ولقد سقطت جمل (7) من نفس الصفحة لم يشر إليها الدكتور الأشتر ، ومنها « زعموا (أنه قد دخل بلنسية يومئذ) لم يزل نافر النفس » . وجاء في صفحة 222 « ويتثاقل عنها (وهو يقول لا أبا لك تمنُّعِي أشهى لك) قال ولما انسَلّ » .

وكثيرا ما ردد الدكتور الأشتر في شأن هذا السقط ما قاله في حاشية (4) ص 221 « النص ليس في الأجزاء المطبوعة من الذخيرة » . لكنه زهد في مصادر أخرى طبعت قبل الجزء الثالث من الذخيرة وكان من المفيد الاعتماد عليها .

وبعد هذا العرض الوجيز نكتفي بهذه الملاحظات العامة هدفنا منها أن تقوم بعض ما لم يدركه الدكتور الأشتر في دراسته القيمة .

ـ 2 ـ كتاب الحلة السيراء ـ دراسة تاريخية ونقدية عامة أقدم عليها الدكتور عبد الله أنيس الطباع للحصول على دكتورا الدولة في الفلسفة والآداب من جامعة مدريد ـ دار النشر للجامعيين ـ بيروت 1381 هـ. 1962 م. ـ مجلد واحد 674 ص ـ

ونستهل الكلام عن هذا الكتاب . بملاحظة عامة مفادها أن عرض الكتاب يوهم القارىء أن الأمر يتعلق بتحقيق ونشر متن كتاب الحلة السيراء وليس ذلك إلا حيلة تجارية رضي بها صاحب الكتاب فجاء كتابه مثالا لتلك الحيلة . ولقد جاء في الكتاب ما يؤيد ذلك « كتاب الحلة السيراء ؟ «لأبي عبد الله بن الأبار القضاعي حققه وعلق عليه وقابله على مخطوطي مكتبتي مدريد والاسكوريال . وترجم لمؤلفه وقدم له عبد الله أنيس الطباع » . وجاء في صفحة

(7) وهي الجمل الموضوعة بين قوسين معقوفين.

الغلاف الأخيرة « الدكتور عبد الله أنيس الطباع استخرج مخطوط الحلة السيراء من خزائن مكتب الاسكوريال في اسبانيا وحققه وقابله على مخطوط مكتبة مدريد الوطنية ومخطوط مكتبة الجمعية الأسيوية في باريس » . (كذا) .

إنها حيلة تجارية القصد منها ذر الرماد في العيون . فالعمل الذي قام به السيد الطباع ليس الا دراسة تاريخية نقدية تشمل حياة ابن الأبار ومؤلفاته لا سيما الحلة السيراء . والكتاب ينقسم إلى قسمين كبيرين يحوي كل واحد منهما خمسة فصول . فالفصول الأولى تتعلق بحياة ابن الأبار ومؤلفاته ومحتوى الحلة السيراء . اما الفصول الخمسة الثانية فهي مخصصة لدرس ونقد فصول الحلة السيراء المختلفة . فالكتاب خليط بين هذه وتلك تكاد حواشيه أن تحل محل النصوص في مناسبات كثيرة . لذا فإننا سنهتم بتلك الحواشي اهتمامنا بالنصوص .

فلقد أكد الدكتور الطباع (ص 37 ، حاشية 2) أن الغبريني « قاضي القضاة ببجاية وبجاية مدينة في تونس » . فمتى كانت بجاية في تونس ؟ نضيف إلى هذا أن الكاتب لم يذكر لنا (وقد أخذ على عاتقه دراسة حياة ابن الأبار ومؤلفاته) ولو على سبيل التعريف كتب ابن الأبار المفقودة التي جاءت مذكورة في طيات الكتب مثل نفح الطيب وفوات الوفيات وغيرهما . ومن تلك الكتب — إفادة الوفادة — وكتاب إيماض البرق في أدباء الشرق — وكتاب التاريخ — وكتاب التحفة — وقطع الرياض — الخ... ولم يجهد المؤلف نفسه ليعرفنا بالنسخة المخطوطة من كتاب اعتاب الكتاب رغم نشره وتحقيقه من طرف الدكتور الأشتر سنة 1961 . فالدكتور الطباع يقول (ص 105) : « وإلى جانب هذه النسخ توجد نسخة في المكتبة التيمورية تبلغ أوراقها المائة . أما الإيضاحات عنها فقليلة » . لكن الدكتور الأشتر في مقدمة إعتاب الكتاب يذكر (ص 32 — 33) أنها مسجلة بدار الكتب المصرية تحت رقم 778 « عدد

أوراق هذه النسخة 51 ورقة ولـكنها مرقمة بالصفحات (102 صفحة) وفي كل صفحـة 25 سطـرا » .

إن الهنات في هذا الـكتاب كثيرة يؤاخذ عليها الدكتور الطباع لزهده المفرط في تحريف أسماء الـكتاب وطرح بعض أبواب كتاب إعتاب الـكتاب. ويبدو ذلك واضحا في المقارنة التاليه بين ما جاء في كتاب الدكتور الأشتر وما جاء في كتـابه هو .

فلقد أسقط الدكتور الطباع ذكر « كُتَّاب المنصور » (8) ولذلك احتوى كتاب إعتاب الـكتاب عنده على 74 ترجمة بينما أحتوى عند الدكتور الأشتر على 75 منها . واليك الآن تحريف أسماء الـكتاب :

إعتاب الـكتاب تحقيق الأشتر

سهل بن هارون ــ ص 85 رقم 19 .
علي بن محمد بن الفياضـي ــ ص 179 رقم 50 .
احمد بن علي الجرجرائـي أبو القاسم ــ ص 199 رقم 60 .
عبد الملك بن غصْن الحجاري ــ ص 218 رقم 67 .
أبو بـكر محمد بن سليمان بن القصيرة ــ ص 222 رقم 69 .
ابن الوكيل اليابري ــ ص 224 رقم 70 .

الحلة السيراء : دراسة الطباع

سهل بن ابراهيم ــ ص 102 رقم 18 .
علي بن محمد بن العياض ــ ص 103 رقم 49 .

(8) انظر ـ اعتــاب الكتاب ـ تحقيق الدكتور الاشتر ص 19 ــ 20.

أحمد بن علي الحرحرانـي أبو القاسم ــ ص 104 رقم 59 .
عبد الملك بن غصْن الحجازي ــ ص 104 رقم 66 .
أبو محمد بن سليمان القصري ــ ص 104 رقم 68 .
أبو بـكر عيسى بن الوكيل البابري ــ ص 104 رقم 69 .

أما نسخ الحلة السيراء فإنه يذكر منها نسخة باريس (ص 173) « وإن من الثابت أنها أول وأقدم نسخة لمخطوط الحلة » . لـكن حسين مؤنس في تحقيقه للحلة السيراء الآتـي ذكرها يعارض ذلك (9) « أما النسخة التـي ظن بعضهـم أنها في المـكتبة الأهلية في باريس فنسخة حديثة كتبها المستشرق الإسبانـي خوسيه أنطونيو كونْدِ . وعن هذه نقل المستشرق رينو نسخة صارت إلى ملك الجمعية الاسيوية الفرنسية ثم انتقلت إلى المـكتبة الأهلية في باريس.... ولـكن بعضهم حسبها مخطوطة قديمة من الحلة وتحدث عنها بهذا الوصف » .

ويؤكد الدكتور الطباع على وجود نسختين أخريين بمدريد (ص 174) « أستطيـع أن أوكد أن أحداهما والمسجلة تحت رقم 4896 هـي حديثة العهد جدا وقد لا ترقى إلى القرن الثامن عشر الميلادي بالرغم ممـا أشير في نهايتها إلى أنها نسخت بخط عبيد الله علي بن محمد الـكفاد الأندلسـي الذي انتهى من كتابتها في 13 شعبان سنة 990 هـ / 1582 م . وأرجح أن الذي نسخها هو السيد خوان عمّون وأنه مشرقـي وقد نقلها عن نسخة مخطوط الاسكوريال دون أن يشير إلى شـيء من ذلك » (كذا) .

لـكن حسين مؤنس يذكر في الحلة السيراء وجود النسختين (ص 55) . وأما نسخة مدريد التي ذكرها بعضهم على أنها أصل من أصول الحلة فنسختان لا واحدة كتب الأولى منها في سنة 1795 مستشرق إسبانـي يسمى « خوسيـه أنطـونيـو بيـَّشَرْ Jose Antonio Pellicer وكـتـب الثانيـة مستشـرق إسبانـي

(9) انظر الحلة السيراء تحقيق الدكتور مؤنس ج/I ص 55.

آخر يسمى بابلو أودار Pablo Hodar بتوجيه من ميخائيل الغزيري... (انظر فهرس مخطوطات المكتبة الأهلية بمدريد الذي صنفه حين روبلس Guillien Robles ، مدريد ، رقمي 12 ، 13 ص 8 و 9») .

ولسنا نرى من الفائدة أن نستمر في ذكر الهنات التي وردت في كتاب الدكتور الطباع . ولكن يجدر بنا أن نلقي نظرة خاطفة عما ذكر من متن الحلة في مختلف صفحات كتابه . فلقد اكتفى بنقل شعر أبي مروان بن رزين (ص 299) معتمدا على ما جاء به دوزي فقط (10) دون أن يدلنا على رواية أخرى سواء في نسخ الحلة أو ذخيرة ابن بسام بمدريد أو ما جاء في المصادر الثانوية الهامة الأخرى .

فلقد جاء في كتاب السيد الطباع هذه الأبيات الشعرية لأبن رزين حسام الدولة (ص 299) :

من كثر الجهد يرى سعده	يصعد حتى ينتهي حده
فاهدم بناء البخل وارفض	من هدم البخل بنى مجده
لا عاش إلاّ جائعا نائعا	من عاش في أمواله وحده

ولقد أسقط الدكتور الطباع البيت الأصلي الثاني الذي يلي البيت الأول (من كثر الجهد) وهو :

ومن أذل المال عزت به	أيامه وانصرفت جنــــده

ولقد جاء هذا البيت في مختلف نسخ الذخيرة وفي الحلة السيراء (نشر مؤنس ص 111 ج/2) والبيان المغرب (نشر ليفي بروفنسال ج/3 ، ملحق ص 310) .

(10) Dozy. Notices sur quelques manuscrits arabes de Leyden. Edit. Brill. 1847-1851.

ولم يعر الدكتـور الطبـاع أيضا اهتمامـا لقصيـدة أخـرى لأبن رزين ص 299) في وصف روض . فأسقط بيتين منها دون أن يشير إليهما . وهما :

« إذا ما انسيَّاب الماء عاينت خِلتَه وقد كسرته راحة الريح ، مبردا »

ثـم

« وغنّت به ورق الحمائم حولنا غناء ينسّينَا الغريض ومعبـدا »

إننا نستغرب من هذه الهنات بقدر ما نرى الدكتور الطباع يكاد يقلب الدنيا رأسا على عقب مشيدا ببحوثه العميقة واطلاعه المباشر الدقيق على نسخ الحلة السيراء« بالإعتماد على خبرتـي في المخطوطات العربية » . وعلى المـراجـع العربية الأخرى التـي لم يطلع عليها الدكتور حسب رأينا . فليس من البحث العلمـي والدراسة العميقة (وكثيرا ما كررها الدكتور في كتابه) مسخ النصوص وتلفيق الآراء نذكر من ذلك ما أبداه في أن ابن الأبار قد سبق ابن خلدون في وضع أسس دراسة التاريـخ .

وإننا لا نرى فائدة في عرض جميـع الهنات التـي وردت في فهـرس الاعلام مثلا . ويبدو ذلك في تحريف الأسماء وعدم موافقتها لارقام الصفحات المرسومة أمامها . من ذلك (فهرست الأعلام ص 554) : « أشعث ، عبد الرحمن بن محمد أل : 389 » . لا وجود لذلك الإسم في الصفحة المذكورة .

إن هذه الدراسة لا تفيدنا كثيرا لـكثرة هناتها ولأن دراسات كثيرة عن ابن الأبار قد سبقتها فـكانت أحسن منها .

– 3 – كـتاب الحلة السيراء : حققه وعلق عليه الدكتور حسين مؤنس أستاذ التاريخ الإسلامي بـكلية الآداب بجامعة القاهرة ومدير معهد الدراسات الإسلامية بمدريد – طبع الشركـة العربية للطباعـة والنشر – القاهرة 1382 ه 1963 م – مجلدان – ج – 1 . 312 ص ؛ ج – 2 . 480 ص .

ولقد أعتنى الدكتور مؤنس بهذا الـكتاب فزودنا لأول مرة بمتن الحلة السيراء كاملا بعدما نشر منه المستشرق الهولنـدي دوزي فصولا هامة (11) . فقـدم لنا دراسة عميقة مستفيضة الفناها من الدكتور مؤنس في أعماله السابقة وتستحق الشـكر والثناء . فالجزء الأول من الحلة يحوي مقدمة الناشر (57 صفحة) ومتن الحلة السيراء الذي شمل تراجم 111 كاتبا . أما الجزء التانـي فهو لا يحوي الا المتن و105 ترجمة .

إن الأمر الذي يسترعـي الانتباه في شأن ما نشر بالمتن يتعلق بظاهرتيـن هـامتيــن .

– عدم الإهتمام بإسقاط النّصوص وروايات المصادر الأساسية ونعنـي خاصة الذخيـرة .

– قلة الإهتمام بالروايات الواردة في المصادر الثانوية .

فلقد زهد الدكتور مؤنس في الإشارة إلى السقط الذي وقع في كـلام ابن حيان عن ابن رزين (الحلة ج/2 ص 108 – 109) « من أصاغر الثغر فأبت نفسه البخوع له » . لـكنه جاء في أغلب نسخ الذخيرة « من أصاغر أمراء الثغر النازلين في ضبنه فأبت ... الخ » . ويؤيد رواية الذخيرة رواية البيان المغرب (ج/3 ص 182) التـي نقلها شـكيب أرسلان في الحلل السندسية (ج/2 ص 106).

(11) Dozy. Notices op. cit. p. 179 et suivantes.

وجاء في نفس الصفحة من الحلة السيراء « وليس في ذلك الثغر أخصب بقعه من سهلته – المنسوبة إلى بنـي رزين – في اتصال عمارتها فـكثر مالـه وكان مع ذلك شابا جميل الوجه » . لـكن أغلب نسخ الذخيرة تذكر : « وليس في بلد الثغر أخصب بقعه من سهلته هذه المنسوبة إلى بنـي رزين سلفه في اتصال عمارتها فـكثر ماله إذ نـاعى جاره وشبيهه اسماعيل بن ذي النون ونافسه في خلال البخل وفرط القسوة فبذّه وكان مع ذلك شابا جميل الوجه » .

ويبدو لنا أن الدكتور مؤنس لم يـكلف نفسه عناء البحث في الـذخيـرة نفسها التـي نقل عنها ابن الأبار بل اكتفى حسب رأينا بما حققه ورواه دوزي.

وجاء في شأن الحلة السيراء (ص 119) في شأن أبـي عبد الرحمن بن طاهر : « أبا العيناء لا أنت ولا أنا . وكان ابن عمار أخفش » . لـكن في مخطوطة غوطـا من الذخيرة (ورقة 7 ظهر) : « وكان ابن عمار أخفش فقال له ابن طاهر وكان كثير النوادر كذا يا أبا العيناء لا أنت ولا أنا » . ثم جاء في نفس الصفحة من الحلة « فعرفها ابن عمار واعترف بها وقال : نعم إنما عرض بزيّـي يوم قصدته وبهيئتـي حين أنشدته » . وجاء في نفس الورقة من نفس الذخيرة : « فعرفها ابن عمار واعترف بها على رؤوس أشهاده وبحضرة من وجوه قواده وأجناده . قال: نعم يعرض بزيّي يوم قصدته وبهيئتي حين أنشدته ».

وجاء في شأن أبـي عامر بن الفرج (الحلة ج/2 ص 172) « والشمس أنت وقد أطل طلوعها » . بينما روى نفح الطيب (ج/2 ص 278 من طبعة أروبا) : « كالشمس أنت وقـد أظل طلوعهـا » . وجـاء في نفس الصفحتيـن من الحلـة « وله يعتذر » وجاء في نفح الطيب «وهو القائل معتذرا عن تخلفه عمن جاء منذرا» .

ويبدو لنا أن الدكتور مؤنس لم يتخذ موقفا واضحا من تلك الجمـل الساقطة في متن الـكـتاب ، فهو يتركها غالبا ويدركها أحيانا (الحلـة ج/2 ص 108 الحواشـي 1 ، 2 و 3) .

نضيف إلى ذلك ما لاحظناه من خطأ في ذكر المصادر من ذلك أنه يشير إلى وجود ترجمة الشاعر الأسعد بن ابراهيم بن بليطة القرطبي (حلة ج/2 ص 83 ، حاشية 3) في « نفح الطيب » (طبعة أوربا ـ 1/453 ـ 455) ، والصواب نفح الطيب ج/2 ص 453 (طبعة أوربا) .

وفي النهاية جاء في الحلة أيضا (ج/2 ص 247 ، حاشية 2) ذكر القائد النورمندي الذي غزا مدينة بربشتر . فهو حسب الدكتور مؤنس ، Robert Crespin لكننا نرى المستشرقين دوزي وبعده ليفي بروفنسال (12) يفندان ذلك ويعتبران أن القائد المذكور يسمى Guillaume de Montreuil الذي قصد روما في منتصف القرن الحادي عشر وأصبح قائد الجيوش البابوية.

فيبدو أن الدكتور مؤنس اعتمد في تسمية القائد على ما رواه القس Aimé الذي سكن دير Mont Cassin (13) كذلك رواية Hirsh (14) . لكن ذلك لا يكفي لتبرير ما جاء في كلام ابن حيان في الذخيرة عندما يتحدث عن « قائد خيل رومة » . إذ أن Robert Crespin لم يذهب إلى روما ولم يقلد فيها قيادة الجيوش مثل Guillaume de Montreuil . ومما يزيد في غموض اختيار الدكتور مؤنس أنه لم يسع إلى ذكر الروايات الأخرى في شأن ذلك القائد .

وبعد هذا العرض الوجيز لبعض الهنات في هذه الكتب الثلاثة لا يسعنا إلاّ أن نبارك صدور كتب من صنف كتابي الدكتورين الأشتر ومؤنس اللذين يكونان مصدرين هامين يستعين بهما الباحثون في دراسة تاريخ الأندلس العام والأدبـي .

محمّد رشاد الحمزاوي

---

(12) Dozy. Recherches (3), T. II p. 335-353.
Dozy. Hist. des Musulmans d'Espagne. Edit. L. Provençal T. III p. 79.

(13) L'ystoire de Li- Normant, livre I, cap. 5-8, Edition Champollion Figeac.

(14) Hirsh. Forschungen zur Deutschen Geschichte. T. VIII p. 232-3

اغـانى الحيـاه

ديوان ابي القاسم الشابي
طبعـة ثـانية - المطبعـة الـرسمية للجمهـوريـة التـونسية 285 ص (تونس 1966) ، الغلاف : مطبعة كتابة الدولـة للشؤون الثقافية ، الناشر : الدار التونسية للنشر .

ظهرت الطبعة الثانية من ديوان أبـي القاسم الشابـي « أغانـي الحياة » ، بتونس في مارس 1966 .

وكانت الطبعة الأولى من هذا الديوان قد ظهرت بالقاهرة (دار مصر للطباعة ، سنة 1955) ؛ ومضى عليها — حتى الآن — أحد عشر عاما لم تحترم خلالها دار مصر للطباعة « الحقوق المحفوظة » لملتزم الطبـع والنشر بتونس ، على أغلب الظنّ (1) ؛ إذ بين أيدينا نسخ من الديوان موسومة جميعها بالطبعة الأولى ، ولـكنا كثيرا ما نجد شـكل الـكلمة الواحدة يختلف من نسخة إلى أخرى ، والأخطاء تختلف من نسخة إلى أخرى ، زيادة عن اختلاف نَوْع الـورق....

---

(1) دار الكتب الشرقية.

واليوم ، وقد مرّ على وفاة أبـي القاسم الشابـي ما يزيد عن الثلاثين عاما ، « رأت الدّار التونسيّة للنشر أن تقدم لقراء العربيّة الطبعة الثانية من ديـوان رائد الأدب المعاصر أبـي القاسم الشابـي ، مساهمة منها في المهرجان الـذي أقـامـتْه كتابة الدولة للشؤون الثقافية بتونس ، فيما بين 24 — 28 فيفـري 1966... » (2) .

وتمتاز هذه الطبعة بخصائص ثلاث هامة هـي :

أوّلاً : ترتيب القصائد حسب التواريـخ ، صعودا .

ثانيا : إثباتُ تاريـخ كل قصيدة ، للهجرة وللميلاد ، كما ضبطه الشاعر « بخطه في مسودته » ؛

على أنّ قصيدة واحدة جاءت غامضة التاريـخ لسهو من الشاعر ، إذ كتب في أسفل مسودّة « يا حماة الدين » (3) : « 16 جمادى الأولى ، 134 » ؛ وقد اجتهدت دار النشر ، فوضعت هذه القصيدة قبل التـي أرّخت بـ 5 جمادى الثانية 1349 ، موعزة بذلك أن القصيدة المبتورة قد تـكون نظمت سنة 1349 .

وفي آخر الديوان نجد قصيدتين مهملتـي التاريـخ لأنهما قد وجدتا « في الأصل المخطوط بغير تاريـخ » وهما : « قال قلبـي للاله » (4) و « زئير العـاصفة » (5) .

ثالثا : إضافة سبـع قصائد إلى الديوان « لم تنشر من قبل » (الديوان ، ص : 3) أمكن للدار التونسيّة للنشر الوقوف عليها « بفضل الأستاذ محمـد

(2) الديوان (ط 2) ص 3 (التصدير).
(3) المصدرُ السابق ، ص : 165 ـ 166.
(4) المصدر السابق ، ص : 279.
(5) المصدر السابق ، ص : 280 ـ 281.

الأمين الشابـي ، أخـي الشاعر » ؛ وهذه القصائد هـي : الغزال التائه (6) — النجوى (7) — الصيحةُ (8) — جمال الحياة (9) — قبضة من ضباب (10) — يا حماة الدين (11) — للتاريـخ (12) . ولنا أن نتساءل هل فكـر المشرفون على نشر هذا الديوان في أشعـار الشابـي التي لم تثبت في الطبعـة الأولى وقد أشار اليها الاستـاذ توفيق بكـار في « حوليـات الجـامعة التونسية » (عدد 2 ص 170 ، تونس 1965) قبل صدور الطبعة الثانية بتسعة أشهـر ، ثم هي لم تثبت في الديوان الذي بين أيدينا ...

ولا شك في أن هذه الخصائص التـي ذكرنا ستعين الباحثين على زيـادة الضبط في درس أدب الشابـي وتدقيق الاستنتاجات في شأنه ، والبعد عن كثير من الوهم والحزر والحيـرة...

ويمكن أن نشير — على سبيل المثال للاستنتاجات العديدة التـي سيعـاد النظر فيها — إلى أنّ ما ذهب إليه الأستاذ عامر غديرة من أنّ أول قصيدة نظمها الشابـي كانت بتاريـخ « 15 ذو الحجة 1342 / 18 جويلية 1924 » (13) يبـدو أمرا مشكوكـا فيه .

ونحن لا نخفـي أننا احترنا منذ بداية الديوان ؛ لأن الأستاذ غديرة اعتمد — كما ذكر بنفسه (14) — في ضبط تاريـخ أول قصيدة نظمها الشابـي (15)

---

(6) المصدر السابق ، ص : 17 — 18.

(7) المصدر السابق ، ص : 22 — 23.

(8) المصدر السابق ، ص : 28 — 29.

(9) المصدر السابق ، ص 32 — 33.

(10) المصدر السابق ، ص : 121 — 122.

(11) المصدر السابق ، ص : 165 — 166.

(12) المصدر السابق ، ص : 228.

(13) الفكر ، س 5 ، عدد 3 ، ديسمبر 1959 ، ص : 21.

(14) المرجع السابق ، نفس المكان.

(15) لم يذكر عنوانها.

على الأستاذ الأمين الشابي ؛ والأستاذ الأمين الشابي هو نفسه الذي مكّن – فيما نعلم – دار النشر التونسيّة من تواريخ القصائد التي جاءت في الطبعة الثانية... وزادنا حيرة أنّنا لم نجد في الديوان قصيدة بالتاريخ الذي ذكره الأستاذ غديرة ! فأين الحقيقة يا ترى ؟ أم سيبقى أدب الشابي مشتملا على طلّسمات يتعب في استكشافها الدّارسون ؟...

ونحن – على كلّ حال – مرتاحون لنشر هذا الديوان الهام نشرة تونسية بفضل المجهودات التي بذلها من جمعوا القصائد وحققوها ، وطبعوها .

على أنه يعنّ لنا أن نبدي جملة من الملاحظات لعلها أن تراعى – إن كانت وجيهة – في طبعة قادمة .

1) فلو أضيفت مقدّمة ثانية إلى هذه الطبعة تستخلص من عديد الدراسات الجديّة التي ظهرت عن أدب الشابي ، بعد طبعة الديوان الأولى.... وما كان ذلك بعزيز على دار النشر التونسيّة ، خاصّة أن العاطفين بالدرس على أدب الشابي ليسوا اليوم قلة في تونس .

2) ولو رافق الشكل التام الصحيح جميع القصائد... فقد أصبح الشكل التام اليوم رغبة عند جل قراء العربيّة ، وقراء الشعر بوجه أخصّ ؛

وليس الشكل التام الذي ندعو إليه بالأمر العسير ، وقد رأينا أنّ ديوان مصطفى خريف (شوق وذوق) ظهر مشكُولا شكلا تامّا بصورة ترضي .

والغريب أن كثيرا من الكلمات – أو أجزاء الكلمات – في ديوان أغاني الحياة جاءت مرفوقة بالشكل الذي لا يفيد حقّا ، في حين أنّ كلِمات أخرى تستوجب الشكل – لاشتباه الأمر فيها – لم تحظ مع ذلك ، بعناية .

خذ – مثلا – الكلمة الأولى من عجز البيت الأول في قصيدة « النبيّ المجهول » (ص 149) ، فقد شكلت حيث الشكل لا يجدي ، وأغفل شكل الحرف الذي كثيرا ما يقع في شأنه الخطأ :

« أيها الشعب ليتني كنت حطابا   فأهوي (؟) على الجذوع بفاسي

على أنه لا يفوتنا أن نلاحظ أنّ كثيرا من الأخطاء « الشكلية » التي جاءت في الطبعة الأولى قد صوّبت في الطبعة الثانية ؛ منها – مثلا – كلمة « برقع » في قصيدة « الحب » (ص : 45 في الطبعة الأولى ؛ ص : 81 في الطبعة الثانية) .

3) ولو أضيف ثبت – في آخر الديوان – يشتمل على سلسلة التواريخ مرتبة ترتيبا تصاعديّا ، حتى يتمكن الدارس من استعماله بسهولة لمآربه المختلفة في البحث .

وصفوة القول : إننا نعتبر هذه الطبعة الثانية مُتّسمة بالجدّ والتجديد مضمونا وشكلا ، نتيجة بحث وضبط مشكورين .

ولنا – بعد ما قلنا في المضمون – ملاحظات سريعة حول إخراج الديوان ؛ فقد جاءت طبعته نظيفة أنيقة ، واضحة الخطّ المطبعي ، جميلة العناوين ؛ ولفت انتباهنا ذلك البياض الذي ترك في أعلى كل صفحة قبل الشروع في طبع القصيد ؛ فهو يريح القارىء نفسيّا ، ويجعله في « حالة شعريّة » مسبّقا (16) .

---

(16) راجع فؤاد افرام البستاني : الشعر الجاهلي ، سلسلة « الروائع » ، رقم 2 ، بيروت **1958** الطبعة الرابعة) ص 7 ، تعليق رقم 2
وقد كانت ظهرت الطبعة الاولى من هذا الجزء من « الروائع » سنة **1927**

على أنا وددنا لو ازدان الغـلاف بـرسم مستـوحى من حيـاة الشاعـر أو مضمون شعره ، ولو جاء خط عنوان الديوان أكثر أناقة ؛ فلو اقتصر على الخط الذي كتب به العنوان في الصفحة الأولى لـكان أفضل .

وإن كلّ هذا لا ينقص شيئا من قيمة المجهودات التـي بذلت في نشر هذا الديوان نشرا تونسيًّا مشرّفا ، علميّا وفنيّا .

المنجي الشمـلي

شـــوق وذوق

[ديوان] من شعر مصطفى خريف
في جزء واحد ، مقدمة + 325 ص (طبع
الشركـة التونسية لفنـون الرسم)
متعهد التوزيع : دار الكتب التونسية
198 نهج القصبة تونس 1965

صاحب ديوان « شوقٌ وذوق » من أتراب الشابي سنًّا ، وموطنا وثقافة . فقد ولد مصطفى خريّف سنة 1909 — في نفس السنة التي ولد فيها صاحب « أغاني الحياة » — بنفطة ، في الجريد التونسي ؛ تعلّم في الكتّاب فحفظ القرآن ثم انتقل إلى تونس العاصمة حيث التحق باحدى المدارس الابتدائية «القرآنية» ثم بالزيتونة .

وكان في الزيتونة ثالث ثلاثة أشرفوا على نهاية التعلّم ولم يتمّوه وهم : مصطفى خريف وعبد الرّزاق كرباكة والهادي العبيدي ؛ لم يتم مصطفى خريف تعلمه بالزيتونة لأنّه أصيب (بمحنة الأدب) في سنّ مبكّرة . وعاش في جوّ سياسي خانق اشتاق معه الشبان الأذكياء إلى العمل على تغيير مقاييس التفكير في تونس ؛ ففضل الإقلاع عن التعلّم لنيل الشهادات ، وأقبل على « الحلقات الأدبيّة » التي كان يلتقي فيها مع أترابه يعرض عليهم إنتاجه الأدبي الباكر ويستمع إليهم .

وقد ولع منذ الصبا بشعر المتنبّـي والشعر الأندلسـي لولع والده بهمـا ، وشغف كذلك بمطالعة ما كان يَرِدُ من المشرق العربـي من كتب ومجلات ، وما كان يجده من مترجمات للاثار الأدبيّة التـي كانت تزخر بها مـكتبة النادي الأدبـي لجمعية قدماء الصادقية .

وما هـي إلاّ أن أصيب الأديـب الشاب (بمحنـة ثانيـة) : الصحـافـة ؛ فـكـتب في جريدة « الصواب » مقالات اجتماعية ، ونشر فصولا في « لسان الشعـب » و « الوزيـر » .

وعندما خفت القيود المسلطة على الصحافة بتونس — بقيام حكومة الجبهة الشعبيّة في فرنسا — أنشأ زميله علي الدوعاجـي جريدة اسبوعية : « السرور » ، فشارك فيها مصطفى خريف بنشر مقالات لاذعة ينقد فيها أخطاء الصحف المتنوعة ويمضيها باسم خفـيّ : « قلقة صحافي » ، وهـي مقالات تتسم بخفة الـروح والهـزل الجدّي .

ثم أنشأ بنفسه جريدة « الدستور » وهـي جريدة سياسية على نسق أدبـي.

وجدير بالملاحظة أن مصطفى خريف لم يرتبط بوظيف أو عمل مضبوط سوى اشتغاله — مدة — بـكتابة الدولة للتربيّـة القوميّة في ديوان التأليف والنشر بعد الإستقلال ، واشتغاله في الإذاعة التونسيّة هاويا لا موظفا .

وقد عرّف الشاعر نفسه بِديوانه في مقدمته فأرادَ أن يجعل منه « بطاقـة تعريف بأكثر نواحـي شخصيته الذهنيّة بما لها من نزعات وطموح وسخف وغفلة ورشد وضلال وجدّ ولهو ، وهو الرجل الذي أحبّ وحقد ، وأشفق وأبغض ، وسخط ورضى ، وانتصر وانهزم ، ونجح وخاب » .

وفي القسم الأول من هذا الديوان وهو (صفحات من ديوان الحماسة) نجد شاعرا يستنهض الهمم كلما سنحت فرصة بذلك أيام الحماية ويستخلص العبرة

من كل حدث ، ويحزن لـكل خطب نزل بالبلاد ، ويطرب لأفراح الشعب . وفي هذا القسم نجد بابا خاصّا وهو (ذكريات ومراث) يسجل فيه الشاعر ذكرى العظماء من رجالات الأدب والـكفاح كابن خلدون والمعرّي والشابي وشكيب ارسلان والمنصف باي وغيرهم .

وفي القسم الثاني وهو (سفحات من ديوان الصبابة) نجد شاعراً رقيـق الشعور يعشق واجدا ويهيم تائها .

والقسم الأخير وهو (من هنا وهناك) يحتوي على متفرّقات فيها شعر وجداني وقصائد مستوحاة من الـكفاح الاجتماعي والسياسي .

وإنّا نعتقد أن هذا الديوان جدير بالدرس حتى يوضَع في منزلته الحق من الأدب التونسي الحديث .

ولا يفوتنا في النهَاية أن نعرب عن ارتياحنا لِجَوْدَة طبع هذا الديوان ووضوح خطه ، خاصّة وقد شكلت فيه جميع الحروف تقريباً شكلا صحيحا ؛ وهي بادرة طيبة نوَدّ لو تصبح قاعدة . على أننا وددنا لو كان إخراج الغلاف أكثر جودة ، لأنّ الخط الذي رسم به عنوان الديوان وازْدواجية اللّون فيه ممّا لا يرتاح إليهما النظر أولا والذوق ثانيا .

المنجي الشملي

رسائل الشابي

اعداد : محمد الحليوي
طبع : الشركة التونسية لفنون الرسم
(206 ص ـ جانفي 1966 ، تونس ،
طبعة اولى) نشر : دار المغرب العربي،
تونس (سلسلة « مكتبة الشابي »
عدد 1)

كثيرا ما تساءل المهتمون بالأدب التونسي المعاصر عامّة ، وبأدب أبي القاسم الشابي خاصّة ، عن مصير الرسائل العديدة التي بعث بها صاحب « أغاني الحياة » إلى عددٍ من الأدباء والمولعين بالأدب في تونس ، وغير تونس (1) .

وكان السيّد محمد الحليوي ينشر من حين إلى آخر ، بمناسبة حلول ذكرى وفاة الشاعر ، رسالة أو بعض رسالة في هذه المجلّة أو تلك (2) ،

---

(1) « كانت [...] للشابي صلات مودة مع عدد غير قليل من ادباء تونس والبلاد العربية [...] ولكن احدا لم يكن على صلة وثيقة به ـ ادبيا وروحيا ـ كما كان مع ادباء ثلاثة [...] وهم : الاستاذ محمد الحليوي والاستاذ محمد البشروش والدكتور احمد زكي أبو شادي »، راجع « رسائل الشابي » ، ص : 5 (من كلمة الناشر).

(2) في صفحة « التنبهات » (رسائل ، ص 13) يذكر الحليوي الرسائل التي نشرها قبل اليوم .
« 1) الرسالة رقم 3 نشر معظمها بمجلة « الافكار » ـ نوفمبر 1936. »
« 2) الرسالة رقم 8 نشرت في جريدة « الزيتونة » ـ نوفمبر 1954. »
« 3) الرسالة رقم 25 نشرت في مجلة « الندوة » ـ اكتوبر 1953. »
« 4) الرسالة رقم 28 نشرت بمجلة « الفكر » ـ س 2 ـ اكتوبر 1956. »
« 5) الرسالة رقم 29 نشرت بمجلة « الفكر » ـ س 2 ـ اكتوبر 1956. »
« 6) الرسالة رقم 22 نشرت بمجلة « الفكر » ـ س 4 ـ اكتوبر 1958. »

فيزداد الباحثون شوقا إلى الإطلاع على « البريد الشابـي » كاملا ، لعلّهم أن يهتدوا ـــ بفضله ـــ إلى حلّ عديد الطلّسمات التـي ما تزال قائمة حول الشاعر والشعـر معـا...

و« صحّ العزم » على نشر هذه الرسائل ، « بعد إلحاح بعض الأصدقاء » على السيّد الحليوي ، وبمناسبة المهرجان الذي أقامته كتابة الدولة للشؤون الثقافية لِمرور ثلاثين سنة على وفاة الشاعر (3)...

ولقد أعدّ « الرسائل » السيّد محمد الحليوي ، وقدم لها بمقدمة غزيرة الفائدة . وقدم لها الناشر ـــ كذلك ـــ بـ « كلمة » استغرقت صفحتين ، فبيّن أن صلة الشابـي بالثلاثة ـــ يعنـي الحليوي والبشروش وأبو شادي ـــ لم تـكن مجرّد علاقات شخصيّة أو اجتماعية ، بقدر ما كانت علاقة أدبيّة مليئة بالحوار والآراء والمناقشات... » (4) .

وبعد هاتين المقدّمَتين نجد 34 رِسالة موجهة من الشابـي إلى الحليوي ، مع ردود هذا الأخير عليها ؛ وقد لا يـكون الردّ ـــ في قليل من الأحيان ـــ إلاّ بعد وُرُودِ رسالتين...

ثم نجد قسما من الـكـتاب وُسم بـ « الملحق الأول » ، يحتوي على « رسائل البشروش » إلى محمد الحليوي (5) والقسم الأخير من الـكـتاب وسم بـ « الملحق الثانـي » ويحتوي على 39 تعليقا ، لها كبير الفائدة في فهم عـدد ـــ محدود ـــ من المغَلّقات التـي زخرت بها « الرسائل » .

---

(3) اقيم هذا المهرجان بتونس من 24 فيفري الى 28 من هذه السنة (1966).

(4) رسائل ، ص 5 (من كلمة الناشر).

(5) 20 رسالة ، وفصل بعنوان : السنة الاخيرة من حيـاة الشابي نشرتـه « الزمـان » بتـاريخ 16 نوفمبر 1936.

وإنّا نعتبر ظهور هذه « الرسائل » حدثا بالغ الأهميّة لأنه يُعين على فهم الأدب التونسي المعاصر ؛ ويَرجع فضلُ ظهورها إلى السيد الحليوي الذي كان يحتفظ برسائل الشابي « كأنفس الأعْلاق » ، حسب تعبيره في « التنْبيهات » ، وإلى إلحاح ذلك « الصديق » عليه بنشرها ؛ ثم إنّ « الرسائل » ما كانت لتكتسي أهميتها البالغة لو لم تكن مشفوعة بردود الحليوي « التي أرجعها إليه الأستاذ الأمين الشابي غداة موت الفقيد... » (6) ؛ فجاءت هذه وتلك ، مَضمُومةً إلى بعضها بعض ، محاورة حيّة ، ثريّة بالمعاني الطريفة ، مليئة بالإشارات إلى واقع تونس الإجتماعي والفكري فيما بين سنة 1929 وسنة 1934 ؛ إذ هي رسائل « تناولت مشاعر صديقين يتحدثان بكل حريّة في مسائل أدبيّة وعن أشخاصٍ مختلفين من الوسط الذي كانا يعيشان فيه ، ويتبادلان عواطف ذاتية متباينة تندرج من المحبّة الخالصة والإعجاب المطلق إلى العتاب واللوم والتعْنيف [...] ، فهي تمثل عهد الشباب (للمتراسلين) بمـا فيه من حماس وعفْويه وتطرف وعواطف تلقائية نحو بعض الأشخاص والمشروعات... » (7) .

فَلا شك إذن أنها وثيقة خطيرة عن الأدب التونسي في أواخر الثلاثينيات وأوائل الأربعينيات من هذا القرن .

على أنه من المؤسف — حقا — أن رسائلَ للشابي ، موجهة إلى الحليوي ، قد ضاعت (؟) أو اختفت حيث يعسر أن تصل إليها يد الباحث ، إذ احْتفظ بها بعضهم احتفاظهم بالتمائم.... كأصحاب هذه المجلة أو تلك ، أو « بعض مؤسساتنا الثقافية التي أقامت معارض لآثار الشابي » (8) .

---

(6) رسائل ، ص 10 (مقدمة الحليوي).

(7) نفس المصدر ، ص : 9 (مقدمة الحليوي)

(8) نفس المصدر ، ص : 13 (تنبيهات).

وإن الملحق الأول الذي يحتوي على « رسائل البشروش » إلى الحليوي له أهمية كبرى كذلك ؛ إذ هو من نوع رسائل الشابـي والحليوي في تصويـر الحياة الاجتماعية والثقافية في تونس ، بين سنتـي 1933 و 1934 ، فضلا عن أنّ الشابـي محورهُ وجوهرهُ في غالب الأحيان...

ومن الغبن للأدب التونسـي أن تبقى ردود الحليوي على رسائل البشروش غير منشورة ؛ فلعل المحتفظين بها ينشطون لنشرها أو إرجاعها إلى صاحبهـا حتى « يصح عزمه » على نشرها !....

وعلى كلّ ، فانّ الأدب التونسـي سيغنم كبير الغنم من العمل الـذي أقدم عليه السيّـد الحليوي ، ومن طبعه طبعة مرضية إجمالا .

ولـكـنـّا وددْنـا مَزيدا من التعاليق ، خاصّة أننا نعتبر السيد الحليوي من « معادن العلم » في معرفة الشابـي ، ومن الثّقات الذين لا نتّهم...

المنجـي الشمـلي

دراســات عن الشابي

جمعها : ابــو القــاسم محمد كــرو ، طبــع : مطبعة الاتحــاد العام التونسي للشغل (158 ص ـ . فيفري 1966 ، تونس، طبعة أولى)، نشر : دار المغرب العربي ، تونس ـ (سلسلة « مكتبــة الشابي » ، عدد 2)

نشـر صاحـب « دار المغـرب العـربـي » التـونسيّة مجمــوعـة مـن « الدراسات [...] القصيرة والبحوث والمقـالات التـي كتبهـا أصحابهـا عن الشابـي خلال ثلث قرن ، بعضها كتب والقي في حفل الأربعين الذي أقيـم بتونس لتأبين الشابـي غبّ وفاته ، وبعضها الآخر نشره كاتبوه في عـديـد المجلات العربيّة منذ عام 1934 إلى اليوم » (1) ، ووَسَمَ هذه المشاركات المختلفة ، في معالجة أدب أبـي القاسم ، بـ « دراسات عن الشابـي » .

ولقد جمع الناشر هذه الفصول على قاعدة الاختيار (2) أولاً ، وقـاعدة عسر الظفر « بمظانها المتفرقة شرقا وغربا » (3) ثانيا .

---

(1) دراسات ، ص : 5 ـ 6 (مقدمة).

(2) نفس المرجع ، ص : 5 (مقدمة).

(3) نفس المرجع ، ص : 6 (مقدمة).

ويشتمل الكتاب الذي ذكرنا على مقدمة بيّن فيها السيد أبو القاسم محمد كرّو (4) أنه قام بجمع « الدراسات » ، بمناسبة احتفال تونس ، هذه السنة ، بذكرى ميلاد « شاعرنا الخالد » ، رغبة منه في توجيه « تحيّة خاصّة » إلى الشاعـر .

ثم نجـد فيه قسميـن منفصليـن الواحـد عن الآخـر ؛ الأول بعنـوان « دراسات من المغرب العربـي » (5) والثانـي بعنوان « دراسات من المشرق العربـي » (6) .

ولا شك في أن الباحث يفيد كثيرا من مطالعة الفصول « المغربية » أو من إعادة مطالعتها ؛ على أنها فصول متفاوتة القيمة حقّا : إذ منها الجيّد ، تحقيقا وضبطا ، يثير المشاكل الحقيقية ويضعها وضعا علميّا ، ومنها الجيّد ، إخبارا وتعريفا ، يضم مشاهدة العيان ، وخبر السماع المباشر أو المروي رواية متواترة حظها من الصحة كبيـر ، ومنهـا العميـق ، انطباعـا وإيعـازا ، يلقـي الفـكرة الزكية ، والإشارة الثريّة ؛ ومنها الضّحل الذي لا يخلو من الهذيان والغثاثة ، ومن كلام عادي ، ككـلام الناس في أيام دهرهم العادية ، عندما يتحدثون لأنهم لا يجدون من الحديث بدّا ، ولأنّ الاحتفال بذكرى الميلاد أو الوفاة يضطرهم إلى حشد ألفاظ التفضيل المطلق... « كالعبقرية التـي لا يشك فيها ، والخيال الواسع النادر ، والنبوغ الباكر ، والنبوغ الذي تدفق بلا استئذان ولا تقليد ، والموسيقى الشعرية الساحرة ، وفهم الحياة في لبّها وصميمها وجوهرها . »

فلعلّ الناشر كان يحسن فعلا لو ألغى هذا النوع الأخير من الفصـول التـي كانت صالحة في فترة معينة أو ذكرى معينة ، ولـكنها فقدت اليوم

(4) صاحب دار المغرب العربي للنشر.

(5) 13 فصلا (من ص : 7 الى ص : 89).

(6) 6 فصول من ص : 91 الى ص : 154).

الـكثير من فائدتها ، لوفْرة الـدراسات الهامة... ؛ فلو فعلَ لـكان أعان على تخليص أدبنا ولغتنا من جامد القوالب ، وزخرف القول — حيث الحالة غير موجبة له ، والإسفاف في المعانـي وكل ما يذكـّر بصيغة « أفعل التفضيل » التـي لا كـَتـْها ألـْسُن النـّاس — في مختلف العصور — حتى أضـْجروا...

ولعلـّه كان يحسن فعلا لو وضع مكانها من الدراسات التونسية الأخرى ما هو أحضر فائدة وأعمق معنى ؛ نذكر منها — تمثيلاً — مقال الأستاذ محمد صالح المهيدي الذي نشرته مجلة « الندوة » بعنوان « الخيال الشعري عنـد العرب » وهو وثيقة — لا عن مضمون المحاضرة ، بدون شك — ولـكن عن ظروفها الدقيقة وامتدادها ، وتعلق الشابـي بها... ؛ ونعلم جميعا أن عـــدد « الندوة » (7) الذي خصص لأبـي القاسم ونشر فيه هذا المقال أصبـح اليوم أنـْدَرَ من « الـكبريت الأحمر » ؛ وَوددنا لو ضمّ إلى الدراسات مقال الأستاذ الشاذلي بو يحيـى الذي نشرته مجلة الفـكر (8) بعنوان « أبو القاسم الشـابـي والشاعريـّة لحق » ، فهو نظرة سابرة — في أدب الشابـي — توعز بعديد الفـكر البعيدة المدى ؛ وَوَددْنـَا كذلك لـَوْ أضـاف إلى الدراسـات مقال الاستـاذ عبد القادر المهيري الذي نشرته مجلة التجديد (9) بعنوان : « هل للعرب خيال شعـري » ، فهو رأيٌ قائم على إعمـال العقـل في نقد محاضرة الشابـي الخطيرة ؛ ولنـَا أن نتسائل لِـمَ لمْ نـَرَ الأستاذ الحليوي ممثلا على الأقل بردّه الهـام على الدكتور عمر فـَرُّوخ ؛ وقد يتعلـّل النـاشر بـأن مجلة الفـكر قريبة المَـأخـَذِ ، ما زالت كل أعدادها حيـّة بيننا... ولـكـن ما باله اختار منهـا ، ومن « اللغات » أيضا...

---

(7) الندوة : العدد 10 ، اكتوبر 1953 — السنة الاولى (تونس).

(8) الفكر : العدد 8 ، ماي 1960 ، السنة الخامسة (تونس).

(9) التجديد : العدد 8 ، ديسمبر 1961 — السنة الاولى (تونس).

ونحن نعترف أنّ « الاختيار » الذي كان قاعدة الأستاذ كـرّو في عمله لا بد من أن يقف عند حدّ ، ولا بدّ من إغفال الكثير من المقالات وإثبات القليل ، على أنه عمليّة يجب أن يكون أساسها انتقاء الأهم قبل المهم وتقدير قيمة مساهمة الدراسات في التعريف بالشابي...

أمّا الدراسات « المشرقية » من الكتاب فقيمتها تتمثل في أنّ « مظانها » ليست متداولة كثيرا في مكتباتنا العامة والخاصّة ، بل لعلّ منها ما لا يوجد في تونس... وهي دراسات انطباعيّة — في غالبها — ولا تخلو ، في كثير من الأحيان ، من فكرة طيبة ، لفت نظرنا منها خاصة فصل شوقي أبو شقرا عن « الخيال الشعري » ، ومقال حسن محمد محمود عن « شعر الشابي عامة »...

ولم يَخلُ كثير من هذه الدراسات المشرقية — كالمغربيّة — من خلط وحشو وإسهاب حيث الإسهاب لا يُجدي ، وحيث يضرّ القوم بالعربيّة من حيث لا يشعرون .

ولئن كان الطبع مرضيا ، إجمالاً ، فانا وددنا مزيدا من ضبط المراجع إذ أننا ، في بعض الأحيان ، لا نجد ذكرا لتاريخ صُدور المجلة التي أخذ منها المقال أو الدراسة...

المنجي الشملي

شهيـرات التونسيـات

تأليف : حسن حسني عبد الوهاب ،
طبع مطبعة المنـار ، تونس (165 ص
سنة 1966 ـ تونس – طبعة جديدة) ،
نشر : مكتبة المنار ـ تونس

يرجـع تأليف كتاب « شهـيرات التونسـيات » للأستـاذ العـلاّمة حسن حسنـي عبد الوهاب إلى « خمسة وأربعين عاما » مضت (1) .

وإن إعادة طبعه اليوم لحدث هام في تاريـخ الثقافة التونسيّة والمجتمع التونسـي بوجه عام ، إذ كان « من بوادر الاستقلال ـــ لا سيما بعد إعـلان الجمهورية ـــ أن وجّه الزعيم الجليل عزمه الصارم ، تعضُدُهُ الأمّة التونسية

---

(1) شهيرات ، ص 3 « تقديم الطبعة الثانية » للمؤلف ، بتاريخ « ديسمبر 1965 » وهكذا يكون هذا الكتاب قد الف حوالي سنة 1920 ، على اننا نجد « التوطئه » مؤرخة بـ « سلخ **رمضان المبارك 1336 ، (يونية 1917) »**.

ولسنا نـدري هل اعيد طبع هـذا الكتاب قبل اليوم ام لا ؟ ويدعونا الى هـذا **التساؤل** اننا ظفرنا بنسخة قديمة منه ـ لم يذكر فيها عدد الطبعة ـ مؤرخة **بسنة 1353 هـ** (ص : I من الغـلاف) **وبسنة 1934 م** (ص 4 من الغـلاف) في حين ان التوطئة التي توجـد فيهـا مؤرخة بـ **سلَخ رمضان المبارك 1336 »**.

فلعل هذه النسخة القديمة التي ظفرنا بها من طبعة ثـانية (؟..)

وهكذا تكون الطبعة الجديدة اليوم طبعة ثالثة (؟..)

لكن المؤلف اضـاف مقدمة الى هـذه الطبعة الجديـدة وسمها بـ « **تقديم الطبعة الثانية** ». وضبط في اسفلها تاريخ « **ديسمبر 1965** ». والناشر نفسه ـ السيد التيجـاني المَحمدي ـ ذكـر لنا في سياق حـديث ـ دار بيننا وبينه ـ عن كتـاب « شهيرات » ان هـذه الطبعـة طبعة ثانية ....

والحقيقة اننا لم نجد العناصر الكافية للبت في المشكل ....

قاطبة – للرفع من درجة المرأة إلى مستوى الرجل في كل ميدان ، فسَن قانونا جديدا يجعلهما سواسية في كـلّ الحقـوق ، وخـوّل المـرأة حـق التصـويت والمشاركة في الانتخابات ، وإشغـالهـا في سائـر منـاصب الحـكـومة وعمـوم المؤسسات » (2) .

والـكتاب – في طبعته الجديدة – نسخـة مطابقـة للطبعـة القـديمـة (أو الطبعتين ؟) سوى ما أضيف إليه من مقدّمة « للطبعة الثانية » (ص 3 – 4) ومستدْرَك الخاتمة (ص 158 – 161) .

أما جوهر الـكتاب فهو سبعة فصول يعرّفُ فيها الأستاذ الجليل بِـشهيرات التونسيـات اللاتـي نبغـن في مختلف أدوار التـاريـخ التونسـي ، من الـدور العربـي إلى الدور الحسيني ؛ على أن المؤلّـف يأمل – وطيد الأمل – « أن يضاف قريبا إلى تراجم السابقات نابغـات معاصرات يثبتن ما لِتونس الناهضـة من السمعة الحميدة ، والشهرة البعيدة والسيرة المثلى... » (3) .

ويذكر الأستاذ المؤلّـف السبب الذي بعثه على إنشاء هذا الـكتاب ، وهو أنّ « حديثا جرى بينهُ وبين أحد الأصدقاء الأعزاء في العام الماضـي (1916 ؟) في شأن التأليف المسمّى «الدرّ المنثور في طبقات ربّات الخُدُورِ» الذي دبجتـه يراعة الـكاتبة المصريـّة الشهيرة زينب فوّاز (4) في التعـْريف بالمتقدمات من

(2) شهيرات ، ص 3 « تقديم الطبعة الثانية » بقلم المؤلف.

(3) نفس المرجع ص 4 « تقديم الطبعة الثانية » بقلم المؤلف.

(4) هي زينب فـوّاز العـاملية ولـدت سنة 1844 او 1846 بلبنـان وتوفيت سنة 1914 بمصر نشأت بمصر ، وذاع صيتهـا الادبي في النصف الثـاني من القرن التاسع عشر ، وكـانت معاصرة للشاعرة عـائشة التيموريـة ، وشاركت بقلمهـا في الصحافـة فكتبت في : النيل ، واللواء ، والمؤيـد ، وغيرها من الصحف ، ونظمت الشعر ، والفت في القصة « الملك قورش او ملك الفرس » و « حسن العواقب » واهتمت بالمسرحية فألفت « الهوى والوفاء ».

ومن اهم مؤلفاتها « الدر المنثور في طبقات ربات الخدور » ضمنته ترجمة 426 امـرأة من العربيات وغير العربيات (طبع ببولاق سنة 1895) وشرعت في اعداد كتاب بعنوان « مدارك الكمال في تراجم الرجال » ولكنها لم تتمه ،وكانت – الى ذلك – كبيرة الاهتمام بتطور المرأة ، داعية الى تعليمها ، وضمنت الكثير من آرائهـا في هـذا الموضوع ، بِرسائلهـا التي صدرت بعنوان « الرّسائل الزّينبيّة » م. ش.

النساء في كل قطر ومصر ؛ وعلى ذكر هذا التصنيف تحرّكت بواعث الشجن في نفس ذلك الصديق فأظهر أسفا شديدا على خلُوّ هذا القطر من أخبار نابغات تونسيات يؤلف في ذكرهنّ مثل ذلك الكتاب [...] واقترح عليْه تـأليف عجالة يُلمعُ فيها إلى ذكر [...] النابغات الْأَصَائِلِ [...] حرصا منه على ترصيع إكليل تاريخ هذه البلاد المأنوسة بتلك الدراري الكريمة ، والجواهر اليَتيمة ، فلم يجد بُدّا من القبول... » (5) .

وليس هذا الكتاب مجموعة من التراجم الجافة ، كما قد يتبادر إلى الذهن ، ولكنّه دراسة تاريخيّة أدبيّة اجتماعيّة ، هي رحلة شيّقة تعلّم وتريح في آن ، فتصوّر — بديع التصوير — العهد العربي وقد « تمكن العرب في زمن قصير من إدغام الأمة البربريَة — وغيرها من الأمم — في الأمة الإسلاميّة الكبرى » ؛ وأول « شهيرة » حظيت بالترجمة في هذا الكتاب هي « الحفيدة الخطابية » زينب بنت عبد الله بن عمر ؛ فعمر بن الخطاب جدها ، وحفصَة أم المؤمنين عمتها ؛

وهذه الحفيدة الخطابية قدمت تونس عند ما غـزَا عبد الله بن عمر إفريقية للمرّة الثانيّة ؛ وماتت في أثناء هذه الغزوة ودفنت بالقيروان بـ « مَقبرة قريش » التي تعرف اليوم بمقبرة « الجنَاح الأخضر » .

ثم تبرُز لنا صورة « صنديدة بربريّة » : دَهْيَا بنت تابتت بن تيفان الشهيرة بالكاهنة ، صاحبة الدهاء والشجاعة حتّى « ماتت موتة الأحرار بعد أن خلّدت في تاريخ هذا القطر ذكر الأبطال... » (6) .

ثم نمرّ بأمّ البنين فاطمة بنت محمّد الفهري القيْروانيّة — وقد نزحت إلى المغرب الأقصى مع العرب الوافدين إليه من القيروان ، على عهد الادارسة

(5) شهيرات ، ص : 8 — 9 (توطئة).

(6) نفس المرجع ، ص 21.

العلويين ، وبنت جامع القرويين الشهير ، من مالها الخاص ، بعدوة القروييـن بمدينة فاس ؛

ويستعـرض المؤلّـف نساء لامعات أخريات ، فيذكر فقيهتـي القيروان — أسماء بنت أسد بن الفرات وخديجة بنت الإمام سحنون — ثمّ الأميرة مَهرِيّة الأغلبية ؛ وأميرات صنهاجيات ، منهن « فاطمة الحاضنة » وهـي جارية نصرانية أسلمت وصلح إيمانها حتى وقفت على « جامع عقبة بالقيروان الـكتب النفيسة والمؤلّفات النادرة التـي ما زال بعضها يشاهد ليومنا هذا.. »(7) ؛ وأمّ يوسف زليخاء — حليلة الأمير المعزّ بن باديس — الشهيرة بالعطف على المعوزين ؛ والأميرة بلاّرة — من نساء المهدية — وهـي بنت تميم بن المعز بن باديس ؛ والشاعرة خدّوج الرُّصْفِيّة — من مرسى « رُصْفة » بالساحل الشرقـي من القطر التونسـي ؛ والجازية الهلالية التـي « جمعت بين الحسن الباهر والعقـل الـوافر... » (8) .

— ومن لامعات الحفصيات : زينب التجانيّة ، الشاعرة الحاذقة ؛ وأمّ العُلاء العبْدَريّة الحافظة للقرآن ، والقائمة بما جاء في « إحياء علوم الديـن للغزالي » قياما كاملا ، والمولعة بالاختلاف إلى الأندية العلمية وبالمناظرة في المسائل الهامة ؛ والسيدة المنوبيّة — من نساء ضاحية منوبة « غربـي مدينـة تونس » — وهـي تلميذة « حبر الصوفية الـكبير الإمـام أبـي الحسن الشاذلي» (9)

ومن شهيرات الدور التركـي الأميرة عزيزة عثمانة « صاحبة المبرّات » التـي أنشـأت — من بين مـا أنشـأت — « مرستـانـا داخـل الحـاضـرة — بحومـة العزّافين — لمعالجـة أصنـاف الألام ، وقد صار يسمّى بعد (المستشفى

(7) نفس المرجع ، ص 81.
(8) نفس المرجع ، ص 93.
(9) نفس المرجع ، ص 118.

الصادقي) » (10) ؛ ومن فاضلات الدور الحسيني : فاطمة عثمانة ، التي اشتهرت بسموّ الأخلاق وكبر النفس واحترام كرامة الإنسان...

هذه نظرة سَريعة إلى عددٍ من النساء اللاّتي اشتَهَرْنَ في تونس ، في مختلف حقب التاريخ ، منذ قدوم العرب إليها . ولئن كان عنوان الكتاب يشير إلى أنّ المحتوى سيكون تعريفا بشهيرات التونسيات ، فانا نرى في هذا البحث محتوى آخر لا يقل أهمية عن الأول : وهو توفّق المؤلّف إلى إثارة « قضيّة المرأة التونسيّة » ، إثارة عميقة المعنَى في مختلف مراحل تاريخنا ، مبيّنا أنه قد كانَ للمرأة التونسيّة كرامة ، وحريّة ، وحقوق وَوَاجبات ، في كلمة تسيير أمور الدولة ، ورأى في تغذية الفكر ، وأثرٌ في الذود عن الأخلاق الكريمة... وقد أرجع الأستاذ الجليل هذه المزايا إلى ما تغذت به « الشهيرات » من رحيق الشريعة الإسلاميّة التي حفظت للمرأة حقوقها وحرمتها...

ولعلّ الطالب لتراجم الشهيرات في هذا الكتاب قد يضيع عليه الموضوع — أحيانا — عندما يطلق الأستاذ قلمهُ لإثارة مثل هذه المشاكل ، ولكنا نعتبر أنّ هذه الاستطرادات بالذات هي التي جعلت الكتاب جيّدا ، حتى إنّنا نرى فيه رأي الجاحظ في كتابه « الحيوان » إذ يقول : « هو كتاب موعظة ، وتعريف ، وتفقه ، وتنبيه... والمزاح [فيه] جد [...] اجتلب ليكون علة وللجدّ » .

ولئن بدا موقف الأستاذ الجليل من قضيّة المرأة مُحَافظا عند إنشائه إيّاهُ سنة 1917 ، فلا بدّ لنا من تذكر دقة تلك الظروف والخطر الذي كان يهدد شخصيتنا بالمسْخ يومئذ ؛ وإنّا نكبر للمؤلّف توضيح موقفه في « مستدرك الخاتمة » توضيح باحث اجتماعي قويّ الحدس ، واقعي النظرة ؛

(10) نفس المرجع ، ص : 135.

ونحن واثقون من أنّ الشباب التونسي سيجد في هذا الكتاب الهـام روحا تونسيّة حيّة خلال العصور ، وشخصيّة تونسيّة ثريّة ، ومعدنا من معادن العلم موحيّا إليه بالنخوة والأصالة...

ولا بد من أن نعرب عن ارتياحنا إلى إخراج هذا الكتاب في طبعة حسنة واضحة ، جميلة الخط ، نظيفة من الأخطاء « المطبعية » إلاّ في قليل من الأحيـان...

المنجـي الشملي